بؤس الرفاهية

ديانة السوق وأعداؤها

المحررة

باسكال بروكنر

نقله إلى العربية

عبد الله السيد ولد أباه

مكتبة ونشر العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers


بسم الله الرحمن الرحيم

بؤس الرفاهية
ديانة السوق وأعداؤها

المحررة:

باسكال بروكنر

نقله إلى العربية

عبدالله السيد ولد أباه

مكتبات ونشر العبيكان

Obeikan

Publishers & Booksellers

"إلهي أرني
عدوي. حين تظفر
بعدوك يمكنك أن تقتله. ولكن
الناس هنا يوقعوني في الخطأ. من
يؤذيني؟ من يدمر حياتي؟ قولوا لي من هو الذي
سأنتقم منه."

V.S. Naipul

In a free state

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المقدمة

رقصة المحتدمين:

في مطلع شهر يناير 2001م، كان آلن غرينسان رئيس المصرف الفيدرالي الأمريكي يدشن أول خفض لنسب إيجار النقد لدفع النمو الراكد والحيلولة دون الكساد، فإذا بمؤشر الأسعار التكنولوجية (ناسداك) يتصاعد فجأة بأكثر من عشرة بالمائة بعد أشهر من الانخفاض المستمر، وقد قوبل هذا التحسن المستمر باحتفالات حارة في بورصة نيويورك وبلغ التأثير مداه. ذلك أن الكيميائي الساحر قد حقق معجزة قلب التباطؤ إلى إقلاع سريع.

وحتى لو كانت فترة النصر قصيرة، إلا أنه لم يحدث أبدا أن كان مشهد من مشاهد البورصة أقرب لطقس ديني.

في الحطام العام للمعتقدات والإيديولوجيات، تثبت إيديولوجية معينة على الأقل، هي إيديولوجية الاقتصاد. ولقد تخلصت منذ أمد طويل من طابع العلم الجاف، ومن النشاط العقلي الصارم، لتغدو آخر عقيدة روحية للعالم النامي.

إنها إذ تغوص في الفراغ القيمي، لا تنمو فقط على حطام الأنظمة الشمولية والمجال السياسي الكامل، بل أصبحت ترنو لإعادة بناء شامل للمجتمعات البشرية، إلى حد أن تسمو إلى مستوى المبدأ المطلق للفعل الإنساني.

إنها دين متقشف، دون اندفاعات خاصة، لكنه يؤجج حماساً قريباً من الشعائر التعبدية من خلال أساليبه ومسلكياته الدقيقة.

فعلى عكس عبارة ماركس المشهورة، لم تجمد مياه الحسابات الأنانية بل صارت تغلي.

فالإيمان لا يكون أبداً خطيراً إلا في عهود الشك، عندما يستحوذ العقل المضطرب على أول موضع بحثاً عن الحماس المفقود. وفي هذه الفورة، يستأثر التيار المعادي للرأسمالية المتجدد هذه الأيام بكامل الغنيمة: فهو القداس الشيطاني في ممارسة طقوسية يشارك فيها حتى من يريد تقويضها.

لقد ارتدى كل مسوح التقوى لطرد الأرواح الشريرة، حتى ولو كانت تقوى سلبية. فإذا كان الصنم يسعد بعضهم، ويثير نقمة بعضهم الآخر، إلا أنه يظل صنماً.

فالبورصة في المشهد العدمي المتأرجح بين هبوط وصعود أصبحت هي فانوس القدر، تتوقف رحمتنا وعذابنا على صعود أو هبوط مؤشراتها.

وقد بدا لي أن هذه العباءة هي ما يجب التحرر منه. فحتى ولو كنت سأعرض نفسي لصواعق الخبراء من كل جانب، فإنني أتدخل هنا كمتطفل يكتب لغير المختصين في موضوع يعاني عادة من احتكار وتقديس مبالغ بهما.

والحق يقال: إن مهنة الاقتصادي قاسية! أقسى من أي مهنة أخرى، لأنها يجب أن تخضع دوماً لإلزامية البرهان.

فتوقعاتها حتى ولو كانت قابلة للتحقق في أدق التفاصيل، إلا أنها لا تزيد صدقية عن توقعات الرصد الجوي أو أبراج الحظ.

ومع ذلك، فعلى أساس هذه التوقعات تبنى سياسات كاملة، وتصاغ البرامج. فقليلاً ما نجد مهنة تتراكم فيها كل هذه الأخطاء والأغلاط دون أي عقاب.

يتوجب علينا في ما وراء إرادة العدالة الاجتماعية والمساواة التي تحرك أطيب المحتجين قلباً أن نتخلص من ميثولوجيا الرأسمالية التي تلتقي فيها كل الاتجاهات.

فها هو هذا الاتجاه الأخير (أي الاتجاه الاقتصادي) يفقد هالته السحرية، ربما من جراء انتصاره. إنه في طريقه للابتذال، إن لم يكن قريباً من الهلاك أو الاستبدال بأمر آخر.

لقد كان من المؤمل أن يخلصنا الاقتصاد من الحاجة فمن يخلصنا من الاقتصاد؟

الجزء الأول

العدو المفيد

الفصل الأول

مخدوعو النعيم

"لنتخيل أن عفريتاً خارقاً ظهر منذ عشرات السنين في سماء الولايات المتحدة لوضع البلاد أمام خيار صعب: إما أن تحتفظوا بوضعكم الاقتصادي الحالي وتستمروا على السير على المنوال نفسه... وإما أن أقترح عليكم أمراً آخر! في مطلع القرن القادم سيكون بعضكم أغنياء غنى فاحشاً، وستزداد القوة الشرائية للأغلبية وسيتضخم الاقتصاد. ولكن ليس ذلك كل شيء (يهتز العفريت مقهقهاً) أما الجانب الثاني من الأمر الذي أعرضه عليكم فهو: ستختفي الوظيفة المستقرة، وتغدو الدخول غير منتظمة، ستتزايد الفوارق ويتفكك المجتمع. ستعملون كثيراً، ويتناقص وقتكم لباقي شؤون الحياة... عليكم أن تختاروا. "

Robert Reich, Future parfait

إن الرأسماليين لا يؤمنون ألبتة بالرأسمالية. إنهم يؤمنون بالاشتراكية بالنسبة للأغنياء. يريدون أن يتأكدوا أن الحكومة تهتم بشأنهم وحدهم دون أن يدري الآخرون بالأمر".

Michael Moore

غداة انهيار جدار برلين ظهر في صحيفة "انترناشونال هيرالد تريبيون" رسم مثير: مصرفيان يرتديان معطفاً كثيفاً يناديان شحاذاً غارقاً في الثلج ويصرخان: "لقد انتصرنا".

إنه تعبير مختصر عن سوء الفهم الذي طبع هذه الأعوام. فلقد برزت الرأسمالية للعالم بالفعل بعد 1989م في ملامح المنتصر الزائف.

فبالإضافة إلى نشرها لحقوق الإنسان، غدا بمقدورها -في غياب خصوم جادين- تعميم مزاياها إلى كل مكان، وتأهيل المعمورة إلى مستوى حضاري لا مثيل له. وهكذا انجرفت أوروبا وأمريكا المزهوتان بمكسبهما في غفوة ضارة، عكرتها بالكاد حرب الخليج والصراع المشتعل في يوغسلافيا السابقة[1].

كان لا بد أن نقلع بسرعة عن غرورنا: فلم يخفق اقتصاد السوق في الوفاء بوعوده فحسب، تاركاً على قارعة الطريق مئات الملايين من البشر، وإنما بدا مجرد ماكينة إنتاج للثروة دون أي غائية أخرى سوى مزيد من الثروة أيضاً.

فحين تفشل الرأسمالية، تثير نقمتنا بما تخلق من شدائد، وحين تنجح تغيظنا بما تبثه من بشاعة وما تروجه من بضائع رديئة: بضائع متراكمة لا حاجة إليها، وكأن الاستهلاك المحموم أصبح الهدف الأقصى للحضارة الغربية، ويترتب عن ذلك انكفاء الأفراد على أنفسهم، وضعف اهتمامهم بالعالم، فلا يرون في السياسة

سوى امتداد لإدارة شركات تسمى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا.

إنها حركة مزدوجة: ننقم على الرفاهية بأنها ليست سوى الرفاهية، بمعنى أنها سخيفة، لا تسع الكل، ليس فقط باعتبار أن ثمار التقدم لا توزع بالقسط، ولكن لأنها أيضاً ثمار مسمومة، ضارة لما يلازمها من إسراف وتلوث.

لقد غدت الرأسمالية تعاني من انفصام عميق بعد قرابة ثلاث عشرة سنة من تحطم التجربة السوفياتية، منذ أن أصبح من غير المتاح الابتزاز باسم الخوف من الشبح الكلياني: إنها الهواء الوحيد الذي صرنا نتنفسه، بيد أننا ننظر إلى مكاسبها ونقائصها بقلق أكبر من الماضي.

إننا نقاسيها بقدر ما نرتضيها، ومع ذلك لا نصدق الخرافات التي تغطي بها سيرها إلى الأمام.

معذبو الوفرة:

لم تصل بالفعل يوماً الفوارق (الاقتصادية) إلى هذا الحد من الاتساع على خلفية ترف مثير. نعرف الأرقام القاسية المبتذلة (حتى ولو كان بإمكان بعضهم التشكيك فيها): فعلى الرغم من نمو مرتفع لاقتصاديات البلدان النامية إلا أنه يعيش حالياً 20 ٪ من سكان الأرض البالغ عددهم الستة مليارات بأقل من دولار واحد في اليوم، كما يعاني كل طفل من بين أربعة أطفال في الجنوب من

سوء التغذية. وإذا كانت التطورات التقنية قد سمحت بالقضاء على المجاعة، والتغلب على أهم الأمراض، ومكنت من إطالة عمر الإنسان، "وإذا كان الفقر قد تراجع خلال الخمسين سنة الأخيرة من القرن العشرين أكثر من تراجعه خلال الخمسمائة بل قل الخمسة آلاف سنة الماضية"[2]، ومع ذلك فإن الدخل المتوسط للفرد في إفريقيا قد انهار منذ الستينيات.

فحسب البنك الدولي، لا تتوفر مساكن مستقرة لـ 600 مليون فرد، وإذا لم تتغير الأمور من الآن إلى سنة 2010، فإن أكثر من 1.4 مليار إنسان سيعيشون دون الحصول على ماء للشرب أو مواصلة بالمجاري.

ولنضف أخيراً أنه في عام 1998 كان 350 شخصاً الأكثر غنى في المعمورة يسيطرون على ثروة تتجاوز الدخل السنوي المتراكم لقرابة نصف سكان العالم[3].

ونلمس الاختلالات نفسها في البلدان المتقدمة: ففي عام 1969 تنبأ ريمون آرون على الاستناد المتحفظ للاقتصادي الأمريكي من أصل نمساوي جوزيف شمبتر - أنه خلال نصف قرن سيقضي النمو الاقتصادي بذاته على الفقر لدى 20٪ أو 30٪ من السكان الأقل حظوة في السلم الاجتماعي[4].

بيد أنه إذا كان الناتج الداخلي الخام قد زاد بـ 20٪ في مطلع التسعينيات في بلد مثل بريطانيا، إلا أن عدد الفقراء

النسبيين (أي بحسب مستوى العيش) قد زاد في الوقت نفسه بالمليون.

وفي نهاية الثمانينيات أضاع العامل الأمريكي ربح ثلاثين سنة من الرفاهية: "لقد عادت القوة الشرائية لدخله إلى المستوى ذاته الذي كان عليه في مطلع الستينيات" (دانيال كوهين)[5].

وفي عام 1988، كان يملك 2.7 مليون أمريكي الأكثر غنى قدر ما يملك المائة مليون الأكثر فقراً[6].

أما بخصوص إمكانات تدارك هذا الانزياح فإنها شبه معدومة: تحتوي شبكة المعلومات العالمي (الإنترنت) على ألعاب تسمح باحتساب عدد القرون التي يتوجب على فرد محدود الدخل أن يعيشها ليصل إلى مستوى سنة واحدة عاشها أحد الأفراد الأكثر ثراء[7].

أما السلم في أيامنا فهي من 1 إلى 150 لدى بعض الشركات، إلى حد ينذر كما يقول بعض الكتاب المسيحيين بتقويض معنى الكيان البشري، وفصل السوق عن قاعدته المجتمعية، أي الطبقة الوسطى التي تتخوف في ناحيتي الأطلسي من التحول للفقر، وتنظر بعين الرعب لشبح الانهيار[8].

وبحسب ما نعرفه يرجع جانب وافر من هذه الوضعية إلى طغيان غير مسبوق للأسواق المالية، وإلى الثورة التكنولوجية، والمرور من رأسمالية تسييرية إلى رأسمالية أموال موروثة، حيث المساهمون يتحكمون في الأمر على حساب الأجراء.

ومن هنا جمود دخول العمل، والانفصام القائم بين النمو الاقتصادي المعقد وإيقاع تبادلات البورصة، وتكلس الحركية الاجتماعية، ونهاية العقد الملتئم بعد 1945 الذي بمقتضاه تضمن لكل فرد واحد فرصة العمل في الوقت نفسه الذي يتم فيه الحفاظ على السلطة العمومية.

وهكذا غدا الأمر، وكأن كل مكاسب مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية قد محيت لصالح مجتمع أكثر قسوة، مناهض للضعفاء محب للأغنياء، وكأنه أصبح من الواجب إعادة النظر في كل شيء، والنهوض بصراع جديد من أجل الحياة والكرامة.

إنها العودة لنقطة البداية، إلى إرهاصات الحركة الثقافية والعمالية، ولكن دون الأوهام التي كانت تحرك المناضلين والمحرضين.

إن الأمر يتعلق بعودة الرأسمالية الشرسة، التي لا ترحم من لا تحتاج إليهم، والتي تكثر من الوظائف التي لا تتطلب تكويناً ولا تدر سوى دخل محدود، فهو نظام وصل حداً من الفظاعة لا يمكن معه انتظار مستقبل أفضل.

لقد عادت فوارق الدخول بين الأغنياء والفقراء كما كان الشأن في القرن 19 إلى مستوى كثافة الاختلافات شبه الميتافيزيقية، وكأن ثمة لاهوت متصلب ينجي بعض الناس ويقصي الآخرين.

ففي حين أن الحداثة من حيث المبدأ لا تحكم على أحد بالبقاء في وضعه الأصلي ولا تعترف مطلقاً بحواجز الطبقة والجنس والعرق والمولد، فإن جدار المال يعيد بالضرورة إنشاء حواجز طبقية مغلقة.

صرامة واعتدال بالنسبة للعمال، تسامح وتخفيف للضرائب بالنسبة للمحظوظين: فالرئيس الجمهوري جورج بوش انتخب في البيت الأبيض بعد ثماني سنوات من الإدارة الديمقراطية على أساس برنامج يعد بتقليص ضريبي قدره 1350 مليار دولار على مدى عشر سنوات، وسيستفيد 1 ٪ من الأمريكان الأكثر غنى من قرابة 40 ٪ من إجمالي هذا المبلغ.

الأرستقراطية الريعية:

رحمة بأباطرة المال: يفرضون أنفسهم ملوكاً لزماننا، يسخرون من القوانين العادية، يتمتعون بسلطة وجاه لا حدود لهما، يتأقلمون مع كل الأنظمة ما دام بإمكانهم العيش حسب هواهم.

فسواء كان نشاطهم في تجارة الصورة أو الرياضة أو المال، يشكلون نخبة لا وطن لها تتحدث باللغة الكونية الجديدة "الواليتش" أي إنجليزية وول ستريت، وتسكن مملكة الترف والترفيه الساحرة.

رفاهية فردية فوق حدود التصور، تتجاور مع إملاق محزن أو مرافق عمومية يرثى لها، كما هو الشأن في بعض الدول الأنغلوساكسونية.

وكل ذلك باسم المبدأ النفعي القديم القاضي بتحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس "كل واحد له (من حيث المبدأ) قيمة مساوية للآخر" (جيرمي بنتهام).

فنظرية الفتات تفسر كيف تتساقط قطع الذهب من طاولة الأثرياء وتسهم بلا مراء في تحسين وضع المعدمين بصفة غير مباشرة.

بيد أن الهوة بين هؤلاء وأولئك ما تنفك تتزايد. فالمشكل ليس اقتصادياً، وإنما هو سياسي؛ لأن توزيع الدخول يرجع دوماً لتوزيع السلطة (جون غالبريث).

أما شفافية الدخول العليا النسبية تماماً، التي تقدم في فرنسا بصفتها دليل تقدم ديمقراطي في حين أنها القاعدة في الولايات المتحدة حيث يفتخر المرء بالتصريح علناً بممتلكاته، فإن من نتائجها أيضاً. تحطيم الضعفاء تحت وطأة التعويضات الفاحشة التي يحصل عليها رؤساؤهم.

فحيث كانت بقية حياء تدفع المهيمنين -خصوصاً في البلدان ذات الثقافة الكاثوليكية- إلى الاختفاء، بدل الرياء، نرى اليوم الفحش والتظاهر.

لا حاجة للتخفي، فعلى الشعب أن يستبطن الحاجز الذي يفصل بينه وبين آلهة هذا العالم، الذين لم ترتبط مكانتهم دائماً بالمؤهلات والقدرات (ما يمنع في الواقع أرباب مهننا من إعلان

أرباحهم ليس الحياء بقدر ما هو الخوف من أن يظهروا تافهين في مقابل نظرائهم الأنغلوساكسونيين الذين يجنون مغانم أكثر).

فعلى الرغم من روعة مبادئ حكومة المؤسسة[9] التي تخضع منتخبي الشعب لسيطرة رجال الأعمال، فإن مملكة أصحاب الشركات عنيدة صلبة، ولا تزال تمارس قانون الصمت.

ففي كل مكان تخلف "رأسمالية التمالؤ" أضرارها، في أروبا واليابان، ولكن أيضاً في أمريكا عبر نظام اللوبيات أو تبادل المصالح المشتركة بين فرد ثري وسياسي مؤثر وجد نفسه شيئاً فشيئاً مقبولاً في شبكة المالكين، وانتهى به الأمر أن غدا لا يرى العالم إلا بأعينهم ومن خلال اهتماماتهم[10].

فالأمر أبعد ما يكون عن حصول من هم أكثر كفاءة على أكبر مردود: "إذا تقيدت الأسواق حقاً بضوابط صارمة، لم يكن الذين يعملون بجد فقراء ولم يكن المضاربون ليصبحوا إجمالاً أغنياء" (جيمس غالبريت)[11]. فالمال لا يذهب للجدارة، وإنما إلى القوة والرغبة، فمن يتحكم في الرغبات يتحكم أيضاً في الموارد.

لقد كان آدم سميث يعتقد أن العمل المضني أو الخطير يدر بالضرورة أجراً أكبر، في حين يرى الطوبائي الفرنسي شارل فورييه أن سلم التعويضات يتحدد بتناسب عكسي مع مدى الجهد، فيكون التعويض مرتفعاً إذا كان الجهد جد قاس، ويكون منخفضاً جداً إذا كان الجهد مريحاً.

ومن البـدهي أننا لم نتبع نصـائحـهمـا. فعـندمـا نعلم أن راتب رئيس شـركـة مـا هـو 500 مـرة ضـعـف مـتوسـط راتب مـوظفـيـه، وأن راتب رئيس آخـر يوازي راتب 1500 عـامل مكسـيكي (وهو الأمـر الذي أثار سـخط جون سـونيـاي رئيس AFL CIO في ربيع 2001 بخـصـوص جـان ولتش الرئيس السـابق لجنرال إلكتـريك)، ندرك عندئذ أننا غادرنا منذ أمد بعيد مـنطق الشركة البـسيط ودخلنا في نمط جديد من العلاقات الإقطاعية(12).

تتحقق حـالياً أكثـر من أي وقت مضى المصـادرة السـادية التي مـفـادهـا: أن يكون المرء غنيـاً هو أن ينعـم بما ليس عند الآخـرين، أي أن يبتهج بكون كثيـر من البشـر مـحـرومين مما يملك. يتعلق الأمـر بالانتزاع من يد الغير أكثر من الجمع للنفس.

إن المال كما هو مـعلوم يصلح لشراء المسافة الاجتمـاعية، ولكن من أجل إبرازهـا أكثر: فيظل ملتصقاً بما يبتعد عنه؛ ولذا لا بد من المظهر السفلي المنفر للاستمتاع بعدم الانتماء لهذا المشهد.

ولا يحـتـاج المرء لأن يكون واسـع العلم حـتى يدرك أن الطبـقـات المهيـمنة تخـون المبـادئ التي تـدعي الاسـتناد إليـهـا، فـتـفـرط في استخدام الحمـايات المتوفـرة لهـا، وتسـيء استعمـالهـا للحفـاظ على ريعهـا. إن انتقـادهـا يتمـثل قبل كل شيء في دعـوتهـا للتقـيد بمعـيار السوق، وبالميثاق الليبرالي الذي تنتهكه دون وجل(13).

ومن هنا فـإن بعض النـاس يمتعـضون إزاء نظام لا ينفك ينتهك

قوانينه الخاصة، فيتحدث عن التنافس في حين ينتج الاحتكارات، ويتغنى بالشفافية ويسمح بالجنان التي لا ضرائب فيها إن لم يكن يشجعها في التجارة القائمة بين الدول.

يتساءل بعضهم معترضاً: ما الضير في ذلك؟ فما المشكل في زيادة الهوة بين الأغنياء والفقراء ما دامت دخول الفقراء تزداد باضطراد؟

علينا أن نرد بسؤال آخر: لماذا يجب أن يترجم دوماً الغنى العام بمزيد من انعدام المساواة؟

لأنه منذ الثلاثين سنة المجيدة التي ولدت الأمل لدى الجميع في الإقلاع السريع، تقلص استعداد الناس لقبول الفوارق الاجتماعية. فالمقارنة المتواصلة بين الأمم والشعوب والفئات تجعل كل شيء معلوماً مباشرة، وتجعل الفوارق غير مقبولة. لقد ازدادت فظاعة الشعور بالغبن والتفاوت. فلماذا نتواطؤ إذا كنا لا نجني أي فائدة ؟

فما تم إنجازه جعل ما فقدناه أو ما سنفعله أكثر شناعة. فدون فرصة الترقية، لا ديمقراطية ولا سلماً اجتماعي.

فإذا كانت البرجوازية تخشى الانحدار إلى مستوى الطبقة العاملة، وكانت الطبقة الوسطى تتوجس الهبوط، فإن العقد الاجتماعي قد تحطم برمته.

لنكرر مرة أخرى، إن المحرومين الحاليين أقل عدداً من قبل

قـــرن، وهـم أقـل مـن نـظـائـرهـم فـي بعض دول الجنـوب. وهـذا لا يواسـيهـم فـي شـيء: إنهم ينظرون إلى الأعلى، نحـو الفـئـات الأكثـر حظوة.

فبداية من نقطة معينة، يتساوى الفقر والعبودية، حتى ولو بدت لنا نسب الدخل محدودة: لأن الفقر علاقة اجتماعية، إنه أمر رمزي قبل أن يكون إحصائياً. فقياسه بحسب مقاييس الدخل القومي الخام لا معنى له، فالعوز هو قبل كل شيء حرمان من الحريات؛ لأنه "حرمان من القدرات" (أمرتيا سن)[14].

إنه يتجسد في المذلة، وصعوبة العلاج والعجز عنه والعجز عن تعليم الأطفال وعن التخطيط للمستقبل، كما يتجلى في التضايق من الظهور في الجموع، وفي الاضطرار إلى نمط ما من العزلة والاحتجاب.

فهذا الفقر الذي نعتبره نسبياً بالمقارنة مع الماضي أو بحالة بعض المناطق الجغرافية الأخرى، قد يراه الذي يعانون منه فقراً مطلقاً.

وفي نهاية المطاف، إذا سلمنا أن الأغنياء يستحقون ثرواتهم وأن غرورهم مبرر بعبقريتهم الخاصة، فهل نستنتج من ذلك أن الفقراء يستحقون إملاقهم؟ وأن من يحصل على دخل أقل من 1500 يورو في الشهر ليس سوى أحد العاجزين أو المتخلفين أو القاصرين.

الكاهن الرأسمالي

يركز أميل زولا في رواية "المال" المنشورة عام 1891 التي تتناول عالم البورصة النتن بأبطاله ومحتاليه وأغنيائه على شخصية قميئة واسعة الثراء، تدعى آماديو "شخص ضخم له وجه أحمر حليق" قاده "العناد الأحمق المحظوظ" إلى وضع كل ثروته في أعيرة معدنية هبطت أثمانها إلى الحضيض. وقد جنى من اكتشاف عروق معدنية حقيقية ومعتبرة في الأعيرة 15 مليوناً دفعة واحدة "وهكذا بدلاً من أن تؤدي به عمليته الخرقاء إلى ملجأ المجانين رفعته الآن إلى مستوى العقول المالية الكبرى". فأصبح الجميع يستشيره. ولكنه يجيب عن كل سؤال بالتكشير، فلا يبقى للسائل سوى تأويل صمته.

ولقد اختار هذا الغبي المتوج تلك العبقرية المتفردة والاستثنائية وضع نبية معبد دلفي: التذمر والصمت.

لنتساءل بصفة كاريكاتورية نستهجنها: كم يوجد من آماديو في أيامنا بين رجال التسيير وغيرهم من الخبراء الذين تؤدي تدخلاتهم إلى تدمير زبائنهم؟

ذلك ما تبينه هذه التجربة التي قامت بها صحيفة وول ستريت جورنال (حسبما ورد في شائعة نذكرها بتحفظ): تلاعب محررو الجريدة بتسيير الأسهم نفسها التي يديرها مكتب معروف

بجديته، وقد توصلوا حسب ما يبدو للمكسب نفسه تقريباً! فما فائدة المحللين الماليين؟

إنها تكمن في عقلنة الصدف، وتحقيق الطمأنينة، ومنح كل هذا الهباء منظراً منطقياً. فعلى الاقتصاد من حيث هو علم اللايقين أن يعلم طلبته لغة الكهنة: أي فن عدم تكذيب أي شيء، وإغراق كل مقترح في ضباب مريح.

يا له من اعتراف ذلك الذي ورد في كلمة آلان غرينسبان: "إذا كنتم اهتممتم بما قلته آنفاً، فذلك معناه أني أسأت التعبير".

الانغلاق في الهواء الطلق:

في كل مكان من غربنا المشع، يعود شبح الحاجة من حيث تبذيرنا الذي وصل حداً غير مسبوق[15] في كل مكان تتعزز لدى الأجيال الشابة فكرة أن عمل المرء لم يعد لأجل كسب العيش وإنما لضمان البقاء، دون أي من الضمانات التي كانت تقدمها الدولة الراعية في منتصف الثمانينيات. كيف يمكن للمرء أن يكون وفيا للمؤسسة، إذا كان بإمكانه أن يطرد منها بمحض هوى المساهمين، أو إذا كان يقوم مقابل تعويضات تافهة بأشغال مرهقة يمكن أن تتلوها أخرى أقل مردوداً؟

إن الأمر يتعلق بعدد من التغيرات التي مست عالم الشغل

بكامله، ليس فقط أن الوظيفة المستقرة لم تعد لها وجود، وإنما أيضاً لكون الوظائف الإلكترونية المتعددة قد أنتجت نمطاً جديداً من الستاخونوفية (من عمال السخانوف في أوكرانيا) تطرد الأزمنة الضائعة، وتجمع المجهود كله في يد واحدة، وتبقي الموظفين في توتر دائم[16].

ومن هنا كما بين المراقبون ندرك كيف يكون الاستنزاف السريع للموظفين وللقيادات. فلا هم يحققون أي مكاسب، وكل إغفاءة على الوسادة الرخوة الأليفة يمكن أن تكون قاضية ("لا سبيل للعيش طويلاً في الأسواق". ج. م. ماسياي)، إذ التنافس يضع كل الأطراف في حالة إنهاك مستمرة، وفي أوضاع نفسية بهلوانية.

لقد أصبحت الأقدمية عائقاً في الغالب، ففي بعض القطاعات لا تتجاوز كفاءة الشخص في ما يبدو فترة صلاحية عارضة أزياء أو مصارع محترف، فلا ينجو من هذا الحال سوى من يكون مستعداً للتضحية بكل شيء، وبدءاً بحياته الشخصية.

فكيف نستغرب في مثل هذه الظروف أن الناس يتجهون شيئاً فشيئاً في أوروبا (ولكن أيضاً في الولايات المتحدة) [17] إلى الطموح لتقليص وقت الشغل للإخلاد إلى أصناف أخرى من تحقيق الذات.

ولئن كان المكتب والورشة والمصنع لا تزال مواقع للحياة المشتركة، فإن مفهوم المسار المهني الملائم لمستوى الشهادات قد

ضعف، كما ضعفت الرؤية الكلاسيكية للشغل بصفته جهداً دؤوباً لبناء الذات وتغييرها، وتجاوباً متناسقاً مع الزمن ليغدو العامل العنصر الأفضل في مجال عمله.

وفي المقابل، تسود فكرة العمل كبضاعة مؤقتة الاستعمال، أي مجرد أشغال صغيرة يقبل عليها المرء أو يتخلص مهنا دون مبالاة، وكأن اليد العاملة مجرد نمط من الحرفية البسيطة.

ومن هنا هذه المفارقة: في حين تطمح الطبقات النشطة إلى مزيد من الوقت الحر، تستميت الدوائر العليا في العمل وترى في الإنهاك مظهر قوة.

ففي مطلع القرن الحادي والعشرين، قد تعتمد الجماهير شيئاً فشيئاً الكراهية الأرستقراطية للشغل، في حين قد تختار النخب باستمتاع خط العبودية النشطة التي كانت من قبل خاصة بالدهماء. والخطر البدهي الماثل هنا هو: أن السادة عندما يمتلكون العمل، يستولون في الآن نفسه على مصائر الأمة، وسينتهون إلى التحكم في الآخرين الذين يغدون في نهاية المطاف عبيداً عابثين.

وإذا أضفنا إلى هذا ترنح البورصة التي تقفز مع كل "تنظيف لآلة" وتكيف الأمزجة بحب وتيرة الناسداك والنيكاي - إلى حد لم نعد نقل كيف حالك وإنما كيف حال البورصة - أدركنا كيف يسود شعور بانعدام الأمن الشامل.

ربما كان ذلك ما نسميه بعبارة غامضة "العولمة"، تلك المقولة الفارغة المهيمنة على الحوار الراهن[18]: أي الشعور بالخضوع لقانون القلز دون أن يصاغ هذا القانون بوضوح.

ولا يهم إن كان الأمر في جانب كبير منه أسطورياً، فالعولمة كما يقول لنا المؤرخون كانت جد قوية إن لم نقل أقوى عشية الحرب العالمية الأولى[19]: فأي تصور تقاسمه عشرات الملايين يغدو حقيقة ولو كان خاطئاً.

ومن ثم يسيطر علينا الإحساس بأن مصيرنا قد سلب منا، وأننا عرضة لقوى كبرى حقيقية أو متوهمة، تمارس علينا الإكراه دون أن نكون قادرين على الإفلات منها.

فتقلص الزمان والمكان الذي أحدثته التقنيات الجديدة يؤدي إلى القضاء على المسافات التي كانت تحمينا من المخاطر البعيدة، كما أدت إلى القضاء على إمكانية الرد على الاعتداءات الواردة من الخارج.

فالعولمة هي قبل كل شيء تغير في السلم، وفي الحدة والسرعة. إنها تترجم هذه اللحظة التاريخية التي أصبحت فيها الأرض تعي حدودها، والبشر يعون ترابطهم العفوي.

فالكون لم يعد المجال المشترك لتبادلاتهم، وإنما أصبح موقع تباريحهم المتبادلة: شأنهم شأن الزنابير المحبوسة في علبة لا مخرج لها من أجل البقاء سوى أن يلدغ بعضها الآخر.

لقد غدونا محرومين من المسافة الضرورية لربط كل علاقة؛ لأن جميع الناس يتواصلون فيما بينهم، ولا حاجز يفصل الشعوب عن بعضها، سوى بضع ساعات في الطائرة أو القطار.

لا يمكننا قبول هذا التجاور داخل القرية الكونية، فلا بد من إعادة الحواجز والمسافات، لكي يسترجع كل منا مكانه.

لم يعد أحد في مأمن، فحتى الأماكن أكثر سكينة، والمواقع الأقصى، أصابها التلوث. فالتهديد يمكن أن يحل في أي مكان، وعند أي لحظة، على شكل كارثة بيئية أو نووية أو كيميائية أو إرهابية. إننا نعرف الآخرين بالقدر الكافي الذي يسمح لنا بالحذر منهم أو التهاون بهم، ولا نعرفهم بالقدر الذي يمكّننا من محبتهم أو الشعور بالتضامن معهم في مصائبهم. فالانفتاح الذي وعدت به الحداثة الإمكانية الهائلة للخروج من المحلي، من الأسرة، من مواطن الولادة أفضى إلى انغلاق جديد. فليس هو بتوسيع للأفق وإنما ضبطه في شكل سور مغلق. وها قد أصبح محكوماً علينا أن نتقاسم نوعاً ما المعمورة مع 6 مليار من جنسنا.

فالعولمة هي قبل كل شيء عولمة الشك في فوائدها: إنها تؤول إلى محاكاة مبهمة، تنتشر بسرعة البرق وتبث الأخبار الحسنة والسيئة على السواء.

وإذا كانت الرفاهية تفيد قبل كل شيء المحظوظين، فإن الانحدار يمس كل البلدان دون تمييز.

وها نحن غارقون في إلزامات غامضة: التحديث، الانفتاح الليبرالي، التخلص من التقاليد ومن الرتابة لكي نتبوأ موقعاً أفضل في السباق.

أوامر كثيرة تفرضها علينا العولمة بثمنها الباهظ من آلام الغزيرة.

فإذا توجب علينا أن نصف العولمة بكلمة واحدة، عرفناها بالقول: إنها التماثل في الحال دون ترابط المصير. وإذا علمنا أن 10٪ بالكاد من سكان المعمورة ينتجون ويستهلكون 70٪ من الثروة والخدمات، وإنه في عام 2000 كان 65 ٪ من البشر لا يتوفرون على الهاتف، و 40٪ لا يتمتعون بالكهرباء، دون الحديث عن الهوة المعلوماتية - مشترك واحد لألفي شخص في إفريقيا جنوب الصحراء مقابل واحد من ثلاثة أفراد في الولايات المتحدة.

فهمنا عندئذ أن في عبارة العولمة كلمة زائدة هي "العالم" ما دامت تترك في الضياع أجزاء كاملة من المعمورة.

ومن هنا طابع الميوعة في حركة الاحتجاج الجديدة: فمن الواضح أن هدفها، على الرغم من المظاهر، ليس مقاومة العولمة بقدر ما هو السعي لتحقيقها.

إنها تستخدم الأسلحة نفسها لتوصلها لمكان آخر، ولتكملها، بعيداً عن هذا الشكل الكلي الكاريكاتوري الذي نراه حالياً، ومن ثم تؤول في النهاية إلى توحيد الجنس البشري كما أراد من قبل فكر الأنوار.

المحتوم المرح:

لقد أضعنا فرصة تاريخية رائعة إثر سقوط جدار برلين، عندما كان بمقدورنا أن نجعل عالمنا أفضل قليلاً وأكثر إنسانية. انزاحت آنذاك كل العراقيل السياسية والعسكرية، فبدا حقل الإمكانات هائلاً.

بيد أن مجتمعاتنا المزهوة بتفوقها انغمست في غرور قاتل، ناسية كما قال بعضنا وقتها أن سقوط الشيوعية لم يكن انتصاراً للديمقراطية وإنما هزيمة لأحد خصومها.

لقد سادت منذ ذلك الحين صفقة غبن حقيقية: فالفردوس الموعود للجميع بعد معاناة البرزخ، والمستقبل الخارق تحولا إلى حالة انهيار أعقبت حالة الاستبداد.

فالعقيدة الليبرالية المغرية بما تقوم عليه من وعد بعدم إفقار الأغنياء وإنما إغناء الفقراء أخفقت لدى العديد من الناس. لقد خدعنا: وكأن الثروة كالآلهة المتجبرة تتطلب نصيبها من القرابين خصوصاً أن الأمر يتعلق في الاقتصاد بـ "ضحايا خاصين" تستهدفهم آليات غامضة، لا شكل لها، ولا أحد مسؤول عنها[20].

وعلى هذه الخلفية المشتركة، جاء الاقتصاد الجديد (الذي لم يستنفد بالكامل خصوبته) ليضفي بصمة إضافية على هذا المشهد الجميل. فهو من حيث اعتماده على جمهورية الشركاء (12٪ من المؤسسات في فرنسا و 70٪ في أمريكا)[21]، يجسد الاستقلالية

وحسن التعامل. لقد أراد الاقتصاد الجديد أن يجسد قبل الانهيار المالي المرحلة القصوى من حرية السوق: التسبب بفضل الثورة الإلكترونية في نمو لا حدود له، عبر دورة مثلى تخلصت كلياً من خطر الأزمة.

لقد أراد أن يكون مرحاً، لطيفاً، مرفهاً، وأن يبتدع نوعاً من "البزنس المرح" الذي يوفق بين الشغل واللعب والإيقاع. إنها شركات "طيبة" حيث الابتسامة والمرح من مكونات مسلك البيع: سيكون أجرك قليلاً، ولكن سيكون لك الحق في رفع الكلفة في المخاطبة مع رئيسك، ويمكنك أن تأتي للعمل في لباس سكيت بورد أو في بنطلون جينز[22].

إن هذه الفرحة العارمة التي انقلبت من بعد إلى شعور بالاكتئاب انتهت إلى الإنذار التالي: اتبعونا أو اختفوا. إنه إرهاب المحتوم: لقد حسم التاريخ الأمر، وعليكم أن تتأقلموا.

وهكذا انبثق خط تمايز جديد يفصل ما بين الجامدين والمبدعين، والمطلعين والمتخلفين، بين من يتوفرون على مصادر المعلومات ومن لا يتوفرون عليها.

فالبروليتاريا القادمة ستكون بالتأكيد خارج الخط، بمنأى عن الجنة الإلكترونية الموعودة؛ ذلك لأن الاقتصاد الجديد، الذي تتحدد سمته المميزة في تصور المنتوجات بدل صناعتها (دانيال كوهن) اكتفى بما درج عليه الاقتصاد السابق من تقسيم بين الرابحين

والخاسرين وإن بطريقة مغايرة: فإن كان يمنح "للطبقة الإلكترونية" ولبعض العناصر الحديثة السن فرصة الوصول إلى مقام "مليونيرات الدقيقة الواحدة (ربما يكون قد اختفى 80 ألفاً من هؤلاء خلال صيف 2001 من جراء انهيار أسهم الإنترنت)، ولئن كان حافزاً للإبداع، إلا أنه يخلف وراءه، كما هو شأن كل تغير يمس الرأسمالية نصيبه من الضحايا الذين لا يحمل لهم المستقبل بالضرورة سوى وجه الشقاء.

لقد برهن على الخصوص أنه إيمان غيبي قبل كل شيء، وأبرز للعيان الطابع اللاعقلاني " للعلم" الاقتصادي.

وقد يكون أكثر ما يقلق في هذه الوضعية هو ارتباك الخبراء الذين جهدوا أنفسهم في البحث عن مبادئ جميلة في الأخلاق والسياسة والفلسفة لإقناعنا بصلوحية الانقلاب الحالي، في مزيج فريد من الجهل والغرور.

فهم عاجزون عن فهم المرحلة، يتلاعب بهم صبيان البورصة، مثل المساكين المبتذلين، يعرفون كل شيء ولا يستشرفون أمراً، يخطئون في الغالب ونادراً ما يتحملون نتيجة أغلاطهم.

إن هذرهم الظريف لم يكن ليستحق الاهتمام، لو لم يكن يسلط علينا بجدية وعنف. وكأن الاقتصاد العالمي أصبح كالنجم المجنون المندفع على غير هدى في الضباب بمباركة كبار الكهنة، مكثراً من نذر التقوى وألفاظ التوبة (يلجأ بعض سماسرة وول

ستريت إلى خدمات كاهنات الفودو لكي" يطهرن مواقعهم من قوى الشر").

ومن هنا المواعظ الفارغة الجديدة، التي هي مواعظ المحتوم المرح التي تدعو إلى قبول نظام السوق الأعلى وعدم فعل أي شيء يعوقه، فهو وحده الذي يعلم ما هو خير لنا، حتى ولو بدا للوهلة الأولى غير محبب: ففي شره خير مبطن؛ ذلك هو شرع التنزيل المقدس.

إن مجتمعاتنا لم يعد بإمكانها تبرير تقصيرها ونقائصها بتعلة الأنظمة الشيوعية. فمنذ الآن "يجب أن تقوم بمقاييس مثلها الخاصة. بيد أننا عندما ننظر عالمنا من خلال هذه المعايير يبدو فظيعاً.

إن رهان السنوات القادمة هو بالكامل هنا. فإذا كانت الرأسمالية تقوض كل شروط قبولنا لمنطقها، وإذا كانت تدخل في صراع مع قيمها الذاتية بتعهدها لنا بتحقيق رفاهية وحرية لا يتحققان بالفعل، فإنها بذا تخسر الطبقة التي كانت تستند إليها والتي أوصلتها للسلطة.

وإن هي فقدت ثقة البورجوازية، التي هي الطبقة الكبرى اليوم في الغرب، تكون خسرت نفسها وعرضت البناء الديمقراطي للخطر.

فاهتزازات التقويم الاقتصادي المتذبذب الذي ينتقل من

التبشير بالنعيم الهستيري إلى التخويف من الوضع المرهق لا تزيد الرأسمالية شعبية[23].

لقد انحسر بالتدريج منذ عام 1989 ذلك الحب العابر الذي كان يكنه الأوروبيون وخصوصاً الفرنسيون منهم للرأسمالية، بفضل مكاسب السنوات الثلاثين الخصبة (وقد جسد ميتران هذا الحب بالمصالحة التي عقدها بين اليسار والسوق بداية من عام 1983).

فإذا كانت الرأسمالية هي النظام الوحيد الباقي في السباق، فإنه يحتاج لفعل الكثير لكي ينتزع إعجابنا.

إننا نتأقلم معها ولكن لا نحبها، مهما كانت جهود هؤلاء وأولئك للتخفيف من مرارة الجرعة ومع ذلك لا نكرهها، ولكن نتقبلها دون أوهام.

فهذا الوعي اليقظ هو الذي يجب أن تستند إليه الحركات الاحتجاجية الجديدة بدل الرهان على مشهد القيامة الكبرى الذي لا يبدو وارداً.

الفصل الثاني

نحو مقاومة جديدة؟

"على الرأسمالية أن تدعم محاكمتها أمام القضاة الذين يحملون في جيوبهم الحكم عليها بالإعدام. يتهيأ هؤلاء القضاة للنطق بالحكم، مهما كانت الأدلة التي يستند إليها المحامون، فالنجاح الوحيد الذي يمكن أن يسجله الدفاع القوي هو تغيير قرار الاهتمام".

Joseph Shumpeter, Capitalisme, Socialisme et Démocratie.

كيف يمكن الحيلولة في مثل هذه الظروف دون اندلاع عصر جديد من الثورات كانت سياتل منطلقها وبورتو اليغر التعبير الساطع عنها.

ولكن هذه الاعتراضات تتميز بخاصية جديدة، وهي كونها لا تقدم من الحلول سوى النقد الدائم، دون تقديم نموذج عالم مغاير. إنها تشبه حال رجل يضرب رأسه على الحائط لتليينه ما دام لم يتمكن من حفر باب لاجتيازه.

"كيف يمكن أن نكون معادين للرأسمالية ؟" تساءلت عام 1997 مجلة من المجلات الفكرية، مما يبرهن على أن الموضوع لم يعد مدار إجماع[24].

ذلك أن مناهضة النظام الرأسمالي تتزايد بقدر ما تتمحي ذكريات العهد السوفياتي وفضائحه، ومن المتوقع أن تتضاعف لأن الرأسمالية -التي ليست لها بدائل ناجعة- تنوء على مصير العالم كالقدر المحتوم، حتى ولو كانت لا تزال بعيدة عن الانتشار في كل مكان.

لا نعترف لها بأي فضل، وإنما نحملها مسؤولية كل ضرر. ولكن هذا الوحش الذي نشتمه طول الوقت، يظل من نواح عديدة وهماً مجرداً. نلاقي العناء لإيجاد التسمية المناسبة لهذا المأزق، فعبارة "عولمة" لا توحي بمواجهة عدو ذي صدقية كبيرة.

ولذا نلجأ في اتهاماتنا إلى المغالاة في استخدام صيغ التفضيل، فنحن نرفض الليبرالية القصوى والبورجوازية القصوى والإرهاب الأقصى، والقوة العظمى الأمريكية، وكأن إضافة أداة

تصدير للعبارة تجلي الغامض وترمي بالموضوع الموسم بالصفة المذكورة في خانة الفظائع.

ولكن ثمة ما يبقى بعد النعت بما هو "أقصى" و "أعلى" وما هو "أبعد". فها نحن نحتج في أيامنا ضد استخدام ألفاظ مبهمة، لا وجه لها، مثل: الاتفاق المتعدد الأطراف حول الاستثمار (AMI) ومجموعة السبع (G8) وصندوق النقد الدولي (FMI) ومنظمة التجارة العالمية (OMC) والأعضاء المعدلة جينيا (OGM) والبنك الدولي، وليس فقط ضد طبقات وأشخاص.

وربما كان ذلك هو الأسوأ، أي عدم القدرة على تحديد وتعيين ما نعاني منه؛ لأن ذلك يجعلنا عاجزين على أخذ مسافة منه.

متاهة اللعن:

من هنا يتولد بصفة جامحة الشعار النقدي لدى يسار اليسار، كما لدى اليمين المتطرف. إن هذا الشعار بمثابة الخمر المسكر القوي وإن كان لا يفضي إلى أي شيء ملموس، وإنما يستنفد غالباً في المشاكسة، في مواجهة عقيمة مع ما ينفر منه.

ذلك أن مناهضة العولمة هي إلى حد الآن على الأقل خطاب يقدم على شكل تعويذة تحمي من شر الأشياء: فالمقترحات الملموسة تظل متلعثمة، ما عدا الدعوة الطقوسية إلى التظاهر في كل مرة يجتمع عظماء هذا العالم في مكان ما من المعمورة.

وكأن بعد الرجاء في الدين قد أزيح ولم يبق سوى بعد اللعن: ندوس هذا العالم الدنس الذي لا يمكن انتهاك حرمته، ونود أن نكون خزنة كئيبين لجهنم المعاصرة.

لقد ابتعدنا عن روح الاعتدال التي كانت سائدة عشية عام 1989، فقدنا الصرامة والاعتدال في خطابنا الفكري الذي اتسم بهما في فرنسا بتأثير بعدي من ريمون آرون.

نركن إلى حد الغثيان للذة القدرة على سب هذا المجتمع لنتقيأ كامل المرارة، ونلجأ لسلاح محاربة الفاشية، ذلك السلاح الثقيل المفيد دوماً عندما تعوز البراهين. وما نحن سائرون في درب "الحماقة الكلية" حسب عبارة سارتر.

وقد حازت قصب السبق في هذا المجال فيفان فورستر التي تخطت حد المقبول بتشبيهها "الرعب الاقتصادي" بمعسكرات الاعتقال خلال الحرب العالمية الثانية، وبتوقعها "مجازر جاهزة" على يد سادة العالم[25].

فالرأسمالية ليست من هذا المنظور سوى الأخت التوأم للنازية، وسيحقق لها وجهها المقبول ما لم تحققه من مشروع إبادة بعد خمسين سنة من هزيمة الفاشية.

وبانفتاح هذه الثغرة، أصبحنا نستخدم الاستعارة النازية بمعان شتى، مما أرجعنا إلى أسوأ مراحل الصراع بين الشرق والغرب.

فهذا طبيب نفساني يدعى كريستوف دجور يكتب صفحة جديدة في تاريخ التشكيك في المحرقة اليهودية، في كتابه "معاناة في فرنسا" الذي ذهب فيه إلى تشبيه الإطارات العاملة في الشركة في تواطؤهم مع أرباب العمل لاضطهاد الشغيلة بتواطؤ العديد من الألمان في إبادة اليهود[26].

أما دانيال ميتران فقد أكدت في براغ، بمناسبة إحياء الذكرى العاشرة للثورة المخملية (1989) أن اختفاء الاستبداد الشيوعي فتح الطريق أمام وباء أسوأ، هو "الاستبداد الليبيرالي" المفروض في العالم أجمع[27].

أما الكونفيدرالية الزراعية فقد اتهمت "الشركات المتعددة الجنسية التي لا وطن لها" بأنها تثبت "فلسفة قريبة من الفاشية" أما القائد ماركوس فقد ندد بـ "الفاشية الليبرالية" (لموند ديبلوماتيك - أغسطس 2000) التي ينتمي إليها كل من لا يقف إلى جانبه (كما هو شأن أوكاتافيو باث الذي تجرأ على نقده).

فبالنسبة لعبقري العصابات الإعلامية المذكور الذي لا يتكلم عن نفسه إلا بضمير الغائب مثل آلان دلون، تحدد العولمة بأنها هي "الحرب العالمية الرابعة من أجل السوق الليبرالية الجديدة".

وها هو أيضاً كاتب رائج، يعتمد الاستفزاز مقارناً في رواية

يغلب عليها بطر الاستهزاء بين الإعلان الترويجي ودعاية غوبلس دون أن يثير أي اعتراض (لست مغفلاً إزاء النسق القائم ومعارضتي لهذا النسق)[28].

وكما الأمر دوماً، فإن المرجعية العدمية تغني دوماً عن التفسير والفعل.

فهذا التبكيت بلغ من الهذيان حداً لم يعد يتصل بالواقع. فأسوأ أشكال الشطط تتقبل دون ردة فعل. هكذا تلتقي الفظاظة والخمول. فالغلو يلازم الجبرية: إذا كنا نختنق في قفص فولاذي، فليس بإمكاننا فعل شيء سوى الاعتصام بالمواقف المتطرفة واللجوء إلى المغالاة في الكلام، فالتفكير ينتفي عندما يراد التخلص من إكراهات اللغة، كما قال نيتشة.

وبصفة أشمل، إن التهجم على الرأسمال الضخم وعلى "المطبلين الإيديولوجيين" (سوزان جورج)، هو في فرنسا بداية نمط من حسم صراع عائلي، ونقل إشكالات وطنية إلى الأبعاد الكونية.

إنه قبل كل شيء هجوم على اليسار الرسمي، بتحميله مسؤولية جريمة الإصلاح والمصالحة مع الليبرالية المشنعة. نشن الهجوم على "كلاب الحراسة الجدد"[29] الموجودين بكثافة في الفقاعة الإعلامية، ولكن الأمر لا يعدو التمييز بين أولئك المنافقين الرديئين ونحن الأصفياء، الأصليون. (لنا الحق في الإشارة إلى الارتباط الوثيق القائم بين الصحافة الموسومة "بالحرة" وملاكها

وبالمجموعات الإعلامية الكبرى، بما ينتج عن ذلك من مخاطر مصادرة، ولكن يجب أن لا ننسى مع ذلك أن أسوأ عدو للحقيقة "ليس الكذب وإنما القناعات (نيتشة). فإذا كان كثير من الصحف المناضلة أو صحف "يسار اليسار" لا يقام لها وزن، فذلك عائد إلى التزام محرريها الذي يجرهم عادة إلى إخفاء بعض جوانب الواقع التي لا تتلاءم مع "قناعاتهم" (أي مع إيديولوجيتهم). لنلاحظ هذا الأمر البالغ الغرابة المتمثل في العودة الهزلية لأجواء 1968 ضد ثوار 1968 أنفسهم، ورغبة من ولدوا متأخرين جداً في القيام بتمثيل كوميدي لما كان من قبل محاكاة لأحداث أخرى.

إن الأمر يتعلق بانتصار الجيل الببغائي الذي يعتب على الجيل السابق عليه بأنه خان مثله، ويقدم نفسه بأنه الوريث الحقيقي، الذي سيشن مقاومة جديدة.

فالحالة الراديكالية الشاذة أصبحت واجباً لدى أولئك الذين فاتتهم سنوات الستينيات والسبعينيات؛ ولذا رفعوا العداء للرأسمالية راية جديدة، خصوصاً أن هذا العداء قد أضحى أكثر قيمة، بانتفاء النماذج المضادة المفجعة القائمة في الاتحاد السوفياتي والبلدان الدائرة في فلكه.

إن الذي صمد بعد فشل الاشتراكية ليس هو الإيمان بها، بل إن فشل الاشتراكية الحقيقية هو الذي ولد إيماناً جديداً بها، بريئاً من كل تبعية للأنظمة المشبوهة.

ها هي الإمعات الإيديولوجية تعود بقوة: فنرى يساريين سابقيين تحولوا إلى الليبيرالية في عهد ريغان، يعودون في سن متأخرة إلى نزوعهم الشبابي في معاداة الرأسمالية متهيئين لشوط ثان، متخصصين في تغيير جلودهم في كل الاتجاهات، في انتظار الثوب القادم.

كم هو غريب فعلاً هذا الافتتان بصورة المتمرد الذي يلازم على الأخص الفنانين والمفكرين والكتاب والسياسيين.

علينا أن نرى فيها دون شك إحدى القيم التي تلوذ بها النرجسية المعاصرة، في حقبة يسود فيها الإجماع الشامل حيث يتساوى الأفراد والمذاهب ويتشابه جميع الناس.

كما تخفي هذه الفتنة الحنين إلى زمن، كان فيه صاحب القلم والفنان والعالم والموسيقي يستمدون تألقهم من الدخول في صدام مع السلطات القائمة.

وهكذا كان العبقري المعزول الذي يواجه بلادة معاصريه، ينتج الأعمال الرائعة التي يقابلها استنكار الجميع، ويقدم النظريات الاستفزازية التي تنبع من عباءة السرية والاضطهاد.

فالإبداع كان دوماً بمثابة الاعتداء على نظام العالم، وتقويض مألوفات اللغة والتصور والتناسق، وفتح ثغرة داخل كون مستغرق في اليقينيات من أجل "دفع عربة الشعب المتثاقلة إلى الأمام" (كاندسكي).

فالمتمرد يوفق بين صورتين مميزتين: صورة الإنسان الاستثنائي الذي يعلو فوق الجماهير، وصورة الإنسان الفاضل الذي يضع مواهبه في صالح الآخرين، ويضحي بنفسه من أجل سعادتهم.

إنه يجمع بين النخبوية والقداسة، ويحوِّل صلابة شخصية قوية إلى قربان مقدم للبشرية برمتها.

وهكذا ندرك كيف أن المتمردين الحقيقيين قليلون: إذ لا بد لتحمل الأذى والرفض والكراهية والسجن من الانحدار من طينة لا ينحدر منها أغلب الناس.

لابد لذلك مما يشبه الجنون، ومن كبرياء اليقين بأن المرء في حق ولو عارضه الناس أجمعهم.

ولندرك بعد هذا كله أن الحداثة قد جعلت من ديانة العصيان قاعدة ذهبية؛ لأن حدثها المؤسس الذي هو ثورة 1789 قد أقام قطيعة جذرية بين القديم والجديد.

فمن العالم المعذب إلى حد الشهادة الرافض للحقائق الراسخة، إلى الفنان الجائع الذي يشق طريقاً غير مسبوق لفنه وسط السخرية والاستهزاء، أصبح التمرد ضمان الجدة والأصالة معاً.

بخيل سفيه، جشع:

إن البخل هو مرض الحرص، والسفه هو مرض التبذير. الأول هو حب المال بصفته وسيلة مطلقة تتجاوز كل الغايات: لا يمكن أن يوازيه أي استمتاع لأن كل أصناف الاستمتاع تتجمع فيه ضمناً. فالمكتنز لا يجمع الأوراق النقدية وقطع الذهب إلا ليمنع نفسه من الاستفادة منها، متيقناً أن كنزه لا يمكن أن يخذله بالنظر لطابعه التجريدي ذاته (جورج سيمل). أن نقتطع من الكنز جزءاً يسيرا، هو كأن نقتطع من جسمه عضواً، كأن نسلخه حياً. إنه ثروته أكثر كثيرا من كونه يملكها، فهي جزء لا يتجزأ من وجوده.

أما السفيه فهو على عكس ذلك لا يفتأ يعلن كل يوم من خلال الاستهلاك الجارف احتقاره للمال. لا يتردد أمام أي حفلة، ولا مأدبة، ولا شراء أي بضاعة باهظة الثمن، وفي اللحظة التي يقذف بالدراهم عبر النافذة، يرصد الإعجاب والنشوة في أعين الآخرين الذين يتوجونه جواداً كريماً.

إنه يسعى لإقناعهم أن هذا المعدن الدنيء لا يحرك منه ساكناً، ولا ينفك يذم شح بني جلدته وشغفهم بالمال. ولكن حرصه على المبالغة في صرف المال بصفته سيداً كبيراً يبرهن على أنه لم يتخلص تماماً من الشيء الذي ينفر منه.

هو نفسه لم يحسم أمره مع هذا الإله الزائف، وما عطاياه

الكريمة إلا عطايا خادعة، تتم عن دخوله في تصفية حساب لا نهاية لها.

فالبخيل والسفيه أخوان متناقضان، وكما بيَّن جورج سيمل هما وجهان لعملة واحدة، يتفقان في تقديس المال، أحدهما بكنزه والثاني بتبذيره.. فالمقتصد والمستمتع ابنان لأب واحد.

أما الجشع، فعلى الرغم من صورته السلبية، إلا أنه بطل الرأسمالية الحقيقي، يكسب أرباحه بطريقة منهجية وعقلانية. ربما كان إنساناً شرهاً لا يشبع، ولكنه إنسان له هوى واحد، دائم ومتوقع، يشتهي أرقاماً يسره تكاثرها المحموم، تولد لديه إثارة لا تنضب.

هو دوما في حالة هيجان، سواء تعلق الأمر بعملية في البورصة، أو عروض عامة للشراء، أو بتصفية أو دمج، يتحرك بحسب وتيرة إفراغ الأدرينالين.

فالمال بالنسبة له مصدر خصوبة لا تنضب، ومادة تسمو بالعالم، تقود إلى جمالية الهائل ولما كانت لا توجد مقادير لا يمكن تجاوزها، فإن همته ونشاطه ليس لهما حدود. إنه صياد للمستبعد، يعقد صلات غرامية مشحونة مع الأسعار والحصص، يشم الملايين المحتملة، ومع كل خطر قائم يحس بشهوة غير عادية، هي شهوة الانحطاط أو المجد.

فالبخيل هو شخصية الاقتصاد الساكن، والسفيه شخصية الاقتصاد البذخ، والجشع شخصية الاقتصاد الزاهر. ونحن نجمع بين القليل من خصال الثلاثة.

فقد نقتصد من مبلغ تافه، وقد نلتهب لنزوة عابرة، وقد نكدس بنهم لا حد له، ولكن ثمة لحسن الحظ علاقات أخرى بالعجل الذهبي أكثر هدوء وتجرداً.

بيد أن المال بالنسبة للذين يعبدونه ليس مجرد شر يصنع خيراً أو خيراً يصنع شراً، ذلك أنه السماد الذي تنمو فوقه زهور الحضور -حسب صورة أميل زولا التي نستعيدها هنا- هو أيضاً مواساة خارقة. فبقدر ما نسعى لتحصيله أو حفظه أو إضاعته، فإنه يستوعب الطاقة كلها، ويكتفي بذاته، ويمنح الحياة معنى مكتملا. إنه مسكون بقوى جد هائلة بحيث لا يمكن أن يعاني من أي منافسة. وكما أدركت الكنيسة فإن المال هو الصارف الأكبر عن عبادة الله، والقادر على استيعاب تعددية العالم في وحدته، وعلى منع أي حواجز تحول دون انتشاره. إنه حقاً قوة روحية، وهو دون شك المطلق الوحيد الذي نسمح به في عصر النسبية.

ولكن الديمقراطية هي، على عكس الاستبداد أو الملكية، النظام الذي يتغذى من أعدائه، إلى حد الهلاك، وهي النظام الذي جعل من النقد إحدى مرتكزاته: ومن ثم فإن الاحتجاج يخدمها،

فهو أشبه ما يكون بالمنعكس اللاإرادي فيها، كما هو أعدل شيء قسمة بين الناس.

وكما أن البورجوازية قد استوعبت في نمطها الحياتي الحركات التي كانت تطمح لقلبها، فالذين يدعون لقب التمرد الرائع لا يعدون ولا يحصون: فالتمرد يطمئنهم إنهم موجودون، وأن لديهم هوية، وأنهم أفلتوا من الرتابة العامة.

فالطريد الملعون لم يعد هو الفنان الذي تدعمه أو تدلله سلطة الشركة أو الدولة، بل هو البورجوازي.

فإذا كان عصرنا يمجد دون حساب صورة المنبوذ، ويتزلف لمن يحمل هذه الصفة، فليس ذلك لمحض الرغبة في تعذيب النفس، وإنما لأنه يجد في هذا النبذ وقوداً أساساً يقتضيه تحوله. فمن اللياقة أن تكون ضده.

المنبوذون الموجهون:

وهكذا تتزايد الانتهاكات المنمطة: الانتقادات المروجة للإعلانات، والانتقادات الإعلامية للإعلام (آه! ما أمتع سب التلفزيون على الشاشة الصغيرة!) والانتقادات الاستعراضية للاستعراض.

لقد أصبح الانتقاص مما يتم الانتفاع منه أحسن تعلة مريحة: يتعين على كل بضاعة يراد ترويجها أن تضيف ما يوجه إليها من نقد إلى طرق استعمالها. وهكذا ينتشر نمط معين من أكاديمية

التمرد، إلى حد أن ثقافة الاستفزاز الأكثر حدة غدت ثقافة رسمية تضمن أحسن المغانم في مستوى الخطاب على الأقل للمهمشين والمنحرفين وغريبي الأطوار وصرعى الموضة.

من هذا المنظور، تشكل رسائل الطعن اللاذع في العولمة بالنسبة لنا جميعاً من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين نمطاً من اللغة القومية. على كل أحد أن يترنم بها في كل لحظة. (دون أن ننسى القدح في عبارة "الليبرالية" التي أصبحت محرمة، في حين أننا إذا راعينا معناها الحرفي أمكننا القول إن فرنسا ليست دولة ليبرالية، بل هي في طور التحول إلى الليبرالية؛ لأن الدولة لا تزال تدير قرابة نصف الثروة الوطنية).

ومن التناقض اللفظي أن يدعي المرء متمرداً منحرفاً، لأن ذلك يؤول إلى تحويل وضع استثنائي إلى حالة مبتذلة. ففي المجتمع الذي يود فيه كل أحد أن يكون متميزا، تصبح نزعة التفرد آلية ترق مرغوب فيها للغاية: فاعتبار الشخص منبوذا يكسبه تألقا خاصا، فتراه يرغب في أن يسقط على نفسه هالة المعذب الغامضة دون مخاطر قدر الإمكان (في حين أن المعذبين الحقيقيين ليسوا متألقين، بل يثيرون الشفقة، وأحياناً الاشمئزاز، فعنادهم أقرب للجنون، و لا متعة في مصاحبتهم).

فثمة الكثير من وجهاء الأدب والصحافة والجامعات والسياسة، الذين يتظاهرون بأنهم مارقين، أما في فرنسا فقد أصبح الخط السياسي المستقيم هو ادعاء عدم الاستقامة.

تلك طريقة للأكل على كل الموائد، للاحتفاظ بقدم في الداخل وقدم في الخارج، بحيث يكون المرء في وضع الخارجية المطلقة في حين يتمتع في المقابل بمقام مستقر وبكل ميزات الشهرة.

مستترون وراديكاليون معاً: البورجوازي الصغير ينبعث من خرقة المحارب المغوار، والانتفاض أصبح مادة استهلاكية شعبية، تكاد تكون من ملحقات الموضة.

إن الأمر يتعلق بتمديد العادي والمألوف إلى حالات كانت تعتبر سابقا من قبيل الهامش والرذيلة والجريمة، فنعاني حالياً من عدد من التواضعات ليست الثورة سوى نوع من أنواعها. (ثمة نموذج آخر قريب من هذا الوضع يعود للقرن الثامن عشر هو نموذج الإدانة الدفاعية، وهي طريقة لإبراز الفجور بلطف تحت ستار الدفاع عن الفضيلة، يتم تعمد إدانة التفسخ والعنف والسياحة الجنسية مع عدم الكلام إلا في هذا الموضوع. وبذا نوطد ما نزعم محاربته).

لقد لاحظ كثير من الأطباء النفسانيين أن أمراض الأنا المعاصرة كالنرجسية والاكتئاب والاستنكاف والهروب كانت بالماضي أفعال تمرد: تحرير الطاقات الحيوية، عصيان الفرد الجموح، عبادة الذات في مواجهة الرعاع.

وما دام من النادر أن نجد بشراً قادرين على تحمل عداء من هم حولهم، فإن التفاخر بالتمرد يوفق بين المجد والطمأنينة. تقيؤ المجتمع والعودة كل مساء لمخدع النوم: تلك هي دروب الأكاديمي

الجديدة. فصورة المنشق تحمل مزايا رمزية هائلة في إستتيقا الإغراء ما بعد الحديثة فمنبوذو الرفاهية كثيرون، يتكلمون باسم الفقراء والمقصيين. فلقد ظهرت موجة جديدة من المنبوذين الهادئين الذين يزدهرون بإدانة ما تعانيه الجماهير من استعباد فظيع؛ في حين ينعمون برخاء وهناء بفضل هذا الحرمان. فقد أصبح باينرج (بطل الكاتب الفرنسي رابليه) هو الذي يرفع الأعلام الحمراء والسوداء.

وبطبيعة الأمر لن تتوقف الثورة أبداً. فثمة حق مقاومة غير ملموس لكل شخص أو أقلية مهددة ويتعين التنويه بآلاف محاولات المظلومين والمضطهدين للتخلص من الإذلال، ولفرض الاعتراف بكرامتهم على الآخرين.

ولكن توجد على الأقل أربعة مصائر بالنسبة للتمرد: الانتهاء بالتحول إلى مستبد أو مهرب مخدرات، أي نبذ خرقة المضطهد لارتداء حلة المستبد. الموت ممتشقاً سلاحه، البقاء في ذاكرة الناس شهيداً، فأجمل الثورات كانت ثورات خاسرة لم تلوث طهارتها بحمام دم. الانتهاء في مرحلة الشيخوخة إلى نوع من الصعلوك المرفه، يمتهن العناد، أي التحول بتقدم السن إلى نمط من الفكاهي السخط، وذلك دجل ينجح فيه عدد من الماكرين الذين تعودوا الغضب الاستراتيجي والمهارات المحسوبة بمهارة، الذين يعرفون كيف يقايضونها لأجل مصلحتهم الشخصية. وثمة أخيراً مسلك أقل مجداً ولكن أكثر جدوائية هو تأسيس حزب جديد، وإلزام المجتمع

ولو بالقوة عند الحاجة على سماع صوت أولئك الذين كان يكرههم وكانوا يستغلونه إلى حد ذلك الوقت.

فسواء كانوا زعماء وطنيين أو قادة نقابيين، أو رؤوس أقليات، فإنهم يريدون من خلال صراعات اجتماعية ذات صلة بالهوية أو القومية أن يتم الاعتراف بهم، وأن يندمجوا في شرعية، لا يودون هدمها وإنما توطيدها.

وبعبارة أخرى، كل ثورة ناجحة تفرز لوبيا يضغط بكل ثقله في ما بعد للدفاع عن مصالحها. إنها نهاية أقل رومانسية من الثورة الدائمة، أو النار المطهرة، ولكنها أكثر نجاعة منها إلى حد لا متناه.

تتعين الإشارة في هذا المنظور إلى قدرة المناضلين السابقين المثيرة على إنشاء شركات مربحة (لاحظ جيل 1968)، وعلى إدخال الثقافة المضادة في الدورة التجارية، مما يذكر بقدرة الطوائف الأزهد في المال على تحصيل ثروات ضخمة، كما هو شأن المورمونز في الولايات المتحدة، والجانيس في الهند، والمريديين في السنغال، وكأن ثمة قرابة عميقة بين عالم المثال الزهدي وعالم التجريد المالي.

إنما الذي تغير في القرن العشرين، هو أن الثورة فقدت براءتها، فلم تعد تؤسس شرعيتها بذاتها، ولم تعد لها الحقوق كلها، بل أصبح يتوجب عليها أن تبرر في قيامها العالم الذي تبشر به، وأن تبرهن على أنها ليست موجهة بإرادة الانتقام المحضة، ولا بالحقد المريع[30].

فربما كان لنا دوماً الحق في أن نتمرد، كما كان يقال سابقا، ولكن ليس لنا الحق في عمل كل شيء عندما نتمرد: فالحق في التمرد لا يبرر المظالم ولا الجرائم ولا الاعتداءات باسم معذبي الأرض.

وهكذا عندما اعتدي في خريف 2000 بعض الشباب الذين ينحدر أغلبهم من أوساط الهجرة على أشخاص من ذوي الديانة اليهودية، فإنهم تماهوا ربما عن حسن نية مع الانتفاضة التي كانت في أوجها في الأرض المحتلة. إنهم بذلك يكررون أحداث المحرقة والمطاردة اليهودية باسم الدفاع عن إخوانهم الفلسطينيين الذين يتعرضون لعنف القوات الإسرائيلية[31]. (تلتقي في بعض الأنحاء المحدودة جداً من الجانبين نزعة العداء للسامية المألوفة لدي اليمين المتطرف ونمط آخر من هذه النزعة خاص بالعالم العربي، هو الآن في أوج التوسع. ويمكن لهذا الاقتران أن يتعلق بجوانب أخرى مثل الموضوعات الجينية ومعاداة اللواط والعنصرية).

وذلك هو شأن منظمة الايتا الباسكية التي حاربت بشجاعة الدكتاتورية الفرانكية أو تحملت في سبيل ذلك خسائر بشرية فادحة، ثم تحولت منذ انتقال إسبانيا للديمقراطية إلى منظمة استبدادية تهيمن بالعنف والقتل والإذلال.

يجب التنبيه في هذا السياق إلى أن الفاشية الجديدة معادية للفاشية من حيث الخطاب، تتدثر بأثواب المقاومة البراقة ضد النازية لضمان استمراريتها. (فلتنظروا لميلوفيتش، ولتنظروا كذلك

لمؤتمر دوربان ضد العنصرية عام 2001 الذي انتهى بصيحات "الموت لليهود" وبالتغطية الشاملة على مسؤولية العرب في استرقاق الأفارقة).

فالمضطهدون السابقون فقدوا بعض طيبتهم، فهؤلاء بالذات الذين يرجى منهم الانعتاق والخلاص قادرون على ممارسة أنماط جديدة من الاستبداد، أقسى ما فيها أنها تتلبس لبوس العدالة.

إن مصير كل انتفاضة هو أن يستحوذ عليها لزاماً، بمعنى أنها ستنجح، فتتحول إلى حقوق جديدة، وإمكانات غير مسبوقة حتى ولو لم ينته الصراع.

فربما كانت الثورة هي منطلق البشرية، وليست نهايتها: فهذا القوس العدمي لا بد أن يغلق في يوم ما، برفض العنف لإقامة شكل معين من الشرعية (وإلا انجرفت الأمة بأكملها في هوة من الدمار لا مخرج منها).

فالثورة لا تعترض على المجتمع إلا لأجل توسيع إطار المجموعة البشرية وتحسين وضعية البؤساء.

فطموح المحرومين كما هو جلي هو أن يصبحوا بشراً مثل الآخرين، وليس أن يمتازوا عنهم.

فنحن بعيدون جدا عن رمزية التمرد السوداء، وعن حماس الرفض الكبير، بيد أن كل سلطة متبصرة تعرف أنه من الأفضل استيعاب مطالب الشارع، بدلاً من قمعه والقضاء عليه بكل بساطة.

ثمة بطولة التمرد والإضراب العام، ولكن ثمة أيضاً المآل العادي للمزايا المكتسبة التي تجنى عبر النقاشات المتكافئة والمفاوضات النقابية والاتفاقات الحكومية. فالتحرر ينبع من الملحمة، أما الحرية فتنبع في الغالب من التفاهة، عندما تصبح العوامل المرتبطة بانهيار الوضع القائم من مكونات هذا الوضع. يمكن أن نأسى لذلك، لكن هكذا تتطور الأشياء، فاحتشام بعض "المتمردين" الشبيه بحياء العذراء الشرود ينم عن جهل كبير بالتاريخ، فالبشر يحاربون دوماً من أجل ظروف عيش أحسن. ولا عيب في تحقيق الغاية: فالمكسب هو الرغبة المعلنة لكل كفاح.

لقد أطلق مارسال جوهاندو قولته للمتظاهرين الباريسيين في مايو 1968: "ستصبحون في النهاية موثقي عقود". وقد صدقت المقولة، فغدوا كلهم باستثناءات قليلة وجهاء، ولهم الحق في ذلك.

ويمكن أن نخمن أن الشبان الراديكاليين اليساريين الأنيقين والمرحين، سيغدون هم أيضا في مواقع الوزراء والبيروقراطيين وأرباب العمل والأكاديميين.

وكما قال بعمق جورج ولينسكي: "لقد صنعنا مايو 1968 حتى لا نصبح ما قد كناه من بعد".

وليس في الأمر أي فضيحة: فكل جيل لا يمكنه أن يتحمل إلا مسؤولية تاريخية محدودة قبل أن يدرك أن أفعاله انقلبت ضده وأفلتت منه.

فكما أن مصير البرولتاريا كان التبرجز (ما زال يوجد عمال ولكن لا توجد طبقة عاملة)، فإن مصير المتمردين هو أن يصبحوا أعضاء في المؤسسة، من حيث هم رؤساء للنقابات.

ولقد كان في نهاية المطاف الزعيم المتمرد ماركوس أكثر قيمة وهو يستقبله الرئيس في سانت فوكس في مكسيكو من تشي غيفارا وهو صريع مثل الكلب في الغابة البوليفية، إلا بالنسبة لمتعهدي الإثارة الذين يروجون دون انقطاع صورة المحارب المصلوب (إن ابن لادن هو الآن على الأقمصة، وسينتهي ككل عدو للنظام القائم إلى رسم في ديزناي!)

اللامساواة الملهمة واللامساواة المرهقة:

تظل اللامساواة دون شك المبدأ المحرك لمجتمعاتنا تشكل أفقها الرمزي، لأنه لم يعد ثمة شيء بدهياً، فالتراتب أصبح اعتباطياً ولم يعد مؤسساً على التقاليد.

من ماركس إلى حايك، ومن اليسار إلى اليمين، تبنت كل الاتجاهات بطريقة أو أخرى نموذج المساواة، طامحة إلى إعطاء الأفراد إمكانات متكافئة، سواء في مجال الحقوق أو الفرص أو الموارد.

كل حالة لا مساواة يجب اليوم أن تبرر وجودها بادعاء إقامة مساواة حقيقية في موقع آخر، في قطاع يعد أساسيا (آمارتيا

سن). فإذا كان الليبراليون مثلا يرفضون تدخل الدولة، فذلك لأنهم يعتقدون أن غياب التنافس يشجع الامتيازات، وبالتالي الفوارق. لماذا هذا التوافق بين إيديولوجيات متعارضة لا تختلف إلا من حيث الوسائل؟

ذلك لأن اللامساواة إزاء المرض والجوع والموت هي قصور في الحرية الفعلية، أو هي تحرم الحرية من وسائلها، وتحولها إلى قشرة فارغة. إنها تعوق تحقق الإنسان، وتخضعه للخوف والحاجة، وتمنعه من الاختيار بين عدة أنماط من الحياة. فإذا كانت توجد تباينات إيجابية من حيث كونها تلهم المبادرة، فإنه توجد أصناف كثيرة من اللامساواة محبطة باعتبار أنها تبدو ثابتة، منقوشة في نظام الأشياء.

ولكي تسير الزوبعة الاجتماعية سيراً عادياً، يجب أن لا تبدو الهوة بين الأعلى والأسفل غير قابلة للتجاوز، وأن لا تكون بمسافة ابتعاد ميكروب عن نجم. أي باختصار، يحب أن لا يغدو الاختلال مرهقاً، بحيث يحطم كل معنى للتنافس ويتنكر لمعنى الحياة المشتركة.

وبعبارة أخرى، إن "المجتمع السليم" هو ذلك الذي يضاعف فرص الجميع، ويسمح لكل الناس ببذل الجهد وإثبات القدرات دون أن يدمروا أنفسهم داخل بنية جد قاسية. فهذا المجتمع لا يكون

سليماً إلا في حالة واحدة، هي أن يكون متكتماً، لا يكاد يرى، ولا يفرض نفسه على مواطنيه.

فالمهم بالنسبة للأمم مثل الأفراد وما أبعدنا من ذلك هو أن يحتل أحد بصفة دائمة الموقع الأول - وأن يعاد دوماً توزيع أوراق اللعبة، كي يستمر السباق (وذلك ما تفيد فيه من بين أشياء أخرى الضريبة والقانون).

فالديمقراطية لا يمكن أن تقبل بصفة دائمة الهوة بين مبادئها وأفعالها، إلا إذا أرادت أن تفرغ المبادئ من دلالتها.

فعوضاً عن قيام مساواة مجردة تفضي للجمود، لا بد من التأكد أن الطبقات والنخب والأفراد يتحركون، وأن ليس ثمة تجلط أو تخثر يكبح هذه الدوامة. فحتى الأموات يتحركون؛ لأننا لا ننفك نعيد تقويم الفنانين الكبار والأدباء والموسيقيين السابقين.

إنه درس الرياضة الرائع الذي يجسد تمثيلاً هذا التناوب بين لحظات السقوط ولحظات الانبعاث الذي نسميه قدرا، من خلال عملية المباراة أو السباق.

إنه يبين لنا أن الأمور لا تكون أبدا محسومة بالنسبة للناس الأحرار.

الفصل الثالث

الاضطراب الفكري

"تجنبا لكل المخاطر، يبني الإنسان المعاصر بيته في مناطق مغناطيسية ملائمة ويحرص على توجيه سريره بحيث يتصدى للموجات السالبة" وتحسباً لكل الصدف، يستشير الفلكيين والعرافين إذا كان رئيس دولة. وإذا كان رجل علم يقبل في قرطبة على تأمل قوانين الفيزياء الخارقة: يؤمن بالأجسام اللطيفة كما يؤمن بارتحالها. وإذا كان حارس مرمى، يتخلص من قلقه بإشارة من صليب في لحظة ضربة جزاء. وعندما يكون مراهقاً يهتم بالتناسخ، ويقبل بجد على طرد أو ترويض الأرواح وغيرها من الشياطين. وعندما يصل مرحلة النضج، ينشئ الملل باسم صبياني، من ذاكرة تنتان".

Etienne Barillier

Contre le Nouvel Obscurantisme

ينم الغلو اللفظي عن صعوبة تحديد العدو. فصراع عصرنا عائد إلى خلخلة كل التصنيفات: فلقد تغيرت قواعد اللعبة بالرغم منا، لم نكد نحصل على وقت كاف لمعرفة التصنيفات السابقة التي أصبحت لاغية.

كيف نوفق بين فهم الحاضر مع مراعاة تعقيده، في وقت غدا من الملح أن نفهم العالم وليس أن نغيره على عكس مقولة ماركس؟

إن الغموض يعني الأقوياء بقدر ما يعني المواطن العادي: كلهم ضائعون في الظلمات نفسها، شأنهم شأن البنت الصغرى آليس والملكة الحمراء يركضون حتى يبقوا فقط في مواقعهم لا يمسك بهم المنظر.

فالرأسمالية ماكينة شديدة التعقيد والحركية إلى حد كونها تضلل المفتونين بها أنفسهم، ذلك أنها هي وحدها حسب إقرار ماركس القوة الثورية الحقيقية: لا حاجة لها إلى تغيير المجتمع أو الحياة، فهي تقوم بتلك المهمة بصفة خارقة.

"إن البورجوازية لا يمكن أن تقوم دون تثوير دائم لوسائل الإنتاج (....) فكل العلاقات الاجتماعية التقليدية الجامدة، بما يتبعها من مشاعر وأفكار عتيقة وهشة تتلاشى، وكل العلاقات التي تعوضها تشيخ. حتى قبل أن تنموا عظامها" (الميثاق الشيوعي).

بل يمكن البرهنة على أن الرأسمال هو وحده "المضاد للرأسمالية"، لأنه يعمل على قلب ظروفها السابقة عن طريق

ما دعاه جوزيف شامبتر بـ"الإعصار الدائم للتدمير الخلاق"، أي بروز قيم جديدة بتقويض القيم القائمة.

ماتريكس والشيطان الماكر:

أما قد انقلبت كل النماذج، وأصبحت الرأسمالية تتمتع بمسافة تقدم جديدة على خصومها، و على أنصارها أيضاً، فإن الرغبة غدت جامحة في إما إقامة نصب رائع لها أو تحميلها كل مصائب اللحظة الراهنة.

فتذكر بصفتها كياناً بعيد النظر، بإمكانه التحسب لكل الاحتمالات، وتفادي كل الهجومات، يدعي لها مكر الشيطان وقدرته المطلقة: تتسمى بكل اسم، عنفها في كل مكان، المتواطئون معها كثر، تتصرف عن طريق الانتساب الصامت والإلماح الغادر.

إنها الإرهاق الذي يضنينا، والغراميات التي تذوينا، وهي الأمراض التي تنتشر والأوبئة التي تمزقنا، تتمتع بموهبة شريرة لإفساد كل ما هو موجود، من أكثر الأشياء حميمية إلى أكثرها بداهة، لأنها تتحكم في مصيرنا بطريقة لا انفكاك منها.

فكيف إذاً الاستغراب من الرواج السريع لنظرية المؤامرة في مثل هذه الظروف المعتمة: سواء تعلق الأمر بموت الليدي ديانا، أو بجنون البقر، أو بالكوارث الطبيعية، أو أيضاً انتشار السيدا الذي يقدمه بعضهم بصفته نزوعاً مقصوداً لإبادة الأفارقة والمثليين ومستهلكي المخدرات.

ففي كوالالمبور فسر رئيس الحكومة انهيار العملة الماليزية الريغينت بمؤامرة يهودية. لنتذكر أيضاً فيضانات فتحة السوم بفرنسا في خريف 2001 التي أرجعها الكثيرون إلى سوء نية باريسية: بحيث يكون قد تم "تفريغ" مياه السين للإساءة إلى سكان بيكارديا، مثلما يتم تفريغ حوض حمام.

بيد أن هاجس المكائد يتركز في قلب بابل الرأسمالية حيث تزدهر وسائل الإعلام والأدب والسينما، وكأن أمريكا مهووسة بانمحائها الذاتي: سعار التحطيم في مسلسلات B الهوليوودية، شهوة تدمير كل أصنام الأمة العظمى، وسحق السيارات والبيوت والممتلكات، ضمن جلجلة عارمة يترجمها هوس التدمير الذاتي المذهل الذي حققه بالفعل والتمام حادث 11 سبتمبر. وعندما تعرضت نيويورك للاعتداء، الذي هو ثمرة مؤامرة حقيقية، بدا في النهاية شبيهاً بأنماط الهذيان الذي تقدمه منذ سنوات أفلام الكارثة التي تستهلكها الإمبراطورية باستمتاع لتخوف نفسها وتقنعها بأنها لا تقهر.

ومن هنا هذا الشعور المفزع بأن الأمر ليس بالجديد بالنسبة للذين يتلذذون بمثل هذه التسلية.

ومن جهة أخرى، إذا صدقنا بعض وسائل الإعلام العربية، فإن تدمير أبراج نيويورك من صنع الموساد، التي كتبت شخصياً لأربعة آلاف موظف يهودي يعملون بها طالبة منهم عدم المجيء للمكتب يوم 11 سبتمبر.

وبقدر ما تكون علاقات النتيجة غامضة، تتساب البارانويا بسهولة، سامحة لكل أصناف الهذيان باتخاذ سمة الحكمة وحدة البصيرة.

تلك آلية لا تقهر خصوصاً لأنها لا تدحض بأسلحة العقل.

تسير الأمور وكأن نهاية أشكال الاضطهاد الملموسة في الغرب جعلت الحرية التي أذهلتها عزلتها تستشعر ضرورة إبداع أصناف لا مادية من الاضطهاد لكي تحس بالوجود.

لاحظوا على مستوى الثقافة الشعبية نجاح فيلم مثل ماتريكس للأخوة واشوسكي (1999) الذي يرد من خلال محن بعض الأشخاص كيف أن وجودنا هو نتاج محض لماكينة عليا، "قالب" يوجهنا، يكرهنا، يوفر لنا أحياناً بعض الملذات.

يمكن أن نصنع بالماتريكس كل الاستعارات الممكنة: استعارة الرأسمال والدين والطوائف والسلطة التقنية، ولكنها في كل الأحوال تتحدث إلينا كما يؤكد نجاح الفيلم. فمع الماتريكس كل أشكال الضلال مشروعة.

فمن يمكنه الكشف عن مخطط سري تدبره حفنة من الأقوياء يبرهن على أنه ينتمي إلى دائرتهم؛ لأنه أزاح اللثام عن أسرارهم:

فثمة نشوة يسارية بصفة خاصة تتمثل في تفكيك دواليب السلطة بل والإيحاء لها ببعض الاستراتيجيات الاستباقية لكي يتم التأكد من إمكانية استبدال خليفة بخليفة آخر.

فأي شخص يدين "سادة العالم" يبرهن أساساً على أنه أصبح يطمح إلى أن يصبح منهم.

فهؤلاء السادة العظماء يدبرون في ما وراء واجهة أبراجهم الزجاجية العمياء مكائد واسعة، يقرون ما يتوجب علينا ارتداءه، وتنفسه وشربه، يتصرفون في دماغنا وأحاسيسنا، يلقحوننا بأمراض فظيعة يسعون من بعد لعلاجها، وأحلام مصفاة أو بكر يحاولون تحقيقها، وكل ذلك لإبقائنا في أيديهم وللاغتناء من آلامنا ومطامحنا.

وكما هو الشأن دوماً، فإن منطق المؤامرة يترجم شعوراً خفياً بالاستلاب، فعندما نصبح عاجزين عن التحكم في مصيرنا، نميل إلى التفكير في أن قوة خفية هي المسؤولة عن عجزنا، فضلاً عن كون التبادل الحر لم يعد موجوداً في أي مكان بالصورة الأصلية.

الخلاص عن طريق الرخاء:

ما هي النزعة الاستهلاكية؟ إنها يطوبيا لإلهاء الناس. فهي فكرة بارعة وبائسة في آن واحد، تتمثل في الاعتقاد أن البشر عندما يتبادلون أو يشترون، يتوقفون عن الاقتتال ويحولون غرائزهم العدوانية إلى مجال السوق أو المتجر الكبير.

فباعتبار أن هذا النشاط يناسب العربي والهندي والإفريقي وكذا الصيني، فإنهم لا يجدون وقتاً لاستفزاز بعضهم ما داموا مشغولين بالاكتساب أو البيع.

إنها حكمة دون غطاء سحري، لأنها ترى السلام على الأرض في تعميم نشاط هو في آن واحد آلي ومكرر، لا يتطلب أي سمو، ويختزل الحياة الإنسانية في محض أفعال الاستهلاك والتسوق.

فابتسامة الإعلان الترويجي هي ابتسامة إله وجد في نهاية المطاف الحل لنزاعات البشر، وهذا الحل هو هوس الشراء الجنوني بصفته رقياً ثقافياً.

وهكذا فمجتمعاتنا الغربية لا تشجع التملك، وإنما تجميع وتبديد البضائع وتجديدها كنمط وجود.

فإن نحن اكتفينا باقتناء سياراتنا وأثاثنا بهدوء، سدت المخازن وشل النظام.

بل يمكن القول إن النزعة الاستهلاكية تتمثل في التحريم الموجه لجميع الناس بعدم الامتلاك بصفة دائمة.

الإيحاء، الإبداع، المحاكاة: يجب على الدوام إثارة الشهوات، تحويل أهواء البعض إلى ضرورات للجميع.

فخطؤنا في هذا الباب ليس أننا نرغب كثيراً، بل أننا لا نرغب إلا قليلاً ومع ذلك فإن هذه اليطوبيا ليست صلبة: فيمكن للبشر أن يغاروا من ممتلكات الآخرين، ويمكن للحسد أن يتحول إلى عداء.

وإذا كانت الأشياء المقتناة تحدث أصنافاً سريعة من اللذة، فإن هذه اللذة قصيرة، لسبب بسيط هو أن استعمالها يستنفد بسرعة مضمونها.

فمن الخارق والمحبط أن يتلاءم التوق مع تحقيقه. فالشيء الذي يمتنع علينا هو وحده الذي يمكن أن يكون ذا قيمة: فإذا هز مشاعرنا عمل فني ما أو مشهد معين، فذلك لأننا لا نشبع منه أبداً.

فغنى مثل هذه الأمور يتضاعف عبر معرفتنا بها، فهي منفصلة عنا دوماً بمسافة تشكل عظمتها الحقيقية.

فالنزعة الاستهلاكية هي تحقيق للمساواة بالأسفل: ليست بالضارة إذا وازنتها أهواء أخرى"، بينما تغدو مؤذية إذا تحولت إلى نمط حياة وغدت تحدد سلوكنا وقيمتنا.

إنها إذ تستبدل الحضارات الكبرى بكونية فقيرة هي كونية ماكدونالد ودزناي وكوكاكولا وإم تي في، تجعل من البشر نوعاً لاهثاً ومضعفاً، متجانساً على كل المستويات.

فلا يمكن للطف المجمع التجاري أو المنتزه أن يخفف ارتياع الإنسان العدمي أو المتزمت.

فإن واقع عصرنا لا يزال وعلى الدوام أساسه الحواجز وحقوق الجمارك. فعادة ما يعزى للتكتلات الدولية انسجام وماكيافيلية ليس لها، فلئن كانت قوية في مجال معين، فإنها ليست كاملة القوة كما

تبرهن تراجعاتها، ويدل جنونها كلما واجهتها مجموعات الرأي العام وتمردت ضدها في سياتل ودافوس وبورتو اليغر، أو في إفريقيا (بخصوص حصول مرضى السيدا على الأدوية).

فمن الأمور المغرية المبالغة في تقدير سلطة الشركات المتعددة الجنسيات، لكي نقول لأنفسنا إننا نحارب خصماً يفوق البشر، ولكن عمالقة الصيدلة والكيمياء والتغذية والبترول يصبحون -يا للغرابة- حساسين وضعفاء عندما تواجههم معارضة صارمة تسد الطريق أمامهم.

اليد الخفية في كل مكان:

تزداد دهشتنا عندما نجد آلية التفكير نفسها لدى محللين وفلاسفة وعلماء اجتماع كنا نعتبرهم نابهين، فإذا هم يتوهمون حضور يد السوق الخفية في عودة الأصولية والطوائف والمافيات والجرائم[32].

فالسوق تعتبر مسؤولة لوحدها عن التطهير العرقي في يوغسلافيا السابقة، وعن الحرب الأهلية في الجزائر وعن مذابح ليبيريا والسيراليون[33]، وعن نزاع زائير، إنها تكبح أيضاً حق الشعوب في تقرير مصيرها، مثلما أعلن ناطق رسمي باسم الاستقلاليين في مؤتمر ببياريتز في أكتوبر 2000.

فالرأسمال الضخم يغدو من جديد مثلما كان الأمر قبل خمسين أو ستين سنة الشر المطلق: فنتوهم تحقيق الإجماع على

خبث العدو خبثاً شاملاً، ولكنه إجماع مصطنع مرده بعض الكسل الفكري ورفض النظر إلى كل وضعية في تميزها. فما هو الأمر في هذه الحالة إذن؟

إنها العودة إلى الخطب العدائية للبورجوازية والمعارضة للربح، وكأن شيئاً لم يحدث في القرن العشرين، وكأننا بعد عشر سنوات من انهيار الاشتراكية الحقيقية غدونا نمتلك من جديد الحل الجذري للشقاء الرأسمالي ولبؤس الأجر العمالي. من جديد تزداد زمرة الذين ينتظرون انهيار السوق، كما يجب أن ننتبه في هذا السياق لظاهرة لم تدرس إلا قليلاً هي التعب الذي يمس الأفكار مثلما يمس الأشخاص: ففي الجاذبية التي توحي بها نظرية ما مفعول جدة لا ريب فيه: إنها تبهر في البداية، ثم تضجر من بعد وتولد التعطش لمذاهب جديدة.

فعلى مسرح المفاهيم الكبير، يزيح المتفرجون جانباً عجائز الممثلين، ويصفقون للفرق الطازجة قبل أن ينحوا هذه الفرق بدورها. فمعاداة الرأسمالية كانت أغنية مكررة قبل عشرين سنة، وها هي تستعيد في أيامنا -عن طريق الأحداث- بعض اللمعان الذي يجعلها مرغوبة من جديد. ولكن الفكرة القديمة عندما تعود تؤدي وظيفة أخرى، كما سنرى فيما بعد، لكي تقول شيئاً آخر، غير الذي كانت تعبر عنه في البداية من قبل.

فعالم الاجتماع بيار بورديو يثير الحيرة عندما يتحدث في مطالبته السليمة بحركة اجتماعية أوروبية جديدة عن "اليد الخفية

للأغنياء" ويؤكد أن بعض الآليات القانونية التي أعدت في الظلام " تهيئ مجيء نمط من الحكومة العالمية غير المرئية في مصلحة القوى الاقتصادية المهيمنة" أي أمريكا[34].

فإذا كانت هذه الحكومة العالمية حقاً غير مرئية فكيف تمكن بورديو من الكشف عنها؟

فما هي الأسلحة العقلية التي يتمتع بها وليست في متناولنا نحن قراؤوه المتواضعون؟

وبالطريقة نفسها، عندما يندد انجاسيو رامونيه[35] بما لوسائل الاتصال الجماهيرية الجديدة من تأثير مفرط، من سينما وإعلان وتلفزة، و يكشف تحت الصور والشعارات عن خفايا تلاعب هائل بالعقول، فإنه يطرح مشكلاً منهجياً: كيف أفلت هو نفسه من هذه القبضة، وبأي معجزة لم تؤثر فيه القصص البوليسية وأفلام الرعب وأفلام المغامرات الأمريكية بتأثيرها المشوه؟

كم هي جذابة تحليلاته "للمنومين المغناطيسيين الجدد" إذا أخذناها حالة حالة، لكنها تغدو مداراً للشك عندما يريد أن يستخرج منها. قيام إيديولوجيا معينة، هي كما هو معروف الإيديولوجيا اللبرالية الجديدة المهيمنة التي هي إيديولوجيا الغرب المنتصر والمغرور.

نصل هنا إلى حدود فلسفة شك تعلن خفاء الأشياء التي يعرفها الناس كلهم، بغية الظهور بمظهر العمق للكشف عنها.

فعندما تفرض هذه الفلسفة مسبقا ما ستكشفه من بعد، تتعامل مع الموضوعات الثقافية والاقتصادية كأحجار ترفع للعثور على سر دفين وضعته هي ذاتها فيها.

فمن شدة ما يتحرى هذا الفكر الاحتراز ينتهي من الانحراف إلى الوثوقية، فينسى شيئاً واحداً هو الحذر من حذره الذي لا يقل إضلالاً عن الاعتقاد.

فمن الخطأ عموما أن نؤمن بأن البشر مغفلين لا يفهمون الرسائل التي نوجهها لهم، خصوصا عندما تكون هذه الرسائل صريحة، لا يخفى شيء من نواياها.

وعلى العموم، إننا نعزو للإعلان قوة مطلقة ليست له. نسكت في البدء عن الحملات الكثيرة التي تفشل. ثم عندما يتعرض كل فرنسي في المعدل لسبعة آلاف مشكلة في اليوم، بما فيها ما يتلقاه في دورات المياه العمومية، وعندما تطوق وجودنا شبكات عديدة من أجل استغلالنا فإن هذه الشبكات يقضي بعضها على بعض، فيزداد صمودنا قوة. تتدعم مناعتنا جميعاً لأن الألعاب الإعلانية المتتالية التي تقصفنا منذ سن المهد كل منها أغبى من الأخرى. فما يهددنا عندئذ هو البلادة والبلاهة أكثر من التجييش العقدي.

ولهذا السبب كان الإعلان غير المنظم انتهاكاً غير مقبول للحياة الخاصة، خصوصاً عندما يتعرض للرضيع منذ ميلاده، متخذاً منه هدفاً مفضلاً.

ولقد تخيل كاتب الخيال العلمي الأمريكي فيليب دبك إعلانات ترويجية تنفذ داخل البيوت، فتنشد فيها خطبها، التي تتوجب محاربتها بحد السيف مثل الدودة الضارة.

ذلك أن تجارة الإعلان لا تبيع شيئا آخر سوى نفسها، تعيد إنتاج نفسها إلى اللانهاية: إنها تكتفي بإخراج وتبني العقليات السائدة، التي هي في الغرب مذهب الاستمتاع الفردي.

فليست لها إيديولوجيا، إنها لا تقول لنا إلا شيئاً واحداً عبر ألحانها وشعرها الرديء هو أنها تطمح إلى استمرارية وجودها، تتطلع إلى أن تصبح ثقافة ونمط حياة (مما لا يمنع بعض الإعلانات من أن تكون بارعة في الفكاهة والبلاغة، مما يؤهلها لمستوى العمل الفني).

أما في ما يخص الخطابات المجنحة الشهيرة التي يعتقد انجاسو رامونيه أنه أناط اللثام عنها في حلقات كوجاك وكولومبو[36] فلم تعد تستوقف أحداً من كثرة ما فككت، بحيث إن المعلنين أنفسهم يصنفونها بسخرية كنوع مستقل بذاته[37].

فلعله من الأصوب أن نقول إن خطاب السلطة لا يخفي عنا شيئا، وإن البورجوازية تقول دوما ما تفعل وتفعل ما تقول.

فالاستراتيجيات الكبرى التي يعتمدها الرأسمال منشورة علناً في الدوريات الاقتصادية وكتب علم الإدارة، ومن المثير للضحك أن نغطيها بقناع في حين أنها تعمينا ببداهتها ذاتها.

هذه هي إذاً "العولمة الليبرالية" بلغة الرصاص الجديدة، وهي مسؤولة عن كل شر في الأرض، مسؤولة حتى عن الإرهاب، الذي هو نتيجة لها، بحيث إننا عندما نحارب هذه العولمة، "نقدم عناصر إجابة" على فظائع الإرهاب[38] فالقوة الكبرى التي يتمتع بها "اللوبي الليبرالي المتطرف العالمي" (سرج لاتوش)، تلك "الآلية الهائلة التي لا وجه لها"[39] هي التي تفسر هبوط المدنية، وأزمة الحقل السياسي، والحروب، كما تفسر أيضاً أنماط الفرد الخصوصي الذي أنهكه شغله وأضنته أوراق الضرائب وأفقدته الألعاب التلفزية اتزانه.

ولكن عندما نفرط في الاستدلال، نضيع في التفصيل فيما يشبه قائمة بريفرت، وتصبح الرأسمالية مثل حجرة ماركس بروثيرز الشهيرة: فضاء دون قعر يمكن أن ندخل فيه كل شيء.

ذلك هو دور الرأسمالية: أن تكون التفسير المبسط الشامل، والمثير الكبير للقلاقل الذي يسمح بشرح كل شيء دون أن يوضح شيئاً.

فالكشف فيما وراء كل ضيق وكل نزاع واضطهاد عن يد الربح الخادعة وعن الأصابع المتشبعة لكبريات كواسر ويل ستريت أو كواسر سيتي، ينم عن نمط من التبسيط يزيد الغموض، من حيث يريد إنارتنا...

فمهما كان رأي المهووسين بالعداء للعولمة، لا بد من الإقرار أن

مـجـازر الـقـرن الـعـشـرين الـكبـرى - الـبـوسنة وروانـدا والـجـزائـر والـشـيـشـان وتيـمـور - تـرتبط بأصـناف الـتعصب العنصـري والـديني والتشـبث يالهويات والإمبـراطوريات أكثـر ممـا هـي مـتـصلة بالمسـائل المالية والاقتصـادية.

فـلا قـضـايا الاسـتنسـاخ أو تحسـين النسل أو جنون الـبقـر أو التقنيات البيولوجية تفسر بالتعطش للمال وحده حتى ولو كان هذا التعطش يمكن أن يزيد كل شيء حدة بصفة معتبرة.

إن القضـايا المذكورة تجسـد نمطاً من التـأله البشـري، وإرادة للتصـرف في الكائن الحي، وتتم عن نزعة فـردية دون أخـلاق، وهـي أمور تستدعي كذلك القلق.

ومن أخطاء الـفكر التقـدمي القـديمة الـبحث عن سـبب واحـد لسـوء الحال، والفصل بين صنفين مـتقـابلين هـمـا من جهـة المهيـمنين والمتواطئين معهم والمضطهدين والمدافعين عنهم من جهة أخرى، من أجل تجميع أشكال السخط تحت راية واحدة.

فـهـذا الهـوس بالتـأليف الشـمـولي يؤول إلى صـحـراء نظرية جـرداء، فـمن شـدة حـرصـه على اسـتكناه لب المسـألـة لا يجني سـوى الـريح.

فـحـبـذا لو لـم يكن موجـوداً سـوى قـوى الـرأسـمـال الـضـخـم من جهة ووعي الشعوب من جهة أخرى[40] سيكون الأمر رائعاً أكثر من اللازم.

إننا ننسى أن الوحشية متنوعة، ويمكن أن تنبثق دون سبب سوى سبب القساوة البشرية، كما ننسى أن عذابات البشرية ليس لها أصل واحد.

وكما أنه لا يوجد مسؤول واحد عن الشقاء الإنساني، فليس هناك ضحية رمزية تجسد باقي الضحايا.

فعندما يكتب القائد ماركوس في رحلته عبر الكون: "إن ماركوس لوطي في سان فرانسيسكو، أسود في إفريقيا الجنوبية، من السكان الأصليين في سان كريستول، يهودي في ألمانيا، داعية سلام في البوسنة، من المابيش في منطقة لآندس"(1994)، فإنه عندئذ يقدم أطروحة غنية ولكنها غامضة بالقدر نفسه.

فليس كل من أراد أن يكون المسيح، أتيح له الأمر، وليست كل أشكال العبودية مختلطة في شكل واحد، حتى ولو كان هذا الشكل محجوباً تحت غطاء سميك.

لقد انتهى العهد الذي يمكن فيه للبرولتاري أن يحمل على ظهره بؤس العالم، ولم يعد يوجد كائن منقذ حقيقي يجسد بذاته الشقاء الكوني.

فالصراع ضد نمط معين من البنية الاقتصادية، "يجب أن لا يحث على إرجاع كل شيء إلى هذا النمط الوحيد. علينا أن نتعلم كيف نتخلص من لذات الفكر الثنائي الشديد الإغراء لكنه بدائي نوعاً ما من حيث عوامل الإيضاح.

فمن هو في نهاية المطاف الأكثر انجرافاً في تقديس السوق: هل هم المتحمسون له الذين يرون فيه أداة السعادة التي لا تخطئ، بل أداة الإرادة الإلهية[41] أم أولئك الذين يزدرونه ويشتمونه بصفته مصدر كل المصائب؟

الخير هنا والشر هناك: فهؤلاء وأولئك يظلون سجناء المصادرة نفسها التي ترى أن الاقتصاد هو المتحكم في كل شيء والمحدد لكل شيء، ولا خلاص خارجه!

الحنين للحرب الباردة:

كأننا أمام تقليد فكري كامل لم يستوعب بعد انهيار الشيوعية، ولا يزال غير قابل للتعزية في فقد خصم مثالي. فالمهم هو القدرة على البرهنة على أننا نعيش دوماً في مجتمع استبدادي، وأن "الأخ اكبر موجود فعلاً، يقرر ما يتعين علينا شربه وأكله والتفكير فيه، يجمع كل السلطات في يديه، سلطة الاتصال وسلطة إنتاج الثروات الثقافية، فيفرض علينا رؤيته للعالم".

لماذا مثل هذه البراهين؟

لأنها تطمئننا، وترضي فينا حاجة ملحة للوضوح: وهكذا أصبحنا نعرف من يؤدي دور الشيطان، أي دور اللعين المفضل.

أرجعوا لنا خصمنا!

فلطالما قسمنا العالم إلى قسمين: سادة ضد العبيد، والرقيق

ضد الموالي، البروليتاريون ضد البورجوازيون، الاشتراكية ضد الرأسمالية.

بيد أنه منذ أن انقضت قسمة التعارف بين الكليانية والديمقراطية، غدونا يتامى تناقض كان يؤدي خدمات كثيرة، فالقسمة الثنائية هي الدعامة لنمط التفكير الذي يترصده الشك.

والغريب هو أن نلمس مثل هذا الصنف من النزعة الآلية لدى كل الاتجاهات، فبالنسبة ليسار اليسار، أصبحت فرنسا "مقاطعة صغيرة في النظام الدولي الجديد" تصرعها يد السوق الخفية التي لا ترتدي قفازات للتجويع والسحق دون صوت"[43].

ذلك أننا جميعاً "خاضعون للرقابة"(انجاسو رامونيه)، ومستهدفون برقابة الصورة والتجسس الإلكتروني[44]. وتلك هي الفكرة التي سعى الفيلسوف جان بودريار لبثها عندما شرح لنا بعيد اعتداءات 11 سبتمبر أن القمع وصل عندنا حداً من الفظاعة بحيث "أن فكرة الحرية، تلك الفكرة الجديدة والراهنة، بدأت منذ الآن تنمحي من العادات ومن أنماط الوعي، وأن العولمة الليبرالية هي بصدد التحقق بطريقة معاكسة تماماً: طريقة عولمة بوليسية ورقابة شاملة ورعب أمني. ففك التنظيم انتهى إلى حد أقصى من أصناف الإكراه والتقييد يوازي ما هو قائم في مجتمع تحكمه الأصولية"[45].

فعصرنا يكون بهذا المعنى قد حقق اليطوبيا المخيفة الواردة في رواية "1984".

وثمة ليبراليون عديدون يوافقون على مثل هذا التشخيص، بالانطلاق من مقدمات مختلفة تماماً. فها هو الاقتصادي الفرنسي جاك غارلو (القريب من آلان مدلان) يكتب "إن المجتمع الفرنسي المحروم من دفاعاته المتنامية ضد فيروس الدولة هو الآن تحت قبضة شكل ناعم ولكن حقيقي من الكليانية"[46]. أضف إلى ذلك "أن فرنسا هي مع الصين البلد الشيوعي الكبير الوحيد اليوم"[47].

"لقد كان ماركس يقول بدكتاتورية البروليتاريا. فها نحن في إرهاب فكري حقيقي، نقابي وقانوني (...) يحرم على الشركات أن تقوم بعملها، وعلى أرباب العمل أن يسرحوا عمالهم، وعلى الشركاء المساهمين أن يحصلوا على مكاسبهم، وعلى صناديق التقاعد أن توجد، وعلى المتنافسين أن يتنافسوا (...). فمراسيم الاشتراكيين ستحول فرنسا إلى صحراء اقتصادية، إلى حقل للصراع داخل الشوارع والأحياء، وداخل العقليات. ففي أقل من خمس سنوات، سنصل إلى التدمير، وإلى الهباء الكامل"[48].

وها هو ليبيرالي جمهوري آخر هو آلان جيرار سلاما يرى في معالجة بارعة حول النظام الأخلاقي المعاصر أن رخص السير بالتنقيط وارتداء حزام السلامة في السيارة. وإجراءات حماية الأطفال من المناشب الكهربائية، هي نوع من سيطرة الدولة على المجتمع تقترب من نظام فيشي[49].

وها هو اقتصادي آخر، هو باسكال سالين يرادف دون تردد

في كتاب ساطع الحجة بين النازية والستالينية والديمقراطية الاشتراكية بصفتها أشكالاً ثلاثة من العبودية المقننة[50].

ويمكن أن نورد ما ينتهي من الأمثلة انسياقا مع هذه الفكرة المسلية القائلة بالصدام الجذري الفاصل بين الخير والشر انفصالاً بحد الساطور.

فدون هذا الإطار الثابت، نفقد ما للبساطة من امتياز أساسي، ونضيع في عالم مشتت لا وحدة فيه، عصي على أذهاننا.

ففي حين يختفي الشبح الفاشي أو السوفياتي، يجب بعثه دوماً يميناً ويساراً، ولا بد من شن حروب مقدسة جديدة، واستجلاب القشعريرة الكبرى لمواجهة الرعب الأسمى. وكل من يرفض هذا البرنامج النبيل يتهم بالتمالؤ مع الوحش.

وباختصار، لا يزال هتلر وستالين يتسكعان في شكل نسخهما المعاصرة، التي هي من الخداع بحيث تختفي وراء خطاب عسلي أساسه الرفق والعناية.

الفصل الرابع

الشيطان الأكبر

"لا أحد يحبنا، لا أعرف لماذا؟ ربما لا نكون مثاليين ولكن الله يعلم أننا نحاول أن نكون كذلك، بيد أن كل من حولنا بما فيهم أصدقاؤنا القدماء يقدح فينا لنهز القنبلة الكبرى لنعرف ماذا سيحدث.

إن آسيا كثيرة السكان جداً وأوروبا قديمة جداً وإفريقيا حارة جداً وكندا باردة جدا، وأمريكا الجنوبية سرقت اسمنا"

لنهز القنبلة الكبرى. لم يبق أحد لينقذنا"

راندي نيومان (معنى بوب)

Political science 1970

"إن العالم الأمريكي الشمالي يعمي أبصارنا بإشعاعه، إنه يمنعنا من رؤية أنفسنا بإلزامنا أن لا نرى إلا إياه"

كارلوس فانتيس

"إنني لا أزال أفضل أن أعيش تحت نير الجيش الأحمر بدلاً من أن آكل الهمبرغر"

آلان دبنوا

إننا نفهم في مثل هذه الظروف رواج نزعة العداء لأمريكا بانتظام في أجوائنا، فهي تسمح بتجسيد شكلي العار الرأسمالي، من حيث كون الرأسمالية هي في آن واحد ثقافة ونظام اقتصادي. فللشيطان علم هو راية بنجوم، وله عملة هي الدولار، ويرتدي مسوح الخير والفضيلة.

فأمريكا قد التبست باقتصاد السوق إلى حد أنها تبدو وكأنها أنشأته، فكم تقترن لديها روح الريادة وحس المبادرة والنزعة الفردية الغائية القريبة من الفوضوية.

"إن قضية أمريكا هي التجارة" كما قال من قبل كوليدج (1923-1929).

الجرثومة اليانكية:

ولكن أمريكا تبدو محملة بكل الأمارات التي يعرف بها ذنب الغربي: فهي تجمع إلى الغنى عدم المساواة، كما أنها مهيمنة، ومتعجرفة، ومتلوثة، مؤسسة على جريمة مضاعفة قوامها إبادة الهنود الحمر واسترقاق السود، لا تزدهر إلا بتهديد المدافع، لا تهتم بالمؤسسات الدولية التي تدعمها إلا بحافة لسان حين لا تنبذها، كما أنها متجهة بكاملها لعبادة الورقة الخضراء؛ ذلك الدين الوحيد في هذا البلد المادي.

فهي أمة غريبة، تدلل على صحة النظرية الماركسية في مناح متعددة. الهوة بين الأغنياء والفقراء، ثقل المال واللوبيات والربح، الإمبريالية البديهية. مع أن الشيوعية والاشتراكية لم يكن لهما يوماً

سوى تأثير محدود في أمريكا (تقول الطرفة بالفعل إن الحزب الشيوعي الأمريكي يتشكل من عملاء FBI).

فتبني الشعب الأمريكي بكامله بما فيه الطبقة العاملة لمذهب القطاع الخاص، ظاهرة فريدة، صعبة الفهم بالنسبة للوبي الأمريكي الجنوبي.

ولكن في أمريكا تنمو أيضاً بصفة غريبة أدبيات واسعة "معادية للعولمة" خصوصاً أن فيها مناضلين ومدافعين عن البيئة ومحامين موجودين قرب قلب الإعصار لوصف مساوئه (ولكن بحس برغماتي ينقص في الغالب نشطاءنا).

فمنظمة آتاك تستلهم حيمس توبين الحائز على جائزة نوبل ذي الخلفية الكينزية (حتى ولو كان يرفض كل علاقة بها)، كما أن حملات مقاطعة بعض البضائع وعمليات العصيان المدني تستوحي من المثال الأنغلوساكسوني.

فنزعة العداء لأمريكا في صيغها الأكثر تطرفاً -ولكل قارة جانبها من هذه النزعة- هي مبدأ تأويل شامل يوفر رفاهية ثلاثية الأبعاد نظرية وعملية ووجودية.

إنها تجسد أبرع تجسيد نظرية الأحادية السببية، وتشكل برهان الملاذ الأخير عندما يستنفد العقل كل أدلته. فإذا كانت أمريكا غير موجودة وجب إنشاؤها: فأي كبش فداء أكثر ملاءمة منها للتطهر من ذنوبنا والتخلص من قاذوراتنا؟

أين نجد مثل هذا المكفر لذنوب البشرية، ما دام كل ما هو سيئ في الأرض يمكن أن يعزى إليها؟

فحتى الإمبراطوريات الأوروبية القديمة المثقلة بالعار والدم تستعيد عذريتها على حساب أمريكا.

وفي نهاية المطاف، من حظ أي ديكتاتورية أو مجموعة إرهاب إن تطاردها الولايات المتحدة أو توجه اهتماماً إليها. فذلك يضمن لها على الفور التعاطف والعناية من لدن كل من يرون "أن العنصرية الوحيدة المسموح بها في العالم المعاصر هي معاداة أمريكا. (كريستوف باتين).

فانبطاح الجمهورية الإمبراطورية بعد 11 سبتمبر كان بالنسبة لكثير من الناس داعي ابتهاج وليس داعي رأفة: سحقاً لها! يمكن منذ الآن البدء في توزيع الأسلاب خصوصاً أن الغنيمة هائلة بحجم هول الضربة.

لقد رأينا آنذاك بعض متعهدي نزعة العالم الثالث من الشباب والأصغر سناً يخرجون مقتنياتهم من البضاعة المبتذلة لـ"تأويل" الحدث، بمعنى إخضاعه لأحكامهم المسبقة، ولكي يشرحوا لنا، حسب نظرية التكافؤ الشهيرة، أن نظام واشنطن نسخة دقيقة من "البرابرة" الذين يدعي محاربتهم.

فالفيلسوف توني نغري أعلن في خريف 2001 أنه يرفض معا "طالبان الدولار وطالبان البترول"، والروائية الأنغلوهندية أرونداتي روى رأت في عملية "الحرية الأزلية" "ترويجاً لنمط الحياة الأمريكي" (كذا !)، واعتبرت بوش وبن لادن توأمين أيديولوجيين، ووجهين "لرأس الثعبان" نفسه.

أما غونتر غراس وبوتوشتراوس فقد لمسا في انهيار أبراج مركز التجارة العالمي "أصابع المال البارزة اللعينة، ولمسا في غزو أفغانستان "حرب الأشرار ضد الأشرار".

أما بودريار الذي يبدو مفتوناً بجمالية الاعتداء "المرحة"، فينبذ على سواء الخصمين: فالنسق (الأمريكي) بالغ في احتكار القوة وتكثيف كل الوظائف إلى درجة أنه فرض الإرهابيين على رد الفعل عن طريق عملية حاسمة وحادة "إرهاب ضد إرهاب، ليست هناك إيديولوجية خلف هذا"[51].

فعدو أمريكا مهما كان لا يمكن أن يكون سيئاً تماماً، وحتى لو كان مغطى بالدم. لنراهن على أن نزول القوات الأمريكية في يونيو 1944 لو تم اليوم لتمتع العم أودلوف بتعاطف ما لا يحصى من الوطنيين ومن العناصر الراديكالية في أقصى اليسار الذين يحاول العم سام القضاء عليهم.

وفي المقابل، ما أشد نحس شعب تقتله قوة أخرى غير الولايات المتحدة: فستتم إبادته دون اهتمام من أحد (ذلك ما يعرفه الشيشان).

فليس ثمة جريمة يرتكبها مستبد صغير محلي، أو متطرف ديني لتوازي الجريمة الأساسية للأمريكيين: أي جريمة كونهم موجودين ببساطة. فأمريكا مذنبة لا من حيث فعلها ولكن من حيث وجودها، لأنها تجمع بين جريمتين كبيرتين هما السوق والتفوق، الرعب الاقتصادي والرعب الإمبراطوري.

إنها ذرية أوروبا المعيبة، التي تجاوزتها وخانتها، وهي

الجرثومة التي تعشعش في رؤوسنا، ويجب انتزاعها بأي ثمن. فالعداء لأمريكا ليس أبداً حادثاً عرضياً أو أمراً ثانوياً، إنه يمثل بالنسبة لكثير من الناس أرضية التفكير السياسي الوحيدة، ونمطاً من الملاحقة المجنونة للشياطين ملفوفة في خطاب عقلي زائف.

وكلما زادت نسبة العلمانية والتجرد من المقدسات لدى مثقفينا زادت حاجتهم إلى الشيطان الأمريكي الذي يؤمنون به، بكامل قواهم. لقد كان آرون يقول بخصوص سارتر أن أمريكا تلعب في مخيلته الدور نفسه الذي يلعبه اليهود كشياطين لدى المذهب القومي الاشتراكي.

وقد بينت قضية كوسوفو إلى أي حد يطمس العداء اليانكي كل قدرة على التحكم حتى لدى أكثر الناس تبصراً.

وهكذا ولدت بالفعل الحرب التي أعلنها حلف شمال الأطلسي ضد صربيا في ربيع 1999 فورة أحاديث مثيرة توضح أكثر من غيرها هذه العقلية.

فها هو الكاتب المسرحي الإنجليزي هارولد بينتر يصرح قائلاً: "إن تعريف السياسة الخارجية الأمريكية هو ما يلي: "قبل رجلي أو سأحطم فاك".

فميلوسوفيتش رفض "تقبيل رجل أمريكا، وعندئذ حطم كلينتون فم الشعب الصربي" (ليبراسيون 1999/4/9).

أما الفيلسوف والمناضل التروتسكي دانيال بنسعيد فينبذ بيد واحدة ميلوسوفيتش وحلف شمال الأطلسي باعتبارهما "شكلان

متعاصران تماماً وتوأمان من التوحش الحديث". وأما مدير متحف بيكاسو في باريس جان كلير فقد قارن بين بلغراد وغرنيكا وبين الطيارين الأمريكيين والطيارين النازيين الذين لا تهمهم الشعوب التي يحطمونها. أما سكرتير حركة المواطنين ديديه موتشان فأكد "أن أمريكا تريد أن تستخدم نزاع كوسوفو للفصل الدائم بين الروس وباقي الأوروبيين عن طريق أنهار من الحقد والدم إذا اقتضى الحال ذلك" (لوموند 1999/4/6).

وقد ذهب عالم الاجتماع الفرنسي دنيس ديكلوس إلى أن للتدخل الأمريكي هدفين هما "تحطيم أوروبا وقطع الطريق أمام الديمقراطية العالمية التي هي في طور الانبثاق البطيء» (لموند 1999/4/22).

وهذا مثقف آخر، أعلن نفسه متخصصاً في منطقة البلقان، قضى 8 أيام في تحقيق داخل منطقة تحت السيطرة الصربية ثم جاء يستحلف الرئيس شيراك في رسالة مفتوحة أن لا يلتحق بالأسطول الأطلسي بحجة أن الصرب "هذا الشعب القريب من السامي والمقاوم" يتكون من محاربين أشداء لا يغلبون، وهم مستعدون لدفع الثمن الغالي في الدفاع عن أراضيهم، وفي كل الأحوال، فإن المشكل ليس في بلغراد "وإنما في شوارع كوسوفو ومقاهيها وبقالاتاها (...) هؤلاء الرجال والحق يقال لا يدعون للاطمئنان" (كذا)[52].

فعملية حلف الأطلسي التي طعن فيها من حيث أهدافها الإنسانية المحضة، كما رفضت كتدخل بري باسم مذهب تفادياً أي

حالة موت، كانت حسب عبارة رنيو جيرار العميقة "عقوبة سبقت الجريمة" وربما كانت مبررة بسنوات الانتظار السلبي والندم على عدم فعل شيء في فيوكوفار وسراجيفو وسبرنيتشا.

فعلى الرغم من اللغو اللفظي المفرط ("إبادة الكوسوفيين")، ومن التحالف المريب مع العصابات الألبانية UCK التي لا تختلف كثيراً عن المتطرفين الصربيين من حيث التعصب القومي، فإن هذا التدخل كان له ميزتان هما إنقاذ ألبان كوسوفو ودفع سقوط ميلوسوفيتش بعد عام واستبداله بتحالف من الديمقراطيين.

فهل كانت الأمور ستتغير لو تمت الحملة تحت لواء أوروبي محض، هل ستكون القنابل أكثر نعومة والموتى أقل موتاً، والخسائر أقل فتكاً بالطرف الصديق؟

ونريد في الأخير أن نذكر المسلمين الساخطين اليوم على واشنطن أن القوة التي أنقذت إخوانهم من البوسنة وسكان كوسوفو ليست مصر أو الجزائر أو تركيا أو المملكة العربية السعودية، وإنما الشيطان الأكبر الأمريكي الذي جاء لتعويض أوربة المفلسة، مثلما خلص أيضاً الشعب الأفغاني من حكم طالبان.

ففي ظروف الأزمة، كان الأمريكيون وحدهم الذين ذهبوا للجمر، ولتلطيخ الأيدي، وربما للوحل، ثم بعد ذلك يهاجمهم الجميع ويسخرون منهم.

رجعي أو تقدمي؟

ثمة فكر يحمله السخط على اعتماد موقف مانوي يود وضعنا أمام الخيار التالي: إما أن تكون ليبرالياً أو لا تكون كذلك. لا حل وسط: أنت هذا أو ذاك.

بيد أنه من الممكن أن يعترض المرء على الوضع القائم انطلاقا من منطق مغاير بعيداً عن هذه الثنائية التي تأخذ شكل إنذار. وكما بين عن حق الفيلسوف البولوني ليزاك كولاوسكي، يمكن لكل واحد منا أن يكون "اشتراكياً، محافظاً ولبرالياً"، بحيث يريد في آن واحد أن يحد من التفاوت ويحافظ على التقاليد ويحبذ المبادرة الحرة والتنافس. "فهذه الصفات تمثل خيارات لم تعد تتعارض في ما بينها".

فكم هو ساذج أن نؤمن بصحوة ليبرالية هنا، واختراق محافظ أو اشتراكي هناك.

فما نرفضه هو فكرة الطريقة الأحادية للخلاص في الوقت الذي يهيمن على الناس النزوع للمزج والخلط.

فلئن كان الناس لا يزالون يتبنون هذا المذهب السياسي أو ذاك، إلا أن الخيارات تتعايش داخل أي اتجاه مهيمن.

فالمواطن المطلع في هذا القرن الجديد الذي لم تعد تحركه الخطابات المنمقة القديمة يتعامل مع الإيديولوجيات المتعارضة،

فينقر ما يلائمه، يطالب في آن واحد بمزيد من الحرية ومزيد من الدولة، يثور ضد البيروقراطية في الوقت الذي يضاعف طلبات الرعاية.

فما هو الإنسان المعاصر؟ إنه حصيلة كل الصراعات التي صاغته، خليط متنافر باطمئنان من التقدمي والرجعي، والقومي والأممي. والمؤمن والمتشكك، يسير بسرعة وانتظام.

إنه حيز عدمي من الأفكار المتعارضة، يرغب في الشيء وعكسه تخترقه أصناف عابرة من الافتتان، كما تخترقه قناعات هشة.

فهو كالبهلواني يجول بين العقائد، كالعصار يخلط بين النصوص، إنه حذر أكثر مما هو متلون، لا يثق كثيراً بالمذاهب العتيقة.

فهذا الراحل المتنقل لا يعرف كيف يضع حداً للحرب الأهلية التي يحملها في داخله؛ ولهذا الحوار الملتهب بين الأعداء الذي يحتضنه في أحشائه.

إنه يظل روحاً مقسمة، داخل عالم متصدع، وذاك هو الشرط الأوحد ليفلت من التعصب التبسيطي.

الاستبداد اللطيف:

تتمثل قوة أمريكا من هذا المنظور في استعمارنا بصفة خفية، أي في احتلال أذهاننا عن طريق "الإقناع السري" حسب عنوان فانس باكارد الشهير.

إن أمريكا هي شغلنا الشاغل جميعاً، وكل الذين يعتقدون أنهم يقرون ويتكلمون بحرية ليسوا في الحقيقة سوى خُرسٍ يتحدثون من بطونهم ودمى يحركها آخرون بالخيوط.

"لقد دخل الكوكب الأراضي إلى أمريكا مع قدوم شبكة CNN فاكتمل دمج السياسة الخارجية لعاصمة العالم بسياستها الداخلية، في حين تستخدم أمريكا عالم الماك الذي توفر من خلاله الصوت والصورة للجميع بالشاشة الكبيرة والصغيرة من أجل تغذية اللاشعور الجمعي بحسب مقاييسها، بدءاً بشباب أطراف المدن وصولاً للحكومات"(53) باختصار "لم تعد أمريكا بحاجة إلى أن تكون مهيمنة. لقد أصبحت بالنسبة لنا غير قابلة للدحض، أي إنها أصبحت في داخلنا"(54)؛ لأنها تكيف أسلوب وإيقاع الصور الحديثة، و "تنفذ إلينا بالأبصار"(55).

لا يهم أن تكون الأفلام والمسلسلات فرنسية، ألمانية، إيطالية أو صينية، فهي في العمق مطبوعة بالذوق اليانكي "بلغت أمركة العقول من التطور حد كون أي إدانة لها تبدو بالنسبة للبعض شيئاً فشيئاً غير مقبولة. فلأجل التخلص منها يتعين على المرء أن يكون

مستعداً أن يحرم نفسه من الممارسات الثقافية (في اللباس والرياضة واللعب والترفيه واللغة والتغذية) التي قد تعودنا عليها منذ الطفولة، وغدت تسكننا باستمرار. فالكثير من الأوروبيين أصبحوا منذ الآن متنوعي الثقافة، مهجنين دون انسجام، يملكون روحاً أمريكية في جسد أوروبي"[56].

فإذا كانت أمريكا بالنسبة للبعض العدو النموذجي، فذلك لأن العدو المثالي هو أيضاً القوة التي تجندك تحت رايتها وتقنعك بالرغم عنك بعدالة قضيتها.

(ومن هذا المنطلق ندرك أن الإسلام الراديكالي لن يكون أبداً البديل عن الشيوعية؛ لأنه لا يستميل أحداً خارج منطقة نفوذه باستثناء بعض التائهين منا).

ولنتذكر أن عالم النفس الآنتيي فرانز فانون استخدم في وصفه للظاهرة الاستعمارية في سنوات الستينيات استعارة "أجساد سوداء، أقنعة بيضاء".

فعقلية المستعمِر (بكسر الميم) نفذت إلى رأس المستعمَر (نفتح الميم)، وأفسدت رؤيته للعالم مما أوصله إلى التواطؤ مع سيده.

وكذلك الحال بالنسبة لأمريكا: إنها قابعة في عالمنا الحميم، تبسط فيه سيادتها. وبعبارة أخرى، سواء قبلنا أم لا نحن عملاء للعملاق الأمريكي، مخدرون، مراقبون وعرضة للتلاعب.

ومن الغريب أن برهان انجاسو رامونيه يذكر بذلك المسلسل

الأمريكي الذي ظهر في الخمسينيات وحصل على إقبال واسع في أوج الحرب الباردة، أعني مسلسل "الغزاة" الذي يتحدث عن كائنات من الفضاء تحضر لغزو الأرض عن طريق الانسياب تحت أجسام الناس العاديين.

فلأن هؤلاء الغزاة يشبهون الإنسان العادي المألوف، فإن كل أحد يصبح مشتبهاً بالقوة، مثلما أن كل مواطن أمريكي يمكن أن يخفي "متمرداً أحمر" مقبلاً على الفعل.

إننا لم نعد هنا في نطاق التحليل السياسي، وإنما في التعاويذ: فرامونيه هو ذاك الراقي الذي يطرد السحر، وهو الدرويش القادم من أقصى اليسار الذي يأتي لإنقاذنا نحن الذين تلبسنا الجن.

وكما في التحليل النفسي حيث كل مقاومة هي دليل كبت، فإن الاعتراض على التفوق الأمريكي يؤكد حقيقة هذا التفوق.

فدليل عبوديتنا لواشنطن هو أننا غير قادرين على قبولها، فالعبد الحقيقي هو الذي يعتقد أنه حر. ولا يشذ عن هذا التسمم الجماعي إلا مجموعة قليلة من الحكماء والمصطفين.

بيد أن ثمة شيء صحيح في هذا البرهان، فنزعة العداء لأمريكا لا يمكن أن تكون بمثل هذه الحدة لولا أنها تخفي قدراً مهماً من الجاذبية.

فأمريكا هي أعلى السلط إغراء، وهي في الآن نفسه أكثرها

تنفيراً. إنها تثير السخط وتسحر الألباب؛ لأنها تجسد الحداثة في أسـوأ وأفـضـل مظاهرهـا، مع ذلك النـزر من الجنون والغلو الذي يجعلها فريدة.

فتميزها يكمن في أنها عرفت كيف تجمع بين الحلم والقانون، وبين طوبائية الصفحة البيضاء والحس القانوني الصارم، وبين وعود التسامح وتصميم الفاتحين. فطموحها يتمثل في إعادة التاريخ من جديد على قاعدة عقد قوامه أن كل شيء ممكن.

"إن أهم ما أضافته أمريكا لتجربة العالم هو ذلك الحدث المثير الذي هو أمريكا نفسها، ولقد ساهمنا في تهيئة البشرية لكل المفاجآت القادمة" (دنيال بورستيس).

فهذه الأرض الاستثنائية التي هي أيضاً أرض اصطفاء، المتلهفة للنجاة من خواء المجتمعات العادية، فتحت آفاقاً جديدة للشعوب الأخرى: فحتى الأمور التافهة تضيف عليها أبعاداً، مثل هذه الفواكه والخضروات في المتاجر التي تصبح جد كبيرة وجد براقة، وهذه الشرائح الكبيرة جداً التي تقدمها المطاعم.

فعيوبها ليست فقط عيوب البورجوازية الأوروبية، من فظاظة وحقارة، إنها أيضا من صنف البشع الهائل.

فالحماقة عندما تهيج فيها تكون كثيفة مثل الإعصار، والقبح يكون كريهاً، خصوصاً عندما تتغطى بالمشاعر الجميلة وأمواج الخطميات.

فمجتمع الوفرة الذي ذكرنا، يتعين عليه دوماً أن يحمي نفسه مما يطبعه من سمات إفراط بادية في الغلو في المآكل، وفي السمنة والضخامة والتخمة.

فمن ملامح الاندفاع الجنوني التي يوحي بها هذا المجتمع الاندهاش والإعجاب والغيرة. فنفس أولئك الذين يحرقون العلم الأمريكي يسارعون إلى محلات الأكل الشعبي الجاهز، ولا يتفرجون إلا على الأفلام الأمريكية، ويهاجمون العملاق الأمريكي بواسطة الرموز الأمريكية ذاتها.

ففي أبريل / مايو 1999 كان المراهقون الذين نظموا حفلات الروك في بلغراد للتنديد بضربات الحلف الأطلسي يرتدون فيما يبدو قبعات "شيكاغو بلس" Chicago Bulls، وكذلك شأن أعضاء تنظيم القاعدة، الذين استلهموا غارتهم على أبراج نيويورك من سيناريو هوليودي رديء.

إن هذا الافتتان بأمريكا، الذي يذكر بالهوس المفرط بتقليد الإنغليز لدى الطبقات الحاكمة في القرن التاسع عشر، لا يمر دون بعض الغباوة، كأن يتلقف أتفه إنتاج سينمائي نيويوركي، وأي خربشات لمؤلف من برونكس أو مونتانا بارتسامات الإعجاب في أروبا التي لن تحصل عليها أبداً الكتب والأفلام نفسها إذا كانت قادمة من برست أو فلورنسا.

فتقديس أمريكا يتم على أحسن حال عن طريق هؤلاء

"الأمريكيين" المنشقين الذين ينتسبون للثقافة المضادة، ويصورون أنفسهم نقاداً لوطنهم. ومن ثم يتم تسديد ضريبة حب أمريكا، ويتسنى لهذا الحب أن يغوص في ذلك المسلك، معتقداً أنه صاف وهادئ.

فكم من مطربين وفنانين وروائيين يعلنون لنا منذ الستينيات نهاية الحلم الأمريكي! ولكن الحلم الأمريكي -حتى ولو شابه الكابوس- لا يزال يلهم الناس، ويبقى حياً بعد كل إعلان لموته.

فعبادة أمريكا من خلال نفور بعض مواطنيها منها، تشكل دون شك شكل التعلق الأكثر صلابة بها.

فالولايات المتحدة، تلك الجمهورية القاطعة للطريق، ذلك الغني الجديد، وهذا البلد الذي ينقصه التهذيب والكياسة، والنموذج القائم على الفظاظة والبريق الخادع، تثير حتى لدى الذين يشتمونها تزلفاً خاصاً.

فهذا الكره الذي يمتد لقرون وأجيال وعائلات سياسية عديدة له قيمة الامتياز: فلا توجد إمبراطورية اليوم تتعرض لمثل هذا التحقير والقدح والدوس.

فلنفحص من جديد حالة رامونيه؛ لأنها ذات مغزى. فهو عندما يشرح لنا أن الأمريكيين يفرضوننا على معالجة مشكلات العالم بعباراتهم الخاصة، لأنهم واثقون من التحكم في الألفاظ والمفاهيم والمعنى، يطمحون إلى إقامة استبداد "لذيذ واضطهاد

لطيف"، فإنه بذلك يوحي لنا أنه في أعماقه مخلوق خاضع للإمبراطورية وأحد أصواتها.

ويطفو الشك من جديد عندما يحلل بدقة مفرطة المسلسلات البوليسية على شاكلة كولومبو وكوياك، أو الأفلام الكارثية. فالحماس الظاهر الذي يحلل به تلك المسلسلات والأفلام يبين أن كتابه هو قبل كل شيء صيحة محب معاتب يعشق السينما الأمريكية، في الوقت الذي يقر في نهاية كتابه بالضجر من السينما النضالية.

ولكن رامونيه يلجأ إلى قريحة النقد التفكيكي للتوفيق بين هذا النزوع وقناعاته السياسية، ولتجاوز هذا الانزياح الهائل.

فما يقصه علينا هو تاريخ ميله الشقي، أي استلابه للثقافة اليانكية، أكثر مما يسرد علينا الدعايات الصامتة التي ارتوينا منها.

فحدة الاهتمام لا تكاد تخفي كثافة التعظيم، إنه فعل حسرة تجاه عشيقته الظالمة، يعتب المرء على نفسه أنه لا يزال يحبها من شدة ظلمها.

وجوه الإنكار:

هناك إذن ألف سبب لبغض أمريكا: نتيجة لنجاح اقتصادها الوقح، وقوتها المفرطة، وتمييزها الدائم (بين الأعراق)، وقساوة نظامها العقابي، ومثاليتها المبتاكية في خدمة صلف وجشع مركب

المال الهائل، ومظاهر التفاوت الاجتماعي، ونتيجة لغرورها المذهل الذي لخصته هاتان المقولتان اللتان نطق بهما الرئيس بوش خلال حرب الخليج: "لا مساومة على نمط الحياة الأمريكي".

أما الناطق الرسمي باسم ابنه فقد قال معلقا على التنصل من بروتوكول كويوتو يوم 17 مايو 2001: "إن الرئيس بوش يعتقد أن المستوى المرتفع من استهلاك الطاقة يناسب نمط الحياة الأمريكي، ويرى أن إحدى مسؤوليات المنتخبين تتمثل في الحفاظ على نمط الحياة الأمريكي. فنمط الحياة الأمريكي مبارك"[57].

ويمكن أن نؤنب الولايات المتحدة على نفاقها فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وتهورها في التعامل مع الطغاة الموالين لها، الذين تمولهم ثم تتبرأ منهم، حتى ولو اقتضى الحال خلق وحوش سينقلبون عليها من بعد (...)[*]، كما تنزع في الآن نفسه إلى لعب سياسة العصا الغليظة داخل فنائها الخلفي اللاتيني الأمريكي، عندما تغدو مصالحها مهددة، على الرغم من نقمة الشعوب، وتمارس ازدواجية المعايير، فتروِّج لنموذج لا تطبقه في نفسها، فتنتهك العقيدة اللبرالية من خلال إجراءات الحماية والتدخل العدواني في الميادين الحيوية التي هي السلاح والفضاء والتقانة وصناعة السيارات.

وأخيراً، فإن على أبناء العالم القديم الفاسدين أن يدفعوا ثمن

(*) حذب بمقدار سطر لعدم مناسبته أخلاقياً.

إنقاذ أوروبا من شياطينها ثلاث مرات في 1917، 1942، 1947.

فمثل هذا الدين أقرب ما يكون للعار.

وباختصار أينما وجهت نظرك للأمريكيين وجدتهم مخطئين، والمأزق يكمن في صعوبة الاختيار، لشدة ما يجسدون أدق تجسيد الهوة التي تفصل المثال الديمقراطي عن نتائجه الملموسة، خصوصاً إذا كان مقروناً بكل ذلك التفوق.

ذلك أن الإمبراطورية المتشدقة بالعبارات الأخلاقية المنمقة عاجزة عن الوفاء بالتزاماتها. فهي تشخص من خلال تفوقها الكاسح بُعدَي الجلاد والضحية معا.

إنها تظل حافظ السلم وحامي "العالم الحر" في غياب أوروبا التي لا تزال عاجزة عن بناء دفاع ناجع. ومن هنا الجزع من إدراك أن الحامي معرض للخطأ، ويمكن أن يزعزعه بضع عشرات من قراصنة الجو الجريئين.

بيد أن قناعة الأمريكيين بأنهم "مصطفون" لبناء قدس جديدة مبرأة من ذنوب الجنس البشري تولد خوف الجميع من لحظة جنون تنشأ عندما يعمد لسوء الحظ شخص مثل الدكتور فولامور إلى أخذ قرار مثير يريد اختزال الشؤون البشرية المعقدة في منطق الذرة وحده، باسم الجهاد المقدس ضد الشر.

ولنضف إلى ذلك أن العديد من الخلافات الجدية تفصل ما بين العالم القديم والعالم الجديد، في الشؤون التجارية، والهيمنة

الثقافية، ودولة الرفاه[58] ولكن كذلك في عبادة المال والحرب بين الجنسين والنزعة التطهرية المتكررة.

صحيح أن دولة الرفاهية هناك هي أمريكا نفسها، موئل الثراء التي من المفروض أن تحتضن مستضعفي المعمورة، ومن الصحيح أيضاً أن الخيار بين الوظيفة الكاملة دون إعانة (الولايات المتحدة) والبطالة المدعومة (أوروبا) ينمحي بالنظر لتماثلهما في الحيف[59].

وأخيراً؛ فإن الجمهورية الفرنسية كشقيقتها الأمريكية استندت دوماً منذ 1789 لمعيار الكونية، معلنة حقوقاً جديدة للإنسانية جمعاء، إلى حد أن أمريكا أصبحت في منتصف القرن العشرين المنافسة الكبرى لفرنسا، والنموذج المضاد المزدهر الذي يشير بدليل التعارض إلى أزمتنا.

وكلما اعتمد الفرنسيون أكثر بعض المسالك الأنغلوساكسونية في العمل والتسيير والإنتاج الصناعي - نعرف كم كان بعض الوزراء الاشتراكيين مفتونين بالنجاح الأمريكي إلى حد قريب - اعتقدوا أنهم مرغمون على نبذ قيم هذا النموذج الأنغلوساكسوني.

فالتقليد لا يمكن أن يتم إلا بحسب صيغة النفي.

إستراتيجية من القوي إلى الضعيف:

من قبيل تحصيل الحاصل وصف الجاذبية التي تتمتع بها أمريكا بالقول إنها باعتبارها مهيمنة قادرة على تكييف العقول وتوجيهها لتقديسها.

فأمريكا تسيطر علينا لأنها مسيطرة. ويصل النقد أحياناً درجة من الحدة تخرج عن طوق المعقول: فإذا كانت الولايات المتحدة هي الجحيم التي يصفه بعضهم، وإذا كان الفقراء والمهاجرون والسود خاضعين لأصناف من العذاب تناسب دولة مستبدة، فلماذا لا يغادرها سكانها بالملايين كما فعل لاجئو الزوارق الفيتناميين والصينيين؟ كيف نفسر أن هذا المستبد الكريه هو أيضاً مثال للشعوب المضطهدة يحلم الكثير من الرجال والنساء بالهجرة إليه؟

فالتشخيص الضروري للوضع الأمريكي قد ينقلب في لحظة ما إلى تشهير فيفقد كل صدقية.

ففضلاً عن كون الديمقراطية تظل شديدة الحيوية ومثالية في بعض جوانبها، فالأنظمة الأنغلوساكسونية من بين المجتمعات القليلة في الغرب التي أفلتت من الإغراء الفاشي والستاليني، فإنه يجب الاعتراف للثقافة الأمريكية ببعض الحيوية والديناميكية الباديتين في كل أمريكا، وببعض العظمة التي تقترب من السمو: لنشاهد نيويورك، شيكاغوا وسان فرانسيسكو.

فاختزال أمريكا في لهو العبيد وتسلية الكاوبوي البدائية هو نوع من الضحك على عقولنا.

وفي فرنسا يختفي الحقد على أمريكا تحت قناع بعد النظر والذكاء. فحسب علمنا لا تنقص الموهبة على ضفاف البوتمكاك والهدسون عن الموهبة على شواطئ السين.

ولن نربح شيئاً بالتقليل من قيمة الإشعاع الأمريكي، ولا بتقديم هذه الحضارة في صورة كاريكاتورية تتسم كلياً بالصراع والعنف والبلاهة.

ومن البدهيات التي يجب أن نتذكرها دوماً: أن التعقل يملي علينا بأن نكون موالين لأوروبا، لا معادين لأمريكا.

فللوقوف ضد قوة الآخر، يتعين أن نسعى نحن لأن نكون قوة قادرة على تحقيق التوازن مع القوة الأخرى، بقدر ما نستوحي منها، ونبني معها على أرضية قيم مشتركة.

وهكذا يتوجب على أوروبا إذا أرادت أن تنافس الولايات المتحدة أن تشبهها نوعاً ما في البداية. لأن أمريكا تسبقنا دوما بحل إشكالات تتعرض لها وستطرح لنا من بعد في يوم من الأيام.

فالحلول الأمريكية، مهما كانت قابلة للاعتراض، تستحق تشخيصاً أكثر عمقاً من الرفض النهائي.

(لا يمكننا أن نفلت من الحوار حول التمييز الإيجابي ما دامت لدينا جالياتنا المغاربية والسوداء والآسيوية التي من الفضائح أنها ضعيفة التمثيل في مجالات الإعلام والإدارة والسياسة والأعمال).

فعلى الرغم من النزاعات القائمة بين المجموعات القومية في الولايات المتحدة، إلا أنها تشكل أول مجتمع متعدد الأعراق في العالم، وأكثر المجتمعات تهجيناً، والمجتمع الوحيد حتى الآن الذي

يعتبر المهاجرين غنى وليس جرحاً، مما يجعل مدنها الكبرى مزيجاً كثيفاً وملوناً من الملامح والمطامح واللغات.

وكما يقول بصدق آلفريدو فالادو: "كل ما في العالم يمكن أن يكون أمريكياً؛ لأن أمريكا هي العالم بالفعل"[60] إنها أمة بآلاف الهويات، تواصل حلم نجاح فردي متاح لجميع البشر، بغض النظر عن أصولهم أو أجناسهم.

يمكن أن نعترض على هذه "الماكينة الكبرى لإنتاج الكونية" (فالادو)، ويمكن أن لا نرى فيها مستقبل النوع البشري بالضرورة، ولكن عندئذ يتعين أن نقدم مقابلاً لها يكون شيئاً آخر غير الإنذار والتوبيخ، ويتوجب علينا أن نبني بأنفسنا نموذجاً أفضل للعدالة الاجتماعية والتعايش العرقي. وبعبارة أخرى، علينا أن نختار بين طريقتين من المحاكاة: محاكاة الببغاء التي تتمثل في إعادة إنتاج آلي لنمط الحياة الأمريكي، ومحاكاة الضعيف للقوي الذي يدخل في مدرسته لكي ينجو منه بالمسلك الأمثل.

فالصنف الأول يتلخص في كرنفال على شكل محاكاة القرود تذهب من الأكلات السريعة الجاهزة إلى الزي الشبابي، دون أن ننسى الاستخدام المثير لخليط من العبارات الفرنسية والانجليزية لدى وكالات الإعلان، والمقاولين والصحافيين مما يشكل نوعاً من لغة الصبير المتطورة التي هي إهانة لعبقرية اللغتين ومن شأنها عموماً أن تزيد من حدة الجهل بكل منهما بسوء معرفة الأخرى،

وإن كانت تمنح بالتأكيد من يرطنون بها وهم الإفلات من القيد الوطني.

ويكثر هذا النمط من المحاكاة الهزلية لدي المراهقين الذين يفوتهم أحسن ما عند روما الجديدة مثل ثقافة الخطر والتعبئة، ونوع من النزعة الاختبارية، والقدرة على تحويل الفشل إلى درس، والحيوية الصلبة والوطنية الراسخة (فإذا كان ثمة شيء يمكن أن تعلمه لنا أمريكا فهو أن تعلمنا كيف نستعيد معنى الأمة وكيف نرسي سياسة اقتصادية حقيقية).

فالمعادلة الأمريكية هي: السعادة للجميع بالإضافة إلى التفاؤل التاريخي، وأما المعادلة الفرنسية فهي ثقافة اللذات بالإضافة إلى التشكك المعقلن. فالمعادلة الأولى ينتج عنها أحياناً فعل لا معقول، والمعادلة الثانية تفضي أحياناً إلى الشلل.

فثمة طريقة أخرى لتتبع آثار المنتصر تتمثل في أن نسرق منه سره للتحرر منه. فانتحال عقلية القوة المهيمنة، هو نوع من شق الطريق للانفصام الضئيل معها، وسبيل لامتلاك وسائل مقاومتها على أرضيتها الخاصة. فالجهل الخالص والمجرد قد يكون صنفاً من الانتحار، وكذلك أيضاً شأن تبعية الاستعباد.

تبقى إذن طريقة الاتباع الإشكالي، أي الخطر المحسوب: "افعلوا مثل ما نفعل" كما يقول الأمريكيون الذين يرفعون أنفسهم إلى مستوى المعيار الكوني.

فباتباع الأمريكيين في بعض المجالات يمكننا فقط أن ننتهي شيئاً فشيئاً إلى التنصل منهم.

وهذا هو حال آلاف الطلاب الفرنسيين والإيطاليين والإسبانيين الذين يذهبون إلى ما وراء المحيط كل سنة للتعلم ثم فك الارتباط، فيطلعون على ممارسات جديدة يوظفونها من بعد لفائدتهم. فالاستلاب المؤقت تتلوه العودة للذات، وقد تخلصت من العقد واغتنت ببعد جديد.

فالتقليد هو أيضاً نمط من الاختلاف، ومن تدجين النموذج الرائع لجلبه خارج مجاله الأصلي. وربما كنا الآن داخل هذا المسار وفي خضمه.

فمحاكاة أمريكا تعني التحرر بقدر ما تعني الخضوع، أي القدرة على التجدد بالاحتكاك مع ثقافة مهيمنة. سخاء المحاة من ناحية، ومن ناحية أخرى مهارة التأليف الناجع الذي يسعى بأناة إلى إعادة صياغة استراتيجيات سادة العصر. فللتخلص من قبضة أمريكا، يجب البدء بدراسة أمريكا والنهب منها، للتعرف على قواعدها لكي نستعملها ضدها. فالثقافة الأمريكية أصبحت "عامل صياغة كونية" تسمح لخصوصياتنا بإعادة التشكل دون أن تضيع.

أمريكا ليست لها وسائل تمكنها من أن تكوِّن إمبراطورية

أما خطر توحد العالم تحت هيمنة واشنطن فليس سوى مجرد وهم محض: ليس فقط لأننا نبالغ في أهمية اللغة الإنجليزية

التي يقول المختصون إنها يتحدثها 20 ٪ من سكان العالم. ولئن كانت لغة المبادلات، فإن هذه الإنجليزية التي تنتشر هي انجليزية مكسرة تزداد فقراً عبر انتشارها: فكل الناس يتلعثمون في نطقها دون أن يعرفوها، ويتواصلون في ما بينهم بإبهام عن طريق عدد قليل من الكلمات. وباختصار، إنما تربحه ربما تفقده من حيث الجودة والغنى[61].

ولكن خصوصاً لأن أمريكا ليس لها أهلية الإمبراطورية، حتى ولو كان بعض قادتها يغذون هذا الوهم، لسبب بسيط هو أنها مجتمع مقبل على اللذة، مجتمع فردي، غير مستعد للتضحيات التي تقتضي مثل هذا الطموح.

إنها إمبريالية دون شك لكن دون النتائج السياسية، والأنتروبولوجية التي تنجم عن هذا الوضع، إنها ببساطة لا تتمتع بالقدرة على إتقان هذه المهمة: ومن هنا ندرك كيف أحالت مسؤولية "جلب الحضارة" للعالم إلى السوق بحسب إيديولوجيتها اللبرالية الجديدة، مما كان عاقبته إخفاقاً ذريعاً.

فثمة انزياح حاد بين قوة العملاق الأمريكي الشمالي وعقلية سكانه: فهؤلاء يمكن أن يعرفوا لحظات التضامن الكبير وبعض الوثبات الوطنية الدائمة، لكنهم غير مخلوقين لإدارة المعمورة، ولا يمكنهم أن يقوموا بذلك أبداً؛ لأن "رسالة أمريكا" هي الرفاهية الشخصية وحب الحياة.

فليست الريادة الأمريكية هي المقلقة، وإنما المقلق هو تكتمها والشعور بأن هذا الدركي المتخفي ليس في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه ودليل ذلك أن الإدارات المتعددة التي تولت مقاليد السلطة منذ 1989 كانت غير قادرة على تحمل مسؤولية النظام الدولي الجديد، مثل طفل عيونه أكبر من بطنه يشبع عند اللقمة الأولى(62).

إن أمريكا الثملة بنجاحها المادي والثقافي والاقتصادي نست "أن أسوأ عدو للنجاح هو النجاح نفسه"(63)، وإن القوة المطلقة التي تزهو بها بخيلاء هي عبء جد ثقيل على عاتقها.

لقد فقدت أمريكا من قبل براءتها في كارثة فيتنام، وعليها منذ الآن أن تندب استهتارها، وأن تنبذ عجبها بنفسها، وأن تقتسم سيادتها مع غيرها، وتنحني للمؤسسات الدولية وإلا تعرضت للعزلة المتنامية.

لقد آن إذن الأوان أن نخفف عن عاصمة العالم الأنغلوساكسونية بعض مسؤولياتها الثقيلة؛ ولذلك لا بد لأوروبا أن تتخلص من عقدة بيتربان، وأن ترضى بأن تكبر، وأن تتحمل مصيرها على كل المستويات، وتنهي اعتمادها في أمنها على الحلف الأطلسي.

يتعين على الولايات المتحدة والأمر مؤكد أن تتعلم البساطة، وتدرك أن مصلحتها ربما تكون في مثل هذا التقاسم للمسؤوليات مع حلفائها.

ولكن من السذاجة أن نتوقع من الولايات المتحدة أن تقوم بإصلاح نمط تفكيرها بصفة جذرية. فما تمت صياغته عبر قرون أربعة من التاريخ لن يقوض في جيل واحد.

فستستمر الولايات المتحدة طويلاً في إبداء هذا الخليط المدهش من طيب القلب[64] ولطف المودة والحرص الشديد على عدم الاهتمام بالشعوب الأخرى الذي هو خاصيتها المميزة.

فالذي عليه أن يتغير ليس الولايات المتحدة، وإنما نحن المطالبون بإعادة توجيه طاقاتنا، بدلاً من أن نستمر في استجلاء صورتنا على نحو يدعو للرثاء في مرآة ابن عمنا اليانكي[65].

فالتنافس هو الذي يوحدنا مع أمريكا، ويدفعنا لمحاكاتها حرفيا، وإلى شتمها بجفاء، والتعايش الصافي من الأهواء هو الذي يفصلنا عن جيراننا الأوروبيين ويبعدنا عنهم. وقد آن الأوان أن نحول هذا التنافس إلى مزاحمة سليمة، إلى منافسة إيجابية بين قطبين قريبين من بعضهما، ومختلفين عن بعضهما، فكلاهما يحتاج إلى أن يتعلم من الآخر من حيث الجرأة والحكمة.

فيمكن أن نأخذ على أمريكا كل المآخذ إلا مأخذ نفورنا منها. ومن هنا يتعين نعت الذين يدعون التمسك بسيادة الدولة بالانهزاميين؛ لأنهم بشتمهم لبروكسيل وبيروقراطييها، وبرفضهم كل صيغة فيدرالية أو كونفدرالية، لا يتحصلون على الوسائل السياسية التي تمكنهم من التحايل على تفوق أمريكا الشمالية.

إنهم يفضلون التحسر على الفعل. ذلك أن عبارات التوبيخ التي يتلفظ بها "أعداء الامبريالية"، لها سمة خادعة تتمثل في كونها تؤمن استمرارية الأشياء الممقوتة، فهي عبارات لاتوبخ لكي تقتل، وإنما لكي تضمن المحافظة: إنها مجرد صور بلاغية للاستمرار في الاستهجان باطمئنان بالغ.

فهذا الاشمئزاز يشكل نوعاً خاصاً من الاستسلام: ننجرف فيه عندما نقرر الرضا بالوضع القائم.

ذلك أننا نتمسك بالفزاعة الأمريكية، فهي الشيء الوحيد الملموس الذي يمكن الاعتماد عليه، إنها الخصم النموذجي الذي يجمع كل أشكال الدنس الممكنة.

فليس التفوق الأمريكي محتوماً ولا التقوقع الأوروبي قدراً حتمياً بشرط أن يصبح الاتحاد الأوروبي شيئاً آخر غير ائتلاف من العناصر العاجزة، وأن يبدع أدوات سياسية وعسكرية جادة وناجعة (بالاتفاق خصوصاً على نموذج اجتماعي أوروبي معدل ومراجع).

والأوراق بأيدينا: فإما أن نبني سلطة مضادة أو نكون مستذلين برضانا محكوم علينا بالنشاط التافه، محصورين في مجرد دبلوماسية الرفض والاعتراض. علينا أن نسعى لتقوية أنفسنا بدلاً من اغتياب ابن عمنا على الجانب الآخر من الأطلسي، مما لن يمنع أبداً روابط التضامن والصداقة والتنافس التي تشكلت عبر تاريخ مشترك طويل ستنتهي نزعة العداء لأمريكا، ذلك المرض

الطفولي الذي تعاني منه أوروبا وهي في طور تكونها، وأمريكا اللاتينية التي لم تصنع وحدتها، في اليوم الذي تكف فيه الولايات المتحدة عن أخذ رأي هاتين المجموعتين في كل شيء، بحيث تحسم قضايا العالم الكبرى دونهما.

باختصار، ستنتهي هذه النزعة في اليوم الذي لا ينظر إلى الخصوصيات الاقتصادية أو الثقافية بصفتها عوائق وإنما بصفتها فواصل.

الفصل الخامس

في التواطؤ الشديد على كراهية قديمة

"إن الرأسمالية هي استغلال الإنسان للإنسان، والاشتراكية هي العكس"

مثل مألوف لدى المنشقين الأوروبيين الشرقيين في العهد الشيوعي.

ما هي الرأسمالية، تلك العبارة القديمة التي أبلتها شدة الخصومات التي تمت حولها؟

إنها أكبر منشئ للثروة حسب ماركس التي يوكل إليها مهمة شبيهة بمهمة المسيح المخلص. إنها ظاهرة تحرر حديثة ولدت في

أوروبا، تفترض تشكل سوق تكون دائرة أنماط من التبادل ذي الفوائد المشتركة. إنها منظومة أخلاقية للأعمال، تزيد "من الفرص السليمة للربح بصفة مجردة"، ولا يمكن أن ترد إلى مجرد "تمجيد الجشع" (آمارتيا سن)، بل إنها تقوم على الرغبة في الشغل، وعلى الثقة وعلى الإبداع الدائم الذي ترعاه طبقة المقاولين.

إنها ثقافة، وخلق لنمط جديد من الإنسان المنهجي والمتبصر (ماكس فيبر) الخاضع للحساب، والذي تحركه الرغبة المطلقة في الربح "أي عقلنة الأنانية" (جوزيف شامبيتر).

يمكن أن توجد أسواق دون رأسمالية، مشتتة ومحدودة، كما كان الشأن في العصر الوسيط، ورأسمالية دون سوق، أي "القطاع الخاص المحمي من التنافس بفضل سياسية متواطئة ومعوضة"[66].

فبداية من عصر الأنوار، انتزع المنطق الاقتصادي شيئاً فشيئاً حق السيادة المطلقة على باقي الأنشطة، مع الأمل الخاص لدى بعض التيارات الفكرية منذ القرن الثامن عشر في التوفيق بين الأخلاق والمنفعة، بين التقدم التقني والتقدم الروحي، بين التجارة والفضيلة. إن الأمر يتعلق بإرجاع كل الأنساق البشرية إلى الدائرة الوحيدة التي غدت هي القيمة العليا.

التقديس السلبي:

من الغريب أن مذهب التيار المناهض للعولمة، كما ذكرنا من قبل هو الوجه المعاكس بالضبط للمذهب الليبرالي: ففي حين يبشرنا متملقو "النظام العفوي" بجنة النعيم، ينذرنا معادو العولمة بنار جهنم وسلسلة الكوارث المتصلة بها: الخلاص والفوز هنا، والسقوط والانحطاط هناك، ومن هذه الرقصة الروتينية التي يتزاحم فيها المقدسون واللاعنون تنبثق العقيدة الدينية نفسها.

فسواء كانت السوق هي المفتاح الإلهي للتاريخ أو مولد كل الأحزان، فإن المنطق واحد وهو وضع السوق في مركز الصدارة. ويبدو أن كينز أراد أن يحط من شأن المسائل الاقتصادية إلى مستوى العلاجات الصحية. وبهذا التوجه استمر في كتابة المجلدات الضخمة التي ضمنت له الشهرة عن جدارة.

فبذريعة الطموح المشروع في جعل الاقتصاد خادماً للإنسان (رانيه باسيه)، نكثر من المقاربات والفرضيات الاقتصادية، لأجل غاية هي دون شك محمودة، تتمثل في بناء النسق الاقتصادي على أرضيته الخاصة. وبعبارة أخرى، لا بد لمحاربة الرأسمالية من البدء بتعلمها وبدخول مدرستها. إنها تلزم دوماً الذين يزدرونها بمواجهتها بلغتها الخاصة. مثل التعبير عن السخط أمام البورصة للاستهزاء بالسماسرة ووكلاء صرف العملات. فذلك أيضاً نمط

من الانحناء لرجال المال الذين نكرههم، ونوع من ممارسة التقديس السلبي.

وبالمعنى نفسه، يمكن القول إن نزعة الهدم هي نوع من الولاء غير المباشر للتاجر الشره الذي يحتاج إلى أن تتحطم بضاعته باستمرار لكي يجددها: فحرق السيارات ليس فقط إساءة لمالكها ولكنه أيضاً طريقة بدائية لحفز إنتاج السيارات. وهكذا ندرك حدود شكل معين من الرفض. (فالتجارة من حيث كونها استمرار للسلب والنهب بوسائل سليمة تظل محكومة بهاجس أصولها، كما يظل التاجر مهووساً بالسارق الذي هو سلفه والوجه الآخر له الذي غالباً ما يحيي ذكراه العطرة).

وكذا حال ضريبة توبين التي طالبت بها حركة آتاك فرنسا (ومن سخرية الأشياء أن اسم الضريبة هو نفسه اسم شبكة المجمعات التجارية الكبرى).

فهدف هذه الضريبة مزدوج يكمن في إرجاعه السلطة النقدية إلى قبضة الدول بانتزاع نسبة مئوية بسيطة من 0.1٪ إلى 0.5٪ من التعاملات المالية قصيرة الأجل، وكبح حركة المضاربة على سوق العملات. فمهما كان الرأي في نجاعة مثل هذا الإجراء[67] لا يمكن إلا أن نندهش بادئ ذي بدء من بساطته النسبية والمهمة الهائلة المتوخاة منه في ذهن المدافعين عنه. فبالنسبة لهم، يشكل هذا الإجراء السلاح الأمثل- أو على الأقل

السلاح الأول في قائمة أسلحة - لتصحيح ما هو سيئ على الأرض، ولإشباع "كثير من الحاجيات المعطلة. (كالحصول على المياه والسكن ومحاربة الأوبئة العامة)"[68]، ولتمكين السيادة من استعادة بعدها الحقيقي، ولمعاقبة الجنان الخالية من الضرائب، وباختصار لفتح ثغرة في القدرية المحتومة، من أجل "إعادة تملك مستقبلنا جماعياً"[69]. ومع ذلك كيف لا ندرك أن نجاح مثل هذه الضريبة يفرض وجود بل ثبات ما من المفروض أن تعاقبه، أي تجارة العملات، التي يمكنها وحدها تأمين الضريبة[70] فمن الغريب أننا نعمل هنا على استمرارية ما ندعي أننا نطمح إلى إلغائه، خصوصاً عندما نأمل أن نستخرج من هذه الضريبة المقطوعة "ما بين عدة عشرات إلى عدة مئات مليارات الدولار بحسب السيناريوهات المختلفة"[71].

فكلما تباطأت الحركة طارت المليارات وانتفت معها كل إمكانية لإصلاح العطل. فإذا كان جيمس توبين قد تبرأ علناً من الذين يدعون الانتماء إليه، فذلك لأنه اعتبر أنه تعرض للخيانة. لقد أراد من خلال مبادرته أن يمارس أثراً رادعاً على أسواق العملات برفع حركة الذهاب والعودة اليومية، أما هم فقد أرادوا مضاعفة المداخيل المالية.

بيد أن ثمة فرق بين السعي للحد من مضاربة معينة بالضغط على الصيارفة والبحث عن الحصول على الربح من هذه المضاربة ولو باسم أحسن النوايا.

ففي الحالة الأولى، نحد من سيولة الرأسمال في مستوى المنبع، وفي الحالة الأخرى ندفع هذه السيولة لجني مكاسب جديدة. وإنها لغريبة هذه العقوبة التي تغذي الخطأ: فبدلاً من الانقضاض على الغول المالي نمنحه عشراً صغيراً يشجعه على رذيلته.

فهذه "الحصاة الرملية" في دواليب المؤسسة المالية الدولية (برنارد كاسن) هي أقرب لقطرة الزيت التي تسمح بتسهيل كامل العمليات؛ فالأمر يتعلق بتشجيع حقيقي يأخذ شكل عقوبة رمزية لا تحسن إخفاءه. وكما، إن السؤال مطروح حول ما إذا كانت المضاربة من حيث هي خطر محسوب هي المحرك الفعلي للنشاط (والفكر) التجاري[72]، فإنه من المستغرب من جهة أخرى أن حركة آتاك لا تدعم إنشاء اليورو التي لها الأثر المباشر على كبح كل مبادلة بين العملات داخل دول المنطقة[73].

فهذا هو مظهر غموض نزعة العداء للرأسمالية في نسختها الراهنة: إنها أبعد ما تكون عن الحد من المضاربات اللامشروعة السائدة، بل هي على عكس ذلك توطدها من حيث تفتخر بأنها تصلحها.

فهذه النزعة تظل حبيسة منطق المضاربات غير المشروعة: الهوس بالأرقام نفسه، حسابات العطار المبالغ فيها نفسها، سواء كان التعامل بالملايين أو بالمليمات.

ويمكن أن نحمد لمناضلي آتاك إرادتهم إقامة "اقتصاد ذي غاية إنسانية" حيث "تكون الأولوية لحقوق وكرامة الشعوب... على المنافع المالية"، ولكن يتوجب عليهم لإنجاز مثل هذا البرنامج أن يبدؤوا بإعطائنا دروساً في الاقتصاد.

فبقدر ما أردنا تحرير الإنسان من رق الاقتصاد.. ضاعفنا المقاربات الاقتصادية، ورأينا بعض المتخصصين البارعين يدعون إلى إلغاء اختصاصهم، مثلهم مثل الهارب الذي يبدأ هروبه بإطلاق رصاصة على قدمه.

صحيح إنما هو مطروح هو اقتراح نمط آخر من توزيع الثروة، وذلك في حده ليس بالقليل، واقتراح نمط من التنظيم أكثر صرامة. ولكن لا نرى كيف يمكن أن يؤدي ذلك إلى "إضعاف الأسواق" (انجاسيو رامونيه)؛ لأن الأسواق ستكثر من أجل تغذية الضريبة. إنه غموض أزلي: نتأرجح بين إرادة قتل البهيمة والرغبة في الاستفادة القصوى منها.

فما هي إذن ضريبة توبين: هل هي الخطوة الأولى في تغيير شامل، أو علاج بديل من أجل شحذ معنويات الجموع المنهكة، أي فعل شيء بدلاً من لا شيء ؟ يظل السؤال مفتوحاً.

إن تصحيح المظالم يفترض إذاً الاعتراف بالرأسمالية "ليس كمنظومة نتحرك من داخلها وإنما بصفتها نسق نؤثر فيه"[74].

وكما قال من قبل شامبتر في منتصف القرن الماضي: "إن

سياسة الاشتراكية لا يمكن أن تكون اليوم إلا رأسمالية وفي المقابل إن سياسة أي حكومة محافظة لا يمكن أن تكون اليوم إلا مطلية قليلاً بالاشتراكية ".

فالاحتجاج يمكن أن يقلق، ويطرح أسئلة محرجة، ويزعزع المصالح القائمة، لكنه يتقاسم الكثير من الأشياء مع النظام الذي يرفضه ولا يمكنه أبداً أن يهدمه.

إنه بالفعل ضد كل شيء، ورافض لكل شيء، لأنه بذلك يكتفي بتكييف ميول الكائن الاقتصادي بطريقة مغايرة (نعني بالكائن الاقتصادي الإنسان مختزلاً في منزلة المنتج والمستهلك).

ففي ما وراء الزبد الخطابي، يكمن القبول الضمني بتفوق النظام الحالي، حتى ولو كنا راغبين بحق في إضافة قيود عليه (كما هو حال كل حكومات اليسار في أوروبا).

ثقافة الاعتذار:

في كل مرة تحدث فظاعة أو مذبحة في مكان من ما من العالم على يد من ندعوهم بالمستضعفين تكون ردة فعل اليسار على الأخص: لا يمكن أن يكونوا فعلوا ذلك، لقد أجبرهم الفقر والامبريالية والإذلال على ذاك الفعل.

إنها نزعة روسوية جديدة آنية، بحسب ما يقال في المقهى الذي يحمل اسم روسو: الإنسان خير والمجتمع وحده هو سيئ

خصوصاً إذا كان رأسماليا. فالشر لا يوجد، وليست هناك سوى ظروف شريرة.

وهكذا تغدو كل مخالفة مبررة من أحداث العنف في المدرسة إلى المجازر في هذه القارة أو تلك.

فبدلاً من تحميل المسؤولية لمن ارتكبوا هذه المخالفات، يتهم النظام الاجتماعي الذي جعلها ممكنة. فكل خروج على المألوف له أسبابه الاقتصادية، وكل فعل متوحش ينغرس في الظلم.

فعندما تحدث فضيحة تثير أعلى درجات الغضب، مثل اعتداء ما أو هجوم إرهابي يرد أناسنا الطيبون على سؤال ما العمل بالقول دون هزل: غيروا العلاقات الاجتماعية "قاوموا العولمة التجارية"[75]، عندئذ سيرجع القتلة السيوف على أغمدتها، وسيحمي الجلادون الأطفال، وسيتحول الجزارون إلى بستانيين.

لقد سمح إبداع الظروف المخففة في القانون في نهاية القرن التاسع عشر بتمييز العقوبات بحسب الشخص، ومن ثم عدم وضع مقياس واحد للجرائم وترك الباب مفتوحاً أمام المجرم لكي يتغير ويعاد الاعتبار له. ولم يكن القصد - إلا في حالة الجنون الساطع - هو تبرئة اللصوص والمجرمين. أما إيديولوجيا الغفران فلم تعد تعتبر الفعل سوى عرض، يذوب في الاعتبارات التي تحيط به مثلما يذوب السكر في الشاي. فالقتلة وأفراد المليشيات والمجاهدين

ليسوا أبداً مسؤولين عن ذنوبهم؛ لأنهم ولدوا على أرض ممهدة بالفقر والاستغلال، وليسوا سوى نتاجها.

فما لم تقم عدالة كاملة على هذا الكوكب، سيميل دوماً المضطهدون للقتل والاغتصاب والإبادة باسم الدين والعرق والطبقة.

ونشهد على مستوى الأمن الداخلي في بلداننا ما هو مماثل من ضياع حس القانون، والتفسير بالعوامل الخارجية، وتحويل المجرم إلى شهيد والقضاة والشرطة إلى مساعدين اجتماعيين ومحللين نفسانيين.

فالقاعدة الجماعية المشتركة التي هي أساس الجمهورية أبطلت لأجل إعفاء كل أحد.

فثقافة التبرير هي ثقافة كراهية: فبادعائها تبرئة المذنبين، تعاملهم في الحقيقة بصفتهم قصراً. ربما كانوا قتلة لكنهم قبل كل شيء أطفال، إنهم ملائكة سامون لا يسألون عما يفعلون، نتحمل نحن أوزارهم التي لا يمكن أن نعاملها إلا بعفونا وتوبتنا.

فكل حرب، وأي جريمة ضد الإنسانية يرتكبها معذبو الأرض هي نوع من خطئنا، ويجب أن تحثنا على الإقرار بذنبنا، وعلى أن نكفر دون انقطاع عن ذنب الانتماء لمعسكر الأمم المترفة. ومع ذلك، يحين وقت يغدو فيه من غير الممكن تحميل مسؤولية انحرافات

بعض المجموعات والشعوب والدول لأحد سوى هذه الأطراف نفسها، ويصير من الممتنع إحالة المسؤولية على الوضع الدولي، والتبادل غير المتكافئ والغلو الليبرالي، وماذا أيضاً؟

فالنظر إلى هذه الأطراف المنحرفة بصفتها ضحايا غير واعية، ودمى أو صنائع للقوى العظمى هو بمثابة تبرئتها بثمن بخس.

بهذا المعنى نكون أمام تيار يساري راديكالي لا يقل تشاؤماً من الناحية الثقافية عن اليمين الأكثر محافظة: فبدلاً من إشاعة الحرية يسجن الكائن الإنساني في ظروف نشأته مثلما يحكم عليه اليمين المحافظ بالجمود في جيناته وخصائصه الوراثية لون جسده أو جنسه.

فصديق المضطهدين يبدي نمطاً من النزعة الأبوية المتعجرفة إزاء من يحميهم: إنه يحرم عليهم بلوغ الاستقلالية والنضج لأنه لايعتبرهم أبدا مسؤولين عن أفعالهم (كما أنه بالقدر نفسه لا يعترف لهم بما قد يحققونه من نجاح) والحقيقة أنه لا يعبأ بالأمر: فهو غير معرض إلا في حالة استثنائية لبطش هذه الديكتاتوريات وتلك العصابات المتزمتة.

إنه يستخدم العالم الثالث، من أفغان وروانديين وفلسطينيين للاستمرار دون انقطاع في تكرير نغمة معادة بالحديث عن الغرب النتن والديمقراطيات الفاسدة والرأسمالية الحقيرة.

هوس القطيعة:

لقد بينا آنفاً أن خاصية الصراع ضد الرأسمالية تتمثل في أن الجانبين يتكلمان اللغة نفسها.

فلماذا كل هذا العدد من قدامى الشيوعيين الذين يوجدون حالياً على رأس الشركات التجارية الكبرى وفي مواقع القيادة ؟ هل يتعلق الأمر بخيانه الأخلاق البرولتارية أم بنوع من الانتهازية أو بقلب ظهر المجن؟

ربما كان الأمر كذلك، ولكن ثمة شيء آخر: فبانتقال هؤلاء من الماركيسة - اللينينية إلى اللبرالية الجديدة، لم يغيروا إيديولوجيتهم، بل حافظوا على عبادة البنية التحتية، وعلى الإيمان المكين بخلاص العالم عن طريقة علاقات الإنتاج.

ففي الحالتين، بدل أن يعتبر الاقتصاد خدمة، ظل ينظر إليه بصفته قدر إلهي: له أحباره وقساوسته الكبار و مبتدعته الذين يتوجهون له بنفس العبادة. فهؤلاء الذين يضطرمون رغبة في دوس السوق وانتزاع قناعه، إنما يتصرفون في مسلكهم على غرار المؤمنين المحبطين الذين يسبون دينهم بدل التنصل منه.

فلتنظروا إلى الثنائي الروائي الأمريكي الجنوبي: غابريال غارسيا ماركيز وفرغاس لوزا، أحدهما يدعم ديكتاتورية كاسترو والعصابات الشعبية المحاربة، والآخر يناصر بحماس اللبرالية المحضة الصارمة (في الوقت الذي كان من قبل شيوعياً وليس الأمر مجرد صدفة).

إنها المادية التاريخية ضد الجبرية التجارية، وهما صيغتان متقاربتان لنفس النزعة التاريخية تنمان عن موهبة عالية، حتى ولو كان فرغاس لوزا ديمقراطياً حقيقياً ويوافق ببعض المرارة المرحة على أن التقدم "يتطلب" إغلاق المكتبات الصغيرة واختفاء المسارح الصغيرة وقاعات السينما المدعومة. زمن هنا الدائرة الغريبة المنغلقة علينا: بقدر ما ترفض الرأسمالية بالكلمات تمجد في الواقع. وتتمثل خديعتها الكبرى في إقناع مهاجميها بأنهم موجودون، في حين تكمن السذاجة الكبرى لأعدائها في إقناعهم بهذا الوهم.

يمكنهم بالطبع أن يسخروا منها ويلعنوها، ولكنها تظل حسب عبارة ماركس "الأثير الخاص" الذي نستنشقه جميعاً.

فالرأسمال ينبعث من رماده من حيث نعتقد أنه في طور الاحتضار، فهو يقتات منذ قرنين على إعلان وفاته الوشيكة (حتى ولو كان لا بد أن ينتهي يوماً مثله مثل كل شيء تاريخي).

ففي اقتصاد السوق ليس النقد سوى نوع من التعاون، كما يقول الإنغليز عن نقد معارضيهم. بل إن هذا النقد ضروري لاقتصاد السوق؛ لأن النظام الرأسمالي عندما يترك في منحدره يسير إلى الهاوية. ومن التفاؤل تخويله نوعاً من الحكمة الباطنية التي تقوده إلى التخفيف من جشعه.

إنه لحسن الحظ يستثير بذاته الإنذارات التي تدفعه إلى

تجاوز نفسه، وتشكل هذه الإنذارات أصلب ركائزه. فبذا يعرف مثل اللاعب الجيد كيف يحول مجرى طاقة عدوه لصالحه، وكيف يتقدم بصفة متناقضة وبرغماتية. فالنقد آلة ذاتية الانضباط رائعة ولم تتعطل يوماً، وقد أثبتت صحة المثل المشهور الذي يقول بأن منافساً ذكياً أفضل من مريد تابع.

فإذا كانت الرأسمالية لا تزال حية بعد قرنين، فإن الفضل في ذلك يعود لأعدائها بقدر ما يعود لأشياعها.

لهذا السبب، ندرك لماذا تحرص مجتمعاتنا في نوع من العلم اللدني بهشاشتها على إعطاء عناية فائقة لبعض المفكرين الصعاليك، من مثيري الشغب المحترفين وكأنهم مبرمجون على توبيخ تلك المجتمعات، بمعنى شد لحمتها من حيث التهجم عليها.

ويدل هذا على أنه كان بإمكان النظام الرأسمالي أن يموت من جراء انتصاره، لو لم تكن له هذه القدرة الغريبة على تهذيب نفسه بفضل أولئك الذين يريدون مسحه من الخارطة، فيساهمون على الرغم منهم في إعادة بعثه.

ومن المؤكد وفق هذا المنظور أن الشيوعية "أنقذت" الرأسمالية، حتى ولو كادت تقضي عليها: من جهة ببناء نماذج كاريكاتورية مضادة بدلاً منها، ومن جهة أخرى بتوجيه النظر إلى جراحها مما أعطاها دفعة قوية للتجدد.

ولقد تزامنت نهاية الخطر الذي كان يهدد الرأسمالية من

خلال هذا النموذج المضاد مع ارتخائها، ومع عودة مظاهر الغبن وخطاب الوضع القائم المتسم بالغرور.

ويمكننا القول دون سوء نية إن التيارات المعادية للعولمة ربما كانت على الأرجح طليعة الاستكشاف التي ستضيء مسلك الرأسمالية القادمة.

فحتى ولو لم تتبن الرأسمالية الحلول التي تقترحها تلك التيارات، فإن ذلك لا ينفي أنها كانت على صواب أكثر من غيرها، وأنها تفطنت إلى آثار لم يلاحظها أحد غيرها.

فتحذيرات أعداء العولمة لم تكن لتصبح ذات قيمة لو لم توجد في النخب العالمة عقول بارعة ومصلحة حقاً، وكذا مؤهلة لفهم اضطراب الرأي العام وقادرة على تصحيح السياسة الحالية[76].

ومن الأمور الدالة في هذا الباب، أن رجال المصارف والمقاولين وصانعي القرار حيثما التقوا في المنتديات الأخيرة نبذوا عجرفتهم المألوفة وانطلقوا يتحدثون بلغة معارضيهم كالحديث عن التصدع بين الشمال والجنوب، وعن الهوة الرقمية والحد من الفقر.

ومن الأمور الدالة أيضاً والمثيرة بعض الشيء تلك العريضة التي بعثها الأمريكان من أصحاب المليارات إلى الرئيس بوش في فبراير 2001 يناشدونه فيها بدعم إلغاء الضريبة على الميراث خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إغلاق السلم الاجتماعي وكبح إمكانات الترقية.

هل هذا من التحايل الدنيء الذي يمارسه النظام الرأسمالي ببعض التملق "متخلياً عن خطبه التي هي خطب قاتل وناهب"[77].

ربما كان الأمر كذلك، ولكن هذا هو دوماً مسلك النظام الرأسمالي: باستيعابه الانتقادات لتحويلها إلى مزايا، وبارتدائه ثوب التشاور والشفافية[78] فإذا كانت علاجات أمراض الرأسمالية تأتي من داخل الرأسمالية، إلا أنها لا تنتبه لهذه الأمراض إلا بفضل أعدائها؛ ولذا لا يمكنها إلا أن تمتن لهؤلاء المراقبين الذين يحذرونها من العوائق التي تعترض سيرها ويجنبونها الغرق.

فالمصادرة لا أهمية لها إلا بشرط السير في الاتجاه الصحيح، أي اتجاه المصلحة العامة وتحسين وضع الشريحة الأكثر فقراً -فلا فائدة لها إلا بالنسبة للمراهقين الذين يعيشون في انتظار الخلاص عن طريق الانفجار الأكبر.

ويجب في الآخر أن نذكر بهذا القانون الأساسي: لا يمكن لطبقة اجتماعية معينة أن تحتفظ بالسلطة عندما نمارسها بطريقة أنانية مبتذلة. أي بعبارة أخرى، من مصلحة الفئة الحاكمة أن تتوافق مع الفئات الأخرى وإلا كانت عرضة الاستخفاف[79].

وإذا كان التاريخ "مقبرة الارستقراطيات" (بارتو)، فذلك لأن الكثير منها مات من جراء العناد والعمى.

فنزعة العداء للرأسمالية لو لم يكن لها من الفائدة سوى ذاك، أي إيقاظ مؤسسة خادمة، جامدة على أوهامها، لما كانت عديمة الجدوى.

فقد يلاقي هذا التيار المعادي للعولمة صعوبات في إثبات صدقية وهمه، وفي بلورة مقترحات حقيقية، ولكنه على الأقل يعيد طرح سؤال الغايات، ولا يبدي سوى مقتضى وحيد هو ضرورة السلطة المضادة.

إنه يعيد طرح هم العدالة فيما وراء النغمة اليسارية المكررة، ويوقظ الحوار العام، ويجعل كل مواطن مثقفاً جماعياً يحاول أن يتلمس طريقه في متاهة الحاضر.

إنه يحيل على الأخص إلى تعلق الأجيال الشابة بمشكلات العالم، بحيث إنهم يعيشون أبسط اعتداء ضد المعمورة كاعتداء يستهدفهم شخصياً، مستعيدين بذلك حدس فورييه العبقري باعتباره الكون والإنسان جسماً واحداً، وجسداً تخترقه رعشات اللذة نفسها وأحاسيس الألم نفسها.

الانتقام الأزلي:

في هذه اللعبة التي يربح فيها الخاسر، يبدي اليسار المتطرف نوعاً من العظمة الإشكالية، حين لا يتأرجح بين الاجترار والحقد.

فحتى لو كان خطابه في غالب الأحيان خطاباً سحرياً خارقاً، ومقترحاته متطرفة، وممارساته منغلقة بل مستبدة، إلا أنه يؤدي دون ريب دور المحرك، ويعيد طرح مطلب الانعتاق في شكل حقوق جديدة وأنماط حياة جديدة.

إن قوته وكذا إزعاجه يكمنان في رهانه الدائم على الممكن

على حساب الواقع. إنه في الوقت نفسه قوام هذه الحركية الغامضة التي تعيد الحياة للخصم من حيث اعتقاد قتله.

فهو مثل كريستوف كولومبس الذي اكتشف العالم الجديد عندما اعتقد أنه وصل للجنة الأرضية، يحتاج إلى الفشل لكي ينجح ويحقق ما لم يكن يتوقعه[80].

فقدره أن يكون مستوعباً بالضرورة، وأن يرسم شكل مستقبل الوضع القائم من خلال صرامة مطالبه.

وكما أن إدانة دولة أرباب العمل في سنوات السبعينيات قد سمحت للنجاح الليبرالي بعد عشر سنوات بإتقان عمليات الخصخصة[81] فإن دفاع التيارات الراديكالية الجديدة عن عديمي الأوراق المدنية وعن المشردين ساهم على الرغم من هذه التيارات في توطيد هذه الليبرالية التي يبغضها أولئك الراديكاليون[82].

ومن هنا كان الاندهاش من رؤية يسار اليسار يدافع بكل قواه عن مؤسسة الدولة التي كان يمقتها سابقاً، ويطالب بمزيد من تدخل السلطات العمومية، ويدافع في النهاية عما كان يسمى بالأمس الاقتصاد المختلط. فالوحش القاسي أصبح أخف الشرور بعد أن كان ينعت بالسافل (يتوزع بصفة أعم التيار المعادي للعولمة بين الحاجة إلى الأمن الاقتصادي ورفض السياسة الأمنية، كما هو متأرجح بين النزوع للحماية والمواقف الأممية).

فعندما كان أصحاب المذهب الاستمتاعي يهتفون "لنغنم

اللحظة الحالية" و"لنستمتع دون أي انقطاع ولنعش دون قيود" فإنهم بذا قد وفروا دون أن يعوا البراهين التي تتطلبها الدائرة التجارية في سعيها للتوسع في كل المجالات.

فالإرادة إرادة حرية، بينما كانت النتيجة إعلاناً ترويجياً. فما تم إطلاقه هو إقبالنا الجنوني على الشراء دون حدود وشهوتنا للتحكم دون قيود في كل ثرواتنا، أكثر مما تم إطلاق العنان لملذاتنا.

لقد توهمنا إنشاء فصيلة من الرجال والنساء الأحرار، الفخورين برغباتهم، وعممنا على كل الأجيال العمرية نمط المستهلك والزبون المتوج الذي يهتف: أريد وألزم. أما التحليل المتسم بالتهويل لمجتمع الصورة، ففضلاً عن كونه مشكوكاً فيه، فإنه قد أصبح أفضل ذريعة للقنوات التلفزية التي تستمتع بهذا الخطاب وتتوطد به.

وبصفة أكثر شمولية، إن الرأسمالية الجديدة تضطهدنا عبر الشعارات التي كانت وضعت من قبل لتحريرنا -كالاستقلالية والسيولة والحركية- وها هي تنقلب ضدنا بصفة قاسية. ومن هنا ذهول "الثوري" لقد كان يعتقد إنه حفار قبر البورجوازية؛ فإذا به يجد نفسه طليعتها.

فعندما تنتقل أفكار مآو وتروتسكي إلى لغة إدارة الأعمال الثملة بفكرة مسح الطاولة والقطيعة[83]، وفي حين تستثمر شركة

بويغس ومجموعة لاغارديير في صحيفة لومانتيه الشيوعية لانتشالها من الغرق، فذلك معناه أن التاريخ قد مكر على طريقته باليسار الثوري.

فالاقتصاد التضامني، والقطاع الثالث، واشتراكية السوق التعاضدي والمسير ذاتياً: كل تلك الاتجاهات هي في حقيقتها بدائل من داخل السوق، أكثر مما هي بديل شامل عنها.

أو بالأحرى، لقد أصبح البديل منذ الآن هو النقد ذاته، الذي هو في آن واحد صمام أمان، ووسيلة ملتوية لتبني قواعد اللعبة عبر تجديدها، فالنفي هو لحظة إيجاب. فلسنا نستجيب للرأسمالية إلا بعصيانها.

ويبدو أن كاستور يادريس كان يحب تكرير كلمة روزا لوكسمبورغ: "إذا كان الناس كلهم يعملون، لما بقي النظام الرأسمالي قائماً أربعاً وعشرين ساعة". تلك أسطورة قديمة تصف الشعب وكأنه قد حكمت عليه الدعاية الرسمية بجهل واقعه البائس.

إن الحقيقة ليست كذلك: فاقتصاد السوق صامد، لأنه يستفيد على الرغم من قساوته من دعم أغلبية السكان التي استبطنت ضغوطه.

فإذا كان الناس يرضونه كوضع قائم، فذلك لأنهم غير ناقمين عليه، كما هو حال بعض اتجاهات اليسار المتطرف التي لا هم لها سوى مصارعة هذا الشيطان.

فبالنسبة للناس العاديين ليست النقمة هي الأساس، بل إنهم يقبلون باقتصاد السوق بما يحمله من ضرر دون حماس أو حقد، وتختلف درجات القبول والرفض بحسب الثقافات والعصور.

فالفرنسيون تربطهم بهذه البنية الاقتصادية علاقات عاصفة، باعتبارهم شعب قديم يتشكل من الريفيين الكاثوليك، القريبين من الاشتراكية، والخاضعين لرعاية دولة كاملة القوة تأبى منحهم الجزء القليل من سلطتها.

ولكن عندما تغدو هذه البنية موضوع رفض، لا يكون ذلك في اتجاه قلبها كلياً بقدر ما هو في اتجاه تغيير محدود لا يطرح من حيث طابعه الجزئي أي مشكلة

وعندما تناهض بعض الدول النامية عن حق النظام الدولي، فليس هدفها هو تقويض هذا النظام، وإنما الولوج إليه بصفة أحسن. ومن الغلط اعتقاد أن الصراعات الاجتماعية ستخف بل ستزداد حدة؛ لأن الأجراء والمستخدمين لم تعد لديهم أوهام، ولا يريدون سوى الحصول على نصيب أفضل من الغنيمة. إنها مسألة كرامة، ولكنها أيضاً مسألة جني أموال بصفة أكثر أو أقل. فنحن بعيدون، بعيدون جداً من حلم الثورة الكونية، فالذين يغذون هذا الحلم قد أضاعوا الطريق.

ولذا يتوجب علينا أن نغير موضوع الحوار، ونكف عن تقويم العولمة، لمعرفة هل هي حسنة أو سيئة، فهو سؤال عديم الفائدة،

لأن البراهين تتكدس من كل ناحية مثل الأواني الوسخة في المغسلة دون أن تقنع أحداً[84].

إنما يتعين الخروج منه ليس الرأسمالية وإنما النزعة الاقتصادية، ولهذه النزعة وجوه جديدة، كوجه أتباع مذهب السوق ووجه أعدائه، فهم أخوة أعداء متضامون في المعبد نفسه.

الجزء الثاني

نزعة الخلاص التجاري الجديدة

الفصل السادس

الانتكاس المضاعف

"خلال خمسة عشر يوماً، اعتزلت في حجرتي محاطاً بالكتب التي كانت رائجة آنذاك (...) أعني الكتب التي تعالج كيف تكون الشعوب سعيدة، حكيمة وغنية في أربع عشرين ساعة، لقد استوعبت وبمعنى ابتلعت كل هذيان مقاولي السعادة العمومية أولئك، وهذيان هؤلاء الذين ينصحون جميع الفقراء بأن يتحولوا إلى عبيد، وأولئك الذين يقنعونهم بأنهم ملوك دون تيجان".

شارل بودلير

Le spleen de Paris

"إن السوق هي من الكمال بحيث لم تعد بحاجة إلى أن يكون البشر كاملين"

عبارة تنسب لجون ماينارد لينز (1838-1946)

إن انهيار جدار برلين أفضى على عكس كل التوقعات لعودة مضاعفة: عودة العداء الراديكالي للرأسمالية التي تزامنت مع عودة "الرأسمالية الطوبائية" (بيير روزنفالون) التي بدأت عشر سنوات من قبل. وكما رأينا آنفاً، فإن الرأسمالية في فرنسا وخارجها محملة بدلالة سلبية، وهو وضع يزداد غرابة إذا أدركنا أن الدولة في فرنسا لا تزال فاعلاً اقتصادياً مهماً. ومع ذلك فإن النظرية المستهجنة باسم الليبرالية لا تتلخص في الدفاع عن الملكية الخاصة وفي تجسيدها، وإنما لها تاريخ أكثر ثراء بكثير من الصور الشائعة التي تكاثرت شيئاً فشيئاً عن طريق المتحمسين.

المعجزة أو الروية:

يمكن القول بعبارة واحدة، إن اللبرالية انبثقت من الصراع ضد النظام الملكي المستبد وضد التعصب، في اللحظة التي بدأ فيها الإنسان يعوض شيئاً فشيئاً دور الكنيسة، كما يعوض التقاليد من حيث هي أساس القانون، وذلك ما جرى في آخر العهد السابق لقيام الثورة الفرنسية عام 1789.

فالرأسمالية من حيث كونها تقوم على النزعة الفردية الراديكالية لا يمكن أن تفصل عن سياق التفكير في حدود السلطة والسيادة الشعبية، وفي العدالة والقانون بصفتهما أداتان لضمان التعايش السلمي بين الإرادات الحرة.

فعلى هذه الأرضية الفلسفية البالغة الخصوبة حيث برزت

أسماء هوبز ولوك ومونتسكيو وكانط ودتكوفيل، انبثق سؤال جديد وخارق هو سؤال السوق، ذلك "الشيء المعرض للفناء"، الذي يفترض منه أن يمنح حسناته للذين يشجعون نموه.

فإذا كان بعضهم يعترفون له بخصال بدهية بشرط أن يقترن بمؤسسات وحياة عمومية ملائمة، فإن بعضهم الآخر حاول أن يضع له تمثالا عاليا، بمنحه فضائل شبه سحرية: باعتباره ملائماً لكل الأعراق والمذاهب، يناسب المسلم والكونفوشيوسي، مثلما يلائم اتباع لوثر، يحيط بكل اللغات والعقائد، ويفرض على الجميع رغبات ومسلكيات مشتركة[85].

ففي حين يبدي أصحاب الموقف الأول قلقهم من ميل المحدثين إلى إهمال الحقل السياسي للتفرغ الكامل لـ "الملذات الفردية" (بنجامين كوستانت)، يكل أصحاب الموقف الثاني دوراً عظيماً للتجارة يتمثل في التوفيق بين المنفعة والأخلاق والعدالة؛ لأن التجارة تهذب الطباع حسب منتسكيو، وترغم البشر على الائتلاف في قالب مجتمع وعلى الارتباط بعلاقات سلمية يطغى فيها الكسب والربح على الشرف والخرافات.

وسيكمل مفهوم "اليد الخفية" (آدام سميث) المسار جاعلاً من التبادل التجاري المبدأ المنظم للمجتمع المثالي: كما عبرت عنه "خرافة النحل" لمانديل (1714) حيث تسهم العيوب الفردية في تحقيق المصلحة الجماعية مضيفة أبعاد الإيثار والتضامن على أفعال شديدة الجشع.

وهكذا كتب المدعو الدكتور جونسن في القرن 18 "لا تكاد توجد طريقة لقضاء أيام الحياة أكثر براءة من إمضائها في جني المال[86].

ويعبر آدم سميث أفضل تعبير عن هذه الفلسفة في مقطع شهير يقول فيه: "إن الإنسان بحاجة شبه دائمة إلى مساعدة نظرائه من البشر، ومن غير المجدي انتظار هذه المساعدة بالحسنى دون مقابل".

فمن المرجح أكثر أن ينجح إن هو راعى مصلحتهم الشخصية، وإن هو أقنعهم أن مكسبهم الخاص يقتضي منهم أن يفعلوا ما يطلبه منهم. ذلك ما يصنعه من يقترح على آخر صفقة ما. إن دلالة مقترحه هي: أعطني ما أنا بحاجة إليه وستحصل مني على ما تحتاجه أنت، فالجانب الأكبر من المساعي الحميدة الضرورية لنا يقتنى بهذه الطريقة.

فلا يمكننا الاتكال على كرم وعطف الجزار والخباز في إعداد مائدة عشائنا، وإنما نعتمد على حرصهم على مصالحهم. إننا لا نتوجه إلى إنسانيتهم وإنما إلى أنانيتهم، ولا نخاطبهم بخصوص حاجياتنا وإنما نتحدث لهم دوماً عن مكاسبهم"[87].

أضف إلى ذلك أن هذه النظرية ذات الأصل المسيحي دون شك - اعتبار الإنسان المستقيم مجرد مذنب تائب والقول بتحول

الشر إلى خير- تشكل كذلك اعترافاً بالذل والتواضع؛ لأنها نوع من "الشفافية المؤجلة"، التي ترجئ لمرحلة لاحقة الحصيلة الجلية لما تتسم به الأفعال الإنسانية من غموض ضروري.

فمن هباء الأفعال الفردية، يتعين أن يخرج وضع شفاف يكون في صالح الناس كلهم، لا شيء يقيده خصوصاً إذا تعلق الأمر بتدخل الدولة.

فإذا كان لا بد للاقتصاد من التحرر في مرحلة أولى من الأخلاق والسياسة؛ فذلك لكي يحسن تعويضهما من بعد، ولكي يمنح نفسه مسؤولية كاملة غير مقيدة هي التحول تدريجياً إلى منافس للدين.

فالاقتصاد لا يكتفي بمضاعفة الثروات ولكنه يحتوي أيضاً الأهواء الإنسانية ويحولها إلى ثقافة، في حين لا ينجح الإيمان الديني بكل ألويته إلا في زيادتها هيجاناً وحدة. إنه يصبح مدونة سلوك جديدة تقوم بدور الوقاية من انهيار المجتمع" (ألبرت هيرتشمان)، في الوقت الذي تتعرض أوروبا للتمزق من جراء العديد من الحروب الداخلية والخارجية.

وها هو الاقتصاد قد تحول إلى نظرية خلاص مقدس، إلى "مسار دون ذات"، مسار يتشكل على الرغم من صانعيه، ولكن لصالحهم حتى ولو كان أحياناً يسحق بعضهم.

فتاريخ البشر -كما يرى هيغل- هو تاريخ أخطائهم التي

تصبح حقائق: فمن معمعة الممارسات الإنسانية يخرج دوماً الأفضل.

فثمة لطف خفي ملازم لنا في أقسى آلامنا. فهذا الوضع الذي ينشئه كل واحد منا، يؤدي وظيفتين هما: توزيع الحاجات ونشر المعلومة (حايك) وهما وظيفتان تسمحان من بعد بترقية السلم وتنمية الموارد.

حلم دون مأساة:

سرعان ما انتقلت اللبرالية إلى اتجاهين أساسيين.: اتجاه يختزل الدولة في وظيفة الحارس ويعتبر الدولة شراً مؤقتاً، واتجاه ثان يدافع عن الحقوق المدنية والاجتماعية بصفتها مبدأ للتقدم، ويرى في السياسة الحلبة التي لا غنى عنها لضبط الصراعات والانخراط في مسار يظل مفتوحاً وغير مكتمل.

ولقد ظهر مجدداً الاتجاه الأول في نهاية السبعينيات - في مرحلة بدا من البدهي أن الشيوعية دخلت في مرحلة الاحتضار- وأراد أن يجعل من الرأسمالية آخر سرديات الحداثة.

في تلك اللحظة كانت الرأسمالية تزهو بانتصارها الساطع على سبعين سنة من التخطيطية الاستبدادية التي رمز لها أوضح رمز لجوء الرئيس غورباتشوف إلى ميلتون فريدمان طالباً منه النصيحة[88]. أو تحويل مقر الحزب الشيوعي البولوني إلى بورصة أسهم. وكأن القداس قد أقيم والحقيقة انكشفت ولم يبق سوى

التقـيـد بهـا. وهكذا انبـثـقت الظـاهرة التي أطلقت عليـهـا عـبـارة سـجـاليـة هي اللبـراليـة الجـديدة، وليس للعـبـارة من الجـدة سـوى الاسم[89].

فمـا بدأ في كاليـفـورنيـا مع رونـالد ريغـان و "ثورته المحـافظة" المتـمحـورة حول خفض الضـرائب والحـد من تدخل الإدارة هو تعليق "الرجـعـة الكبـرى" (كـارل بـولانيي) التي أنهت بعـد أزمـة 1929 حلم السوق المسير ذاتياً بصفة العلاج الكامل لمشكلات البشرية[90].

فـبـعـد مظاهر العـربدة الاسـتـبـدادية التي برزت في القـرن الماضي، جاءت الثورة المالية المدعومة بالتقنيات الجديدة، وبعد تيه وضيـاع دولة الرفاهية، ها قـد أطل جود وكـرم سوق الرفاهيـة. وبعد هيمنة الموظف السـامي قصيـر النظر والنقـابي المشـاكس، أتى ذكـاء مـلائكة الأعـمـال (هؤلاء الأوصيـاء الاسـتـراتيـجـيون الذين يحـتـضنون مؤسسي الشركات الحديثة).

فـسـيـاسـة الصـفـقـة الجـديدة التي أرسـاها روزفلت أنقـذت أمـريكا التي تأثـرت تـأثـراً بالغـاً بـالأزمـة، وسـمحـت بدفـع الاقـتـصـاد الذي كان في أوج الانهيار.

وفي الحـقيـقـة، يرى العـديد من الكتـاب أن سبب كـارثة 1929 كـان المبـالغـة في الحـمـاية، وتدخل السلطة العـمـوميـة في المجـال التنافسي.

ذلك هو رأي بعض اللبـراليـين الجـدد وكـذا بعض الماركسـيين،

وعندما تبين لهم نقاط الضعف العملية في هذه الفلسفة - التي تستحق مع ذلك الاحترام الحقيقي - يشرحون لك أن سبب هذه الثغرات هو التطبيق الناقص لتلك الفلسفة؛ لأن جميع الأطراف من دولة ومحافظين وقوى رجعية حرفوا الرسالة الأصلية.

فما تبلور تحت هذا الاسم لا علاقة له ببهاء وحقيقة ذلك المذهب، بالضبط كما كان ينظر بعض المتمسكين حرفياً بالماركسية إلى الاتحاد السوفياتي بأنه يجسد عظمة المثال الشيوعي[91].

باختصار إن اللبرالية بهذا المعنى لم تطبق بكاملها في أي مكان، وغيابها هو سبب المآسي التي تعاني منها فرنسا وأوروبا.

وهكذا يكون قلب المعنى بطريقة مضاعفة: عندما يخلط بعضهم بين اللبرالية والرأسمالية، يرد بعضهم الآخر اللبرالية إلى شكل من مدح التبادل التجاري المولد للثروة و "الإرادة الطيبة" (جورج بوش)[92].

فلا يزال بعضهم نافراً حتى اليوم من الخروج من الدائرة التي وضعته فيها مواجهة البولشوفية: أي الأرضية الاقتصادية، فهم يتامى هذا العدو الكبير، ويرون في الصراع ضد الاشتراكية الديمقراطية والدولة امتداداً للحرب المعلنة سابقاً ضد حلف وارسو. ومن هنا يعتبر هؤلاء الضريبة على الدخل أمراً عتيقاً مهجوراً. والأجرة عادة قديمة، والنقابة مسلكاً بدائياً، كما يعتقدون أن فكرة الضمان الاجتماعي والمرافق العمومية هي في ذاتها شأن يثير السخرية.

وبالنسبة لأكثر هؤلاء حماسة، يكفي أن نضيف لكل مشكل عبارة "سوق" لكي تنفتح الأبواب أجمعها: فندعو لـ "إيكولوجيا السوق " وخصخصة البحار والجبال والغابات، بل وما المانع أيضاً من خصخصة الفضاء، وسيذهب بعضهم إلى امتلاك القمر والمريخ وزحل، وسيتم الإسراع في تسجيل اختراعات الكائن الحي والخلية والجسم والدم والحيوان المنوي وصولاً لعلاجات أنواع الطب التقليدي[93].

كما ترد الأمم العريقة إلى تجمعات من شركاء المال؛ ذلك لأن الرأسمالية بكل بساطة لا تقهر، وعليها أن تكمل مسارها "لأنها في العمق مطابقة للنظام الطبيعي الذي يؤهل الإنسان أن يجد لنفسه تدريجياً موقعاً في قلب الخلق وفي قلب المجتمع"[94]، كما كتب في فرنسا جاك غارلو.

وفي الاتجاه نفسه يقول باسكال سالين: "يدور في خلدي أن الناس ليسوا مناهضين في الأساس للأطروحات اللبرالية، بل إني أعتقد أن أغلب مواطنينا هم على العكس لبراليون بصفة عفوية، لأن مثل ذلك الاتجاه ملائم للطبيعة الإنسانية"[95].

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تجد الرأسمالية كل هذه المشقة في فرض نفسها؛ ولماذا هي مشوهة ومذمومة إلى هذا الحد ؟

لقد نسينا هنا إنذار ريمون آرون: "إذا كان قد قيل من قبل إن السوق مطابقا للطبيعة، واعتبر نتيجة للقوانين التي توصف بأنها

طبيعية، فإن ذلك الاعتقاد لم يكن إلا رأياً طارئاً محدوداً في تاريخ الأفكار (...) ارتبط بحقبة معينة، لا شك أنه رأي في طور الشيخوخة (...). فاللبرالية غالبا ما تنكرت في شكل قانون طبيعي في حين أنها لا تزدهر إلا بفضل فكرة الفن السياسي والفن الأسمى"[96].

فلا يوجد داخل هذا الفكر "اللبرالي الجديد" إذن مكان للشك ولا الورطة، ولا يوجد صراع على حافة الهاوية؛ لأن هذا الفكر يمتلك حلاً لكل قصور بشري.

فهذا الفكر يقوم على العلم، وباعتباره متسلحاً بقوة ذلك العلم، لا يمكن أن يتعرض لأبسط بلبلة (يكفي للتأكد من ذلك أن نقرأ الإنجيل الإعلامي المعبر عن هذا الاتجاه الذي هو الأسبوعية البريطانية الممتازة الإيكونوميست) فالالتزام لصالح السوق لا يمكن إلا أن يكون كاملاً: إنه نسق يستوعب أحسن استيعاب حريتنا ورغبتنا، ويمنحنا زيادة على ذلك العدل الرخاء بشرط أن نخلص له كامل الإخلاص.

إنه كون محض، ومسلك خارق يحول دون هموم العالم، لأن "الحكم" الرشيد (حسب العبارة الفظيعة التي ابتكرها الأنغلوساكسونيون) يمكن أن يجمع بين العدالة والنجاعة، ويحقق كل المطامح.

يتعلق الأمر بحلم دون مأساة، يختزل الأمم في ركام من

الأفـراد، ويخـتـزل الشـخـصيـة الإنسـانيـة في نمـط من "روبنسـون" الحديث، يتسم بأنه عقلاني دائماً، وواعي بمصالحه، ومحكوم عليه دوماً بأن يسـتغل إلـى أقصـى حد إمكاناته وأن يبني "سـعـادته"[97]. ومن هنا تبـرز الصـعوبة التي تلاقيها اللبـرالية في تصـور المجتمع، الذي لا يمكـن أن تنظر إليـه إلا في شكـل مـجـمـوعـة من الفـاعلين الاقتـصـاديين، وهو نوع من نفـي البـعد الاجـتمـاعي نجده حـتى في تصور راولز للعدالة، الذي هو تصور بارد ومجرد[98].

المواساة الكبرى:

عـصـمـة كـاملة: لا يمكن للرأسـمـاليـة أن تخطئ، فـالعـوائق الوحـيـدة القـائمـة يمكن أن تأتي فـقط من الخـارج، من الحكومـات والمثقفين المتخلفين، ومن رؤساء الوظيفة العمومية الصغار.

نلمس هنا عقيدة الخلاص المبتذلة في الديانة الاقتصادية، التي تضيف بهدوء إلى موضوعات التاريخ التي كانت تعتبر جيدة مثل الروح الهيغيلية والبروليتاريا الماركسية والعالم الثالث والأقليات موضـوعـاً خـاصـاً بهـا هو سـوق الخـلاص. وفي الأمـر مع ذلك سـوء فـهم غـريب؛ لأن مـفـكـري اللبـراليـة الأصليين اعـتـبـروا السـوق ثمـرة لهشاشة أفعالنا، بدلاً من آن يكون ضامناً ما يشبه عصمتنا.

وهكذا نقـر لـه بما ننكره على الأفـراد من مـعـرفـة وحكمـة، في حين تتمـثل عـبـقـريتـه في اسـتيـعـاب مظاهـر الضـعـف الإنسـاني (كـان ليـوشـتـراوس يقـول إن المحـدثـين بنوا في الأسـفـل لكنهم بنوا مـا هـو صلب).

وتلك مصادرة على المطلوب، فالحزم يكمن في الحذر من الاتجاهين، وفي وضع ضوابط لهما.

لقد تحول السوق من نظرية الإعلام لدى حايك حيث الفاعلون يتحركون في جهل تام فيعمدون إلى ربط طلبات بعضهم بطلبات بعض إلى نظرية الإثبات حيث أصبح مثل الإرادة المشتركة لدى روسو على صواب دوماً، ولا يمكن أن يكون معارضه على حق، وهكذا غدا نمطاً من المحكمة العليا التي لا طعن في أحكامها حتى ولو بدت لنا هذه الأحكام ظالمة وقاسية. فثمة كوسموس تجاري قريب إلى حد ما من الكوسموس الرواقي الذي يجمع بين احترام النظام القائم وحرية الاختيار.

يبذل الناس كامل جهدهم لاختيار ما سيحدث بالفعل، وعندئذ يصبح صفاء البصيرة متمثلاً في هذا الحرص على اعتماد مجرى الأمور!

فإذا كان العالم يجرح الشعور، فخيارنا محصور بين تغير العالم أو ضبط الشعور على إيقاعه!

فعندما أكد جورج سوروس في مرحلته التأملية "إن الأسواق تصوت كل يوم وتعاقب الدول المتعجرفة" فإنه كان بذاك القول يعزو للأسواق نمطاً من الكشف الخارق، ويدعي لها معرفة السر الدفين. يتعلق الأمر بتصادم فريد بين الإرادة والقدر يذكر مع فارق السياق بعبارة ابكتيت: "لا تحرص على أن يكون ما سيحدث هو ما أردت أن

يحدث، ولكن احرص على أن تجري الأمور كما تجري وستصبح سعيدا".

غموض مثير يسم هذا الفكر الذي يعرف الواقع بأنه ما هو عقلي كما كان يقول هيغل(99).

فعندما أقر جان ماري مسياي رئيس مجموعة فيفندي الكونية في صراحة رائعة بأن راتبه -قبل الضريبة- يتأرجح بين 1 إلى 3.5 مليون يورو(100)، بادر بالتساؤل هل يستحق هذا الدخل وترك الجواب للمساهمين.

فالمال الذي أنيط به دور مكافأة الخطر والنتائج هو هنا محكمة القيمة الشخصية. ومن ثم يزداد إغراء تحويل الصدفة إلى حكم قضائي وتحويل الحظ الذي نتعرض له إلى علامة اصطفاء.

فالواقع لا ينحصر في طابعه البدهي المباشر، إنه أيضاً تقديس أو إدانة. ومن هنا لا تفصلنا سوى خطوة واحدة عن استنتاج أن السوق عدالة، وأن التكافؤ للثروات ثمرة قدر إلهي.

ومن ثم كان التواطؤ المتواتر في أيامنا بين "اللبرالية المتطرفة" والنزعة المحافظة: يمكن من هذا المنظور تبرير أصناف اللامساواة وتفسير الاختلالات المالية والتقنية بالإحالة إلى مشجب الدولة القاسية، والأعراف الصارمة، في انسجام مع قشرة رحمة لدى بعضهم مثل بجورج بوش، أي بنوع من التعامل مع الكنائس و"جيوش الإيمان" ومساعدة الأكثر فقراً (في حين يرى

اليسار وبعض الاتجاهات المؤمنة بالتدخل التوجيهي من عناصر اليمين الأوروبي أن وضع الحواجز الرأسمالية على الاقتصاد ضروري لحماية المعوزين ولتقدم تشكيلات اليمين) لقد نزعت إذن القداسة عن كل شيء، عن العادات والأعراف والمعتقدات، باستثناء الرأسمالية ذاتها الذي نجت من التشكك القائم إزاء المنظومات التأويلية الكبرى للعالم.

إنه انتصار العقيدة الاقتصادية، أي رفع فن مخصوص إلى مستوى العلم الكامل، أم العلوم كلها، الطامح كما هو الحال لدى ماركس إلى ضبط الشأن الاجتماعي والسياسي والحميمي، إعادة بناء الكون أجمعه انطلاقاً من مسلماته.

إننا ندخل إذن حسب عبارة غاري بيكر الأمريكي الحائز على جائزة نوبل في الجيل الثالث من العلم الاقتصادي الذي "يمتد إلى مجموع الممارسات الإنسانية والقرارات التي ترتبط بها"[101]، بيد أنه إذا كان الاقتصاد مرتبطاً بكل شؤون الحياة، فهل سنستنتج من ذلك أنه هو المفتاح الأساسي للحياة؟[102].

وإذا كان الاقتصاد هو "التاريخ الكلي للبشر بحسب منظور معين" (فرانند بروديل)، إلا أنه ليس من المطلوب أبداً من وجهة النظر أن تتحول إلى منظور شامل. فبعض اللبراليين الجدد يعتمدون في ملتهم الراديكالية عيوب الشيوعية، فيشتركون معها في إرادة الخلق لإعادة تأسيس التاريخ انطلاقاً من نمط الإنتاج،

ويعيشون المأساة الفكرية نفسها المتمثلة في التشبث بتصور يرونه يقينيا لا يقبل الخطأ، ولا يسمح بنقص، يرسلون صواعقهم على كل من تسول له نفسه الاعتراض عليه.

وقد يتحول الليبراليون الجدد بفعل الغلو في هذا المسلك إلى أعداء للتقليد الليبرالي الذين ينتسبون له، ويصبحون خلفاً عاقاً لسلفهم المؤسس.

وحتى لو كان لا يزال لهؤلاء الليبراليين بقية حظوة لدى بعض الحكومات - على الأقل في البلدان الانغلوساكسونية لأن نفوذهم في فرنسا كان دائماً محدوداً - فإنهم يفقدون اليوم تأثيرهم؛ لما يسم مسلكهم من تبسيط وغرور، واقتطاع لأي بعد سياسي ورمزي في المجتمعات البشرية.

ومع ذلك فإنهم يحتفظون حتى في هزيمتهم بقوة نقدية منعشة من المؤسف أن تزاح بحركة يد.

الفقر، الغنى الزهد:

إن الأغنياء ليسوا مجرد فقراء نجحوا. فثروتهم تغيرهم نوعياً، تدفعهم نحو إنسانية أخرى لها طبائعها وأقوامها ولغتها. إنها نمط عيش، وطريقة لإضفاء النبل واللطف على المال.

فالتحول إلى الغنى أمر يدرك بالتعلم ويقتضي من المثابرة ما تقتضيه الرياضيات والموسيقى: فلا يكفي أن يحصل المرء على

الكثير، وإنما يتوجب عليه إن يصبح إنساناً آخر. فقد يحتاج أحياناً إلى أجيال كاملة للاندماج في "علية القوم"، ومعرفة أسمائها وعائلاتها، في حين أن القليل من السنين تكفيه لكي يقذف به في العسر.

ففي داخل الغنى ذاته، توجد تراتبات وطبقات، تفصل بين كبار الأثرياء وعامة الأغنياء العاديين. وذلك ما يفسر كون الأغنياء ينهمكون وراء جدران نواديهم العالية وخلف قصورهم بالدفاع عن مكانتهم أكثر مما يهمهم الاستمتاع بأموالهم.

فالمال يمنحهم الضمان الذاتي بالخلاص كما يقول الكالفينيون. فسواء جلبوا التعاطف أو النقمة، فإنهم يحرصون على العراقة باتخاذ عمود نسب ينتمون إليه، من أجل بيان أن وضعهم ليس ثمرة مجهود قاس -فالمال يأنف من رائحة العرق- ولا نتيجة حظ سعيد، وإنما حصيلة ارتقاء أرستقراطي أصيل.

وفي المقابل ثمة شيء محزن في توارث الفقراء لفقرهم دون انقطاع. فالسقوط في قاع الإملاق هو انقياد لسطوة الأشياء، وعجز عن ترميمها، واحتساب الفلس بعد الفلس. إنه الجمع بين المذلة والانشغال. "الفقير مرغم على إخفاء بعض ألمه. والغني يظهر ألمه كاملا" (بودلير).

ينضاف إلى ذلك ما هو أكثر إذلالاً، أي الطابع الاستمراري للفاقة: فإذا كان فقير الأمس هو البروليتاري ومعذب الأرض

الساعي لافتكاك شرف الانتماء للنوع الإنساني، فهو اليوم البقية الباقية التي تمنعت على كل موجات الرفاهية.

إن مثل هذا العناد للبقاء في الفقر المدقع يصدر عن روح خبيثة!

يتعلق الأمر بالبليد الذي يقبع في العوز التام، بالرغم من أصناف التقدم، إنه فضلة مزعجة، نفاية تتدافعها سنة بعد سنة الخطط الاجتماعية أو المؤسسات الكبرى، وهي تقسم أنها ستقضي عليها.

وهكذا تقترن المسألة الاجتماعية بمسألة معالجة النفايات، وهو مشكل يتعلق بالبيئة وتسيير الفضلات البشرية والمادية. Poverty sucks كما كان يقال في أمريكا في عهد ريغان: بمعنى أن الفقر يخاف. إن له هذه الخاصية المؤسفة: إنه يواجهنا مباشرة بإخفاق تفاؤلنا، يجرنا إلى الخلف، يذكرنا بأن البشر ليسوا بكاملهم متساوين في الدعوة لملذات الحياة ولن يكونوا كذلك أبداً على الأرجح.

فهل من الممكن أن نتصور بساطة العيش إلا في شكل انبعاث الزهد المسيحي أو شكل الحمية الغذائية التي يتبعها متخمون متلهفون لاستعادة البساطة المطلقة؟

فالعلم يملكه من يستنكف عنه كما يقول الفرنسيسكانيون: ففي القحط يكمن الرخاء، وفي الفراغ يكمن الامتلاء الحقيقي.

فمن لا يأخذ ولا يمسك أبداً يملك الثروات الأساسية، لأنه ليس في حاجة للحصول عليها للاستمتاع بها. فهذا العزوف هو الوجه المقابل للجشع، يسمح بالخروج عن تصلب الجشع في عدم الامتناع عن أي شيء. وربما كان يتعين انتزاع بساطة العيش من فكرة التقشف القاتمة: فهي ليست بالحرمان ولكنها إضافة وانفتاح على أبعاد أخرى من الوجود.

كما يتعين عدم السقوط في الانهماك وفي الضغوط العقيمة، ويتوجب الانفكاك من التفاهات المثمنة اجتماعياً، ونقل الحدود الفاصلة بين الضروري والكمالي، ووضع البذخ حيث لا يرى أكثر الناس سوى السخافة ووضع الفقر حيث يتغنى أكثر الناس بالرفاهية.

باختصار يتعلق الأمر بالحد من الإنفاق ليس لحرمان النفس ولكن لمضاعفة لذات أخرى لا يتفق الناس حولها. ودون ذلك تظل بساطة العيش ملحقاً إيكولوجيا بالفقر الديني، أي الصيغة الحديثة للخبز الأسود وإبريق الماء، وشكلاً كاريكاتوريا للحياة الجديدة على طريقة هنري ديفيد ثورو الروسوي الأمريكي المناصر للحياة في الغابات. ومهما كان هذا الخيار عائماً، ومشبعاً بالابتذال والتفاخر، فإنه لا يمنع أن الحرية متاحة لكل أحد في أن يقرر في ضميره الداخلي أي أحابيل اجتماعية سيحتفظ بها، وأي أشكال استمتاع زائف هو مستعد للتخلص منها.

فإذا كان قلق زمننا هو قلق الانتقال (من حال إلى حال)، فذلك يعني أن التغير الذي يحصل يحمل معه ثروات جديدة ليست لنا فكرة حولها. وهذه الثروات لن تلغي الثروات الحاضرة، وإنما ستزيحها إلى مواقع أخرى، فالقادم الآتي يمكن تماماً أن يحول ما نراه اليوم براقاً ولامعاً إلى بضاعة رخيصة.

حيل العقل الجديدة:

إن النزعة المعادية للعولمة بمهاجمتها القيم اللبرالية في الوقت الذي تجتر أغلاط اليوتوبيا الرأسمالية تكرر خطأ الاشتراكية الأصلي بكونها شاركت البورجوازية العقيدة الإنتاجية نفسها، ولذا فهي توسع سلطة الإيديولوجيا الصناعية من حيث تتوهم تدميرها. وذلك ما يفسر كونها توحي لنا بأن الأسواق الموضوعة في خدمة المجموعات البشرية ستفضي إلى عالم دون ضيق ولا عنف. وحين يقضي على سبب كل أشكال البؤس، يبقى المآل الأوحد هو جنات عدن.

فنشطاؤنا يتوزعون بين الرغبة في إضفاء الخلق القويم على السوق والميل لإضفاء سمة روحانية عليه وضخ دم وهم جديد فيه، مثل مقولة: "اقتصاد السعادة" التي يستخدمها بورديو[103] وهي فكرة بالية منفعية تتجشأ دون نقد.

يبدو إذن أننا نشهد انبعاث ديكور القرن التاسع عشر، حيث تتصادم أشباح الماضي المنحسر في مسرح الظل المذكور، وكأنه السيناريو القديم الأزلي حيث تتصارع الأحافير قبل أن تمتزج.

ويجب أن لا ننخدع بهذه العودة: فالأفكار نفسها ترجع ولكن في موقع مغاير ولتأدية دور آخر.

إنه لتناوب دوري مضاعف وأخاذ: فعندما يندد "دعاة البديل" الجدد بالسوق يحمونه عندئذ من متاهته ويطمئنونه على الرغم منهم: ففي حين ينتقد الليبراليون الجدد الدولة المتضخمة فإنهم يسعون بذلك لإصلاحها وتقويتها لأجل إعادة تحديد مسؤولياتها وحدودها بصفة أكثر رصانة.

وفي هذه الحالة بعينها، نرى أن التساؤل حول أهمية مؤسسة الدولة، الذي كان واسع الانتشار في نهاية القرن المنصرم، لم يمنع نمو وازدهار السلطة العمومية، حتى في العالم الأنغلوساكسوني.

وفي ذلك تكمن مفارقة ريغان بكاملها: فلقد شكل الفتيل المشتعل الذي يدعو لحفظ الضريبة ويزمجر ضد "الحكومة الضخمة" Big governement، كما نلمس لدى مارغريت تاتشر في بريطانيا، ديانة حقيقية للجهاز التنفيذي، ونمطاً من طقس تعظيمنا لشخص هذا الجهاز ووظيفته.

لقد بلغ حداً بعيداً من إنعاش أمريكا (ولو بثمن باهظ قوامه مضاعفة الفوارق الاجتماعية وقيام عجز هائل كان يوازي من قبل

ضريبة واحدة مؤجلة). بحيث إنه أساء إلى فكرة المركزية التي يقوم عليها عملياً: أي عدم تدخل الحكومة.

لن نناقش هنا العلاقات المعقدة بين اللبرالية والدولة[104] ولنشر مع ذلك إلى أن الدولة لم تتقلص في أي من هذه البلدان التي اتبعت مبادئ "الثورة المحافظة"، بل الأمر على عكس ذلك. ففي بريطانيا كما هو الحال في الولايات المتحدة لم تكن الحصيلة سيئة في المستوى الصحي، كما أنها أكثر جودة بخصوص تعويضات البطالة[105].

إن ازدواجية المواطن، تصدر بالكامل عن كونه يرغب في آن واحد في أن يحتمي من الدولة ويحتمي بها.

فمن جهة يرفض عن صواب تدخل الدولة في الاقتصاد والقيود البيروقراطية التي تقوض المبادرة، ويطالب من حيث هو دافع للضريبة بحق المتابعة لمراقبة النفقات والسياسة الضريبية (جاك جينريه).

إنه على حق خاصة في فرنسا في نقمته على بعض امتيازات الوظيفة العمومية ومن زبائنية الطبقات أو من الإضرابات الباافلوفية داخل قطاعات النقل الأساسية مثل SNCF وشركة الخطوط الفرنسية[106].

ولكنه من جهة أخرى، ينظر إلى الدولة بصفتها "عامل تقليص لريب الحياة" (بيار روزنفالون)، تضمن له الأمن والسلم المدني؛ لأن "الفردانية قد سارت بخطى الدولنة نفسها" (دوركايم)[107].

فهو يطالب بالمزيد من السلطة العمومية لتحرره من الحاجة والخطر، ولتأمين استمرارية الأمة وتوطيد لحمة المجتمع، وكذلك من أجل احتضانه وعدم التفريط فيه أبدا.

وذلك ما نراه في فترة الأزمة: عندما يمر قطاع ما بصعوبة مثل قطاع الطيران أو البنوك أو الزراعة أو التأمين، فيبادر آنذاك إلى طلب منة الدولة، خصوصاً إذا كان حجمها من شأنه تهديد التوازنات الأساسية.

وقد كان من المثير بعد أحداث 11 سبتمبر أن نرى في أوروبا وكذا في الولايات المتحدة غالبية المقاولين يستنجدون بالسلطة العمومية التي يستهزئون بها من جهة أخرى. فلا يعبأ عندئذ بالأصول، بل تستخرج القروض والإعانات بسرعة، ويبادر حسب العبارة المشهورة إلى"خصخصة المكاسب وإشراك الجميع في الخسائر".

إنه المسلك الذي يمكن أن نلخصه في هذا الشعار "دعونا بسلام، اهتموا بنا".

فنحن نتأرجح دوماً بين الإفراط في حضور الدولة والتفريط في حضورها -حتى ولو كان إصلاح الدولة في فرنسا تأخر القيام به - ذلك أنها لا تنفك تزعزع التقاليد وترعب الطبقة السياسية يميناً ويساراً، وفي المآسي الكبرى نطلب منها الانكباب شخصياً على مصيرنا.

فليست إذن ثمة علاقة طبيعية بالدولة، كما لا توجد هناك علاقة طبيعية بالسوق: إنها هدف لكثير من المطالب المتناقضة، إلى حد أننا نريدها دوماً محدودة وكاملة الحضور، متواضعة وناجعة، رحيمة وقاسية.

فنحن مدينون للنقد اللبرالي بالوعي بضرورة التفكير في دور الدولة بصفتها سلطة منظمة وحافظة وحامية وليست فقط مالكة أو فاعلة اقتصادياً (حتى ولو كانت تتم إعادة تأميم سكك الحديد في بريطانيا دون التصريح بذلك كما لا تزال الدولة تؤدي دور ضامن الأعمال الكبرى)[108]. فبفضل النقد اللبرالي أصبحت المؤسسة مرغمة على تقديم التبريرات، وعلى مواجهة قصورها وتبذيرها الفاحش، ولم يعد بإمكانها الاختباء خلف غطاء حق الملك.

إنها حقاً ورشة هائلة، لا نرى منها إلا جوانبها.

وهكذا يتراءى أمام الدولة مستقبل جديد؛ لأن انحسارها يظل أسطورة[109]. إنها تنزع على الأقل إلى أن تصبح شيئاً فشيئاً شأن الجميع وليس مجرد وصاية بلا مضمون ولا حيوية.

إنها تتجاوزنا بقدر ما نراقبها، وقد غدت حدودها وكذا صلاحياتها موضوع مفاوضات دائمة.

وفي كل الأحوال، من المؤكد أن دولة الرفاهية تظل غير قابلة للتجاوز مهما كانت التغيرات التي سنخضع لها؛ لأن التاريخ أثبت

أنهـا فـعـالة (بارنار مـانين) وليـست عـدم مـلائمـة للمكاسب الاقتصادية، حتى ولو كان الإجماع قائماً اليوم على رفض الإعانة كنمط حياة، بقي أن نعرف هل سيكتفي أعداء العولمة بتأدية الدور البسيط المتمثل في تصويب المجال التداولي أو سيتطورون نحو مطامح أخرى: إن لم يتلاشوا بالتمام والكمال. وكما أن انتفاضة مايو 1968 لم تتحدث بلغة البلشفية الراديكالية إلا لكي تضع حداً للأنا الأعلى الشيوعي الذي كان ينوء بثقله على اليسار، فإنه من الممكن أن تكون النزعة النضالية الحالية إعلاناً لموت الهاجس الإنتاجي بصفته مرجعة عليا. بيد أنها ما زالت لم تسلك في الحاضر هذا الطريق، ولا زال ينقصها البعد الروحي نقصاً حاداً.

الفصل السابع

قران الفرد والسوق

"منذ اليوم، إن تسمية ما لديك ماركة مثلك مثل نايك، وكوكاكولا، وبيبسي وبودي تشوب (...) يجعل مهمتك الأولى تتمثل في أن تكون أفضل بائع للتسمية، أي لنفسك".

توم، استشاري تسويق ذكره روبير رايتش

في :Futur parfait

سعادة للأزل وثمنها في السوق "جون روسكين"

L'Economie Politique de l'Art (1857)

يمكن قطعا أن نتخيل انقلاب الوضع القائم، بحيث تكون قيم الفردية والوفرة قيمنا المحورية، كما يمكن أن نتخيل انبثاق ميزة غير مسبوقة خلال القرن الآتي في شكل أفق معتقد جديد.

فللخروج من الرأسمالية، يتعين إخضاع الإنسان للمجموعة. وإخضاع السوق لنظام ديني، سياسي وأهلي. يمكن أن نحلم بإلغاء المال القذر والملكية الفردية كما حدث في كمبوديا وألبانيا وكوبا، ولكن مع احتساب خطر إخضاع البشر للدولة إخضاعاً صارماً وافتقار الناس الذي يظل مشكلاً قائماً. إن أي انقلاب من هذا النوع سيكون أقرب إلى الانحطاط في الوقت الذي تتجه فيه الدول الفقيرة الصغيرة إلى العزوف عن سياسة الاكتفاء، مطالبة بالولوج إلى التجارة الدولية.

فإذا كان يتعين أن يحدث تغيير، فليكن بالحفاظ على مكاسبنا وليس التفريط فيها، فلا بد من التمسك بدأ بما هو أفضل فيها.

الانسحاب أو الهدم:

صحيح أننا نلمس هنا وهناك مسلكيات تململ كثيفة. من ذلك عندما يقر العمال الفرنسيون المستفيدون من قانون الخمس والثلاثين ساعة فإنهم يفضلون مغانم الوقت الحر على زيادة الدخل، وعندما يحرص عدد متزايد من المواطنين على حماية أنفسهم من الترويج ومن غباء الشعارات الصاخبة، وعندما يقفز عدد متزايد من العمال من شغل إلى آخر دون أدنى شعور بالوفاء كما هو حال العمال اليابانيين المدعوين freeters (منFree الإنجليزية وArbeter الألمانية) معتبرين العمل بضاعة مهملة،

وعندما يعترض عدد متزايد من سكان المدن على استبدادية السيارة، وعندما ترتفع أصوات كثيرة في العالم معترضة على اعتبار الحياة الحقيقية، مرادفة للمزايا المادية والنقدية دون غاية سامية فتدعو إلى فن حياة قائم على أفضل ما تركته لنا القرون السابقة من تبصر وحكمة، وعندما يتمرد المستهلكون ضد استبدادية الماركات وطموحها إلى ضبط الوجود الإنساني.

ومن ذلك أيضاً نصيحة أحد المحللين الماليين من أباطرة ويل ستريت لقرائه في نوع من الطرافة والاستفزاز بأن "يموتوا معدمين"[110] بأن يمزقوا بطاقات الائتمان، ويتخلصوا من الإرث ويهملوا الإخلاص للشركة، يرفضوا معاش التقاعد، ويلتزموا خصوصاً نمط العيش المتقشف، إنه المثال الجديد للقرن الحادي والعشرين، بمقاومته التكاليف الباهظة، والمشتريات غير المفيدة.

تلك مسلكيات تترجم التنصل من مسلمات النسق القائم، ولكن يجب أن لا نخدع: فالانسحاب لا يعني الهدم، فالأمر متعلق هنا باستراتيجيات كبح وليس باستراتيجيات قلب. فعدم التسامح إزاء تجاوزات اقتصاد السوق ليس مرادفاً للرفض الشامل. ذلك أننا ننتقد الرأسمالية وكذلك الديمقراطية باسم الوعود التي تطلق ولا تفي بها، ومن ثم نقلق من كون الأفعال لا تتطابق مع الأقوال.

فنحن نريد مزايا السوق دون آثارها المدمرة، عندما نطالب بتوزيع أكثر عدالة لثمار النمو، وبمجتمع أكثر ملاءمة، وباحترام التوازنات البيئية، وعندما ننادي بنهاية إجراءات الحماية التي تتخذها الدول الغنية ضد صادرات الدول الفقيرة، وعندما نطالب بإقامة تنمية مستدامة. وبعبارات أخرى، إننا نريد الرأسمالية منطقاً اقتصادياً (ولكن بضوابط توجيهية حقيقية) في حين نميل أقل للرأسمالية كحضارة، وهو تناقض صعب ليس الخروج منه بالخيار المتاح قريبا.

ومن هنا كان التمييز الذي يقيمه زكي العاندي (ويستعيره منه ليونال جوسبين) بقوله -نعم لاقتصاد السوق، لا لمجتمع السوق- تمييزاً مبيناً ومشكلاً في آن واحد.

التنافس والتوافق:

نحن في اقتصاد السوق منذ نشأتنا. فمنذ عصور الأنوار برز الطابع النقدي للرغبات والعقوبات (على الأقل كإمكانية)، بمعنى احتساب الأنشطة الاجتماعية بصيغ المنافع والتكلفة فبالنسبة لآدم سميث، على المجتمع المثالي أن يكون مبنياً على طريقة السوق؛ لأن قوانين السوق منسجمة مع مصير الإنسان. وفي القرن التاسع عشر أصبح أساس الأمم الأوروبية خاضعاً لهذه السلطة الجديدة.

فالثورة الصناعية بقلبها لظروف حياة ملايين الريفيين الذين قذفت بهم إلى المصانع والمعامل، لم تكتف بخلق طبقة بروليتارية

مستغلة استغلالاً فاحشاً، بل حولت المجتمع نفسه إلى -ملحق للنسق الاقتصادي- (كارل بوليني) حيث العلاقات العائلية والشخصية محتجزة بالكامل.

فهذا المسار الذي بدأ منذ عدة قرون استكمل عمله المدمر وامتد إلى مختلف الدول الأوروبية والأمريكة الشمالية.

ومن ثم فإن السؤال ليس: هل أنت مع أو ضد مجتمع السوق، ولكن إلى أي حد وإلى أي مستوى أنت معه أو ضده؟ فنقد السمة التجارية للعالم القديم قدم الرأسمالية ذاتها، ويواكب مسارها منذ القرن الثامن عشر خلال كل مرحلة من مراحل نموها. بيد أن مقولة -مجتمع السوق- تعني شيئين مختلفين، أولهما: إعادة تحديد الأنشطة المتعلقة بكل من الدولة والقطاع التجاري: مثل التمييز بين العام والشراكة الخاصة لدى تيار النيولابور New Labour البريطاني، الذي يفضي إلى السماح للسلطات العمومية بمنح الشركات الخاصة تنازلات عن الأسواق الاحتجازية (السجون والمستشفيات ووسائل النقل والمدارس) مقابل ضمانات استغلال وتعويضات للقطاع العام.

فالأمر يتعلق هنا بتحويل في خط الفصل "بين القطاعين التجاري وغير التجاري لصالح الوكالات المستقلة" (زكي العائدي) حيث الدولة تتنصل من مسؤولياتها السابقة لتركز بجهودها على مهام أخرى تعتبرها أساسية، فالقطاع العام يتنازل للخاص عن بعض وظائفه التي يمكنه القيام بها الكفاءة نفسها.

وأما الدلالة الثانية لمجتمع السوق فتتمثل في الصياغة النقدية التدريجية للمسلكيات الإنسانية، واقع كوننا أصبحنا كلنا زبائن في الحب والدين والشغل، وفي التربية مستهلكون جاهزون للصرف للحصول على هذه الخدمة أو تلك.

وهكذا أفضى تعدد الطوائف الدينية والكنائس إلى أن أصبح المشهد الروحي المعاصر نمطاً من السوق حيث يغازل - تجار الروح المتنافسين جموع المؤمنين المتنقلين من دين إلى دين والمطلوبين من كل الجهات[111].

وبهذا يمكن القول إننا دخلنا حتى بالنسبة للانتماء الديني إلى مجال الانتقاء: فإحدى المجلات اليسارية الأسبوعية اقترحت مثلاً في أحد ملاحقها ثمانين موقعاً شعائرياً للتجريب والاختيار، من كنائس ومعابد وبيع ومساجد وخلوات بوذية، مع تحديد أماكنها والقائمين عليها وما توفره من رفاهية، وبذلك حولت الإيمان إلى تجربة سياحية، ناصحة بالمواقع التي يتعين ارتيادها ومحذرة من تلك التي يجدر تجنبها[112].

فمجتمع السوق إذن مزيج من مجتمع المنافسة ومجتمع التوافق: أحدهما يضبط علاقة التنافس بين الأشخاص، والشركات والمؤسسات ولا يعرف سوى جزاء النجاح أو الفشل، في حين يرسي الآخر نموذجاً تعاقدياً بسيطاً ومغرياً صالحاً لكل أنماط الروابط. بطولة وألم التنافس من جهة، والاستيلاء البطيء على الفضاء الحميم والعشقي والنفسي من جهة أخرى.

فالمسألة تتعقد باعتبار تناسب السوق، والأنا من حيث هي مؤسسة صغيرة: فعندما يسعى الفرد إلى تنمية نفسه بتكثيف قدراتها، يخضع عندئذ لنفس المبادئ النفعية والعقلية التي يقوم عليها الاقتصاد.

بهذا المعنى يصبح كل منا رأسمالاً يتعين استثماره، فالرأسمالية من حيث هي ثقافة تستثير وتواكب النزعة الفردية التي تتقمص إيقاعاتها وتستفيد من مرونتها وليونتها[113].

فالمال لا يحررنا من التزاماتنا الاجتماعية ويخفف من انتماءاتنا فحسب، ولكنه يمكن كل واحد من أن يتحول إلى "شركة مساهمة"، بحيث يتسنى له أن يعتبر نفسه "مثل كيان اقتصادي مكتمل"[114]. (بريد جس) عليه أن يعرف كيف يبيع نفسه، كيف يغدو سلعة لأن الذات أصبحت بضاعة مثل أي بضاعة أخرى تخضع للعرض والطلب.

فإذا كانت توجد "عقيدة كم"، فذلك لأن ثمة مستوى يتحول عنده الكم إلى كيف، كما لاحظ ماركس، وعند هذا المستوى يصبح الكم أداة تحرر، بما يضاعفه من فرص للجميع.

وهكذا نرى كيف تصبح قيمتنا الحميمة خاضعة للتذبذب، في ما وراء الحلقة الصغيرة من أحبائنا الذين يحبوننا إزاء وضد كل شيء. إلى حد أن فنان الروك دافيد بوياي ومستشارة العيش الرغد مارثا ستيوارت أقاما أسهما من أنفسهما.

فنحن شأننا شأن نجوم الفن والسياسة والرياضة الذين يظهرون أسبوعياً في المجلات، نرتفع وننخفض دوماً في بورصة الرأي، وهذه المحكمة هي في آن واحد دون شفقة وكثيرة التقلب: فالانهيار يمكن أن يتبعه انبعاث، كما هو حال فناني الستينيات والسبعينيات الذين يعودون للمسرح بعد عشرين سنة من الأفول.

الانحلال النفعي ومحاسنه:

وبالطريقة نفسها؛ فإن الخطاب النقدي للنزعة الاستهلاكية فارغ بقدر فراغ هذه النزعة. (انظروا إلى هؤلاء الكتاب الأنغلوساكسونيين وأشياعهم من بيننا الذين يوجهون سهامهم إلى ثالوث الجنس والمال والدعاية، عن طريق العدوى، فيبدون سخفاء بقدر سخافة موضوع هجومهم. فمن لا يرى في الزمن الحاضر سوى السطحي والمبتذل يفضح سطحيته حتى ولو أمضى وقته في هجاء السطحية).

إن القدح في الأمور التافهة الذي انطلق منذ قرنين بخصوص فتنة الرفاهية لم يتغير منذ ذلك العهد بل تواصل بالصيغ نفسها.

فخلال احتفالات عيد الميلاد السنوية مثلاً نؤدي ضريبة الإسهاب اللفظي في النقمة على البذخ، لكي نسرف فيه من بعد بضمير مستريح.

فتجريم السوق يسمح بالاستسلام العذب للتهتك النفعي.

يمكن بالتأكيد أن نذم العجول الذين يجوبون المحلات

التجارية الكبرى ويتغطون بالزخارف البراقة. ولكن التسوق، بقواعده البسيطة وملذاته البدهية، يظل مستمراً، لما يوفره من مباهج اكتمال لا متناه وإرضاء وقتي للرغبة.

فالشروط المطلوبة في متعة التسوق لا تتجاوز الرغبة الملحة في البضاعة ووسائل الحصول عليها، ومن هنا كانت فضيحة الاستهلاك الحقيقية هي العجز عنه من جراء نقص السيولة.

فنحن في نظام الاستهلاك متشبعون، نغذى مثل الرضع بالملعقة، وعندما ننفر بسرعة من هذا الجحيم الفاتر، نرجع إليه دون انتظار للتغلب على قلقنا، من أجل الاندهاش من هذه الوفرة المعلنة.

إنه مجتمع الواجهة حيث البضاعة معروضة حسب قواعد مسرحية دقيقة تضمن "قيمتها المضافة". فالتهجمات على الدهماء التي تحوم حول الآلات التقنية وأدوات الزينة الرخيصة تكشف ضمناً عن كثير من التعجرف إزاء هذا الشعب الذي نريد تحريره من الإغراءات التجارية على الرغم منه.

القيامة والبعث:

نلمس لدى بعض نقاد الرأسمالية نية مزدوجة: من جهة الرغبة في الوقوف ضدها بعرقلتها في حدود الإمكان. ومن جهة أخرى محاولة دفعها لتعجيل سقوطها. إنه الهوس الذي كان حاضرا

لدى ماركس، ويتمثل في تمديد ونشر نمط إنتاج مدان، أي إنهاكه بالمزايدات حتى ينقلب فجأة إلى نقيضه، العصر الذهبي.

فانحسار هذا النمط من الإنتاج مرهون بامتداده الكوني: فعند نهاية الليل، بعد الخراب ومرور العصابات الصناعية ينبثق فجر جديد.

ألا يتعلق الأمر برأسمالية نبذت نفسها، وغدت دون فائدة من شدة نجاحها.

فإذا أصبح كل شيء سوقاً كما يتوقع جرمي رفكين بقلق مشوب بالافتتان فعندئذ لن يكون ثمة شيء قابل للتحول إلى السوق.

إن مثل هذا الانتظار يمكن أن يسعد المخيلة، لكن الحس السليم يأباه.

فالرأسمالية من جهة مازالت بعيدة عن الهيمنة على كل العالم، فحتى ولو كانت بلا منافس، فإنها غائبة من حيث أشكالها الأكثر بساطة عن نصف المعمورة. ومن جهة أخرى، فإن النظر إليها بصفتها نذير القيامة، بأن تجلب في خوائها بشائر أفق أفضل، يعني أننا نطلب منها الكثير، ننقل إلى الدائرة الاقتصادية وحدها أملاً كان في السابق محصوراً في الديانات.

فلا يمكن أن ننتظر من الرأسمالية إلا ما تعرف القيام به: أي إنتاج الخيرات المادية بعدد لا محدود، فقط لا غير ذلك. فمن الهذيان أن نحملها غايات روحانية وأخروية.

فإذا كانت النزعة الاستهلاكية صامدة على الرغم من أسهم النقد الموجهة لها، فذلك لأنها - ترضي تطلعاً حقيقياً للتميز، يتجسد في استخدام السيارة والإنترنت والهاتف الجوال (...) ففكرة النمو لها مستقبل زاهر من حيث هي استعارة انفتاح مستمر على حقل الإمكانات"(115).

فكما أن العمل الذي هو نمط من العبودية لدى بعض الناس يسمح لبعضهم الآخر بالانعتاق، وللنساء على سبيل المثال بانتزاع استقلال مالي حقيقي، فإنه ليس ثمة نمو مادي لا يكون روحياً في الآن نفسه مادام يشق مسالك جديدة للأفراد.

فلا وجود لأمر تجاري محض ليس له انعكاسات نفسية، إن البعد الإنساني يتدخل دوماً في العلاقة الأكثر مادية، على الرغم من قبح النوايا وفظاظة المساومة. فالتقنية ليست أبداً اصطناعية على عكس ما يعتقد الجامدون على الماضي، إنها أصبحت طبيعة ثانية، وامتداداً لنظامنا العصبي، وستزداد خطورة الظاهرة مع ما أصبح متاحاً من إمكانية زرع معالجات دقيقة ومزدرعات حية داخل الجسم (وبالوقت نفسه إدماج خليات عصبية في الأجهزة الإلكترونية) مما يجعل منا أولئك "المقدسون" الذين وصفهم فرويد في بداية القرن العشرين.

من هنا ندرك قصور مقولة شغف "الرفاهية" كما بلورها دتكوفيل وطبقت على المجتمعات الديمقراطية: إنها تقوم على

الخلط بين الغاية والوسيلة، لأن التراكم المادي ليس سوى دعامة لإسعاد الذات.

فالرفاهية بما توفره من ظروف محيطة ملائمة تسمح للإنسان أن يبني نفسه باطمئنان دون أن يبدد قواه، تمنحه القوة والحماية. فلذة اليسر ليست بذاءة أو ميوعة، بل هي محررة: تضاعف إمكانات كل منا، إنها تعني القدرة على التخلص من الخضوع للعالم الخارجي.

فالنزعة الاستهلاكية ملازمة للتعلق بالذات، بالرغبة في "أن نكون ما نحن" حسب عبارة نيتشة التي انتحلتها للمرة الألف دعايات الترويج، فالذات تعتمد عليها لتبني نفسها، بعيداً عن أن تذوب فيها.

إن الأشياء التي نتحصل عليها، من النظارات إلى الحاسوب، تحررنا من إكراهات الزمان والمكان، وتضاعف قدراتنا المحدودة، وتحكمنا في الواقع، تضع في متناولنا قدرات لم يكن يتمتع بها في الماضي سوى السحرة أو كهنة الأرواح الخفية. فهذه الأدوات الخرافية تمكننا من الفعل على بعد المسافة ومن التواصل عبر آلاف الكيلومترات، ولا يمكن تصور الوجود دونها.

ولنستعرض مثالاً كثيراً ما يرد في مثل هذا النوع من النقاش:

إنه مثال تجارة العواطف. فالرأي الشائع حالياً بأن (الليبيرالية) هي مصدر كل فشل عاطفي؛ لأنها تؤدي إلى إقصاء

الذميم والضعيف رأي يقوم على الخلط بين السبب والنتائج، ففي هذا الميدان كغيره من الميادين يكتفي السوق بتضخيم ممارسات ملازمة للإحساس. فالسوق لا يخترع طغيان الجمال، ولا الانتقاء الاعتباطي لكائن على حساب الآخر، ولا صد الولهان، ولا التناغم في الشهوة، ولا نرجسية البيت الزوجي، ولا المساومات الدنيئة الصغيرة ولا النزاعات المتراكمة، بل يجدها حية في ميكانيكا الأهواء البشرية.

فلا دليل حتى يثبت العكس على أن الهيجان (الشبقي) أو الصداقة أو الروابط العائلية صادرة عن منطق مالي بحت. إذ يمكن أن نستأجر جسداً، أو حرساً، أو رفقة، ولكن لا يمكن أن نشتري المحبة أو الرغبة أو التقدير.

فلنتذكر هنا أن القرون الماضية هي التي عرفت بيع الكائن البشري بالكامل من خلال ممارسة الاسترقاق. والزواج بالإكراه، وإن العقوبات الدينية في أوروبا كانت تستبدل بداية من القرن السابع بدفع مبلغ تعويضي. نمط من "الدفع" للرب على نحو ما. ولنتذكر أيضاً أن الكنيسة الرومية غرقت في نهاية العصر الوسيط في تجارة الغفران والرتب الكهنوتية، وفي الاتجار بالأشياء الروحية وبالنفقات الكنسية.

ولا ننسى أن بعض الملوك دفعوا من مالهم ثمن انتخابهم مثل شارل كينت، ويتعين أن ندرك أخيراً أن أشكال الاستعباد والدعارة

الأكثر انحطاطاً تنتشر اليوم في الدول غير الرأسمالية وغير الديمقراطية، بما في ذلك استعباد الأطفال واستغلالهم جنسياً.

بل يمكن أن نقول إن المنطق التجاري ينزع من خلال الصناعات التجميلية والجراحية الإستيتقية والرياضية إلى إصلاح الاختلافات الطبيعية وبشاعات الجسد، وبهذا فهو في مصلحة الأقل حظوة.

فليس ثمة محيط أكثر قساوة من ذلك المحيط الذي لا يسمح المال فيه بتحقيق موازنة ومعادلة المزايا الجمالية لنخبة صغيرة. ولكن الدولة والعدالة غير قادرتين على تقويم إحدى خاصيات الحب وهي التفضيل.

فأن يكون الشخص محبوباً، يعني بدءاً أن يختار بطريقة غير مستحقة، بنوع من الإذعان والرضوخ التام. ولا يمكن لأي إجراء أن يلغي هذا الجانب الاعتباطي الذي يجعل من كائن ما المركز الوحيد لاهتمامي على حساب كل الآخرين.

علينا إذن أن لا ننخدع: فلن يكون إلغاء العجل الذهبي مرادفاً للبراءة. فالمجانية لا تعني اللامبالاة: بل ثمة ألف دافع نفسي من غيرة وغضب وقساوة لا تقل بشاعة عن الجشع.

ولقد بين فلاسفة الأخلاق في القرن السابع عشر أن أفعال الأبطال الأكثر نبلاً قد تكون مدفوعة خفياً بمقاصد أقل سمواً مثل حب الذات.

فهل أدى الفساد المالي إلى التطاول على ما كان قائماً من أخلاق حميدة وبراءة أصلية؟

تلك مجرد دعاية. فالمال يؤدي دوراً أساسياً هو دور المطهر وكبش الفداء: فيجمع ويلتقط كل الوسخ الإنساني. إنه "خميرة كل نبات اجتماعي، وهو الوحل الذي تنبثق منه كل الأعمال الجميلة" كما كان يقول زولا، الذي يشبه المال بالحب الذي يجمع مثله بين القذارة والروعة، والدنس والحياة.

فقوة الرأسمالية تتمثل في استنادها على غرائز الإنسان الأكثر انحطاطاً بتحويلها إلى سلع وثقافة مؤسسات.

"إن الاقتصاد هو علم القذارة وليس علم الطهارة" (ألفريد سوفي).

العالم كما يحلو لي:

يتعين أن نحدد العتبة التي تتحول عندها إجراءات التحرر إلى إجراءات قمعية، فتصبح الفردية المهيمنة أفضل عدو للفرد، تضعفه بدل مساندته.

فمن المشروع القلق عندما تصل الأمور إلى حد أقصى من قبيل أن يتحول المجمع التجاري إلى "موقع العيش" الوحيد لأغلبية الناس، الفضاء الأوحد للقاء وللترفيه والتألق، عندما تصبح المدرسة منذ الحضانة. تمرناً على الاستهلاك وليس إطاراً لتعلم المعارف. وعندما تكتسح الإعلانات الترويجية مراحيض الثانويات

والجامعات[116] وعندما يتحول المجال العمومي إلى قرية تجارية ومركز سلع، وعندما يمضي الأطفال والكبار ما بين ثلاث وأربع ساعات في اليوم أمام شاشة التلفاز منظمين أيامهم بحسب المسلسلات والألعاب التي تقدمها، وعندما تغدو هذه الشاشة حسب اعتراف مصمميها مجرد سيل من الصور بين إعلانين تجاريين، أي مجرد سد الفراغ بين الإعلانين[117] وعندما يغدو مصير كل كائن بشري شرف التحول إلى لافتة إعلان، من الطفل الصغير إلى حكم المباريات الرياضية، وعندما يعمد روائيون يخلطون بين الكتابة والتطبيل إلى الترويج المأجور في أعمالهم لهرمس، وغوتشي وبرادا، وعندما تطمح الماركات إلى أن تكون أوطاناً جديدة فلا نكون فرنسيين ولا صينيين ولا مكسيكيين ولا إيطاليين وإنما سكان عالم النايك والنينتندو والماك دو والسوني والبيبسي والبرجر كينغ[118]، وعندما لا ترمي الشركات إلى إفراغ جيوبنا فقط بل تلازمنا أيضاً في الفراش من المهد إلى اللحد محاولة انتزاع ولائنا لها من خلال معرفة حميمة بأذواقنا، ورغباتنا، وعندما لا تكتفي فقط بأن تكون مواقع إنتاج وإنما تود أن تصبح كنائس الغد تعبر عن القيم وتصنعها.

ومع ذلك، قد نغلط في منح السوق سلطة ليست له، فليس هو الذي أبدع النرجسية، ولا القماءة الإعلامية، ولا إرادة الترفيه بأي ثمن، وليس هو الذي حطم في بداية العصور الحديثة وصاية التقليد والسلطة معاً.

إنه يكتفي بمواكبة هذه المظاهر بتضخيمها، فهو رجع الصدى، وعامل تكثيف باعتبار كونه يمدد إلى ملايين البشر ظاهرة بدأت محدودة في نطاق مجموعة صغيرة.

فإذا كانت انتفاضة مايو 1968 قد شجعت انتشار "الليبرالية" فذلك لأن السوق قد انجرفت في الفضاءات الحرة الجديدة التي نجمت عن الأحداث، مثلما تنجرف اليوم وراء حقوق المرأة والأقليات.

صحيح أن الفرد قد انساق وراء الرأسمالية في تقويضه لروابط التواصل وبتنكره للتقاليد والمحرمات والانتماءات، فالرأسمالية بهذا المعنى كانت عاملاً مساعداً أكثر من كونها علة مباشرة؛ فالسوق يدخل دوماً في حياتنا بتواطئنا، لأننا نرغب فيه بالتأكيد.

ونحن متواطئون معه في سعيه لولوج عالمنا الحميم وفي تحويل أجسادنا إلى لافتات دعاية وفي تسويق جيناتنا وخلايانا وأعضائنا.

(بل ثمة أشخاص حاولوا دون نجاح يذكر بيع أرواحهم على شبكة الإنترنت. فليس بمقدور فاوست في أيامنا الحصول على مقتن).

فإذا كان الخيال المهيمن في مجتمعاتنا هو خيال تجاري، فذلك لأنه يلاءم أكثر من أي خيال آخر الفرد الملك، الذي يطالب بتملك العالم.

إننا لم نصبح كواسر بشعة بل أصبحنا باشوات بشعة.

فالسوق لا يكون أبداً في البدء، إنه لا يبدع، بل يتلاءم مع الوضع القائم، ويلتف، يضاعف الآثار، موزع كبير ينهب الأفكار الأكثر نبلاً، والفنون الأكثر سمواً، والمسلكيات الأكثر استفزازاً من أجل نشرها في أركان المعمورة رغبة في الاستفادة منها.

إن دوره هو تقمص الموجة، طاعة السادة الأكثر تنوعاً، اقتطاف الثمرة الرائجة، سواء تسمت بثاً إعلامياً، أو قضية هوية، أو تحقيقاً للذات، أو روحانيات جديدة. إنه انتهازي بامتياز، يغوص في المنافذ السالكة، يكون خادماً مطيعاً أو وسيطاً متحمساً.

بيد أن سلطته التي تكون خارقة عندما يعمم على الناس مزايا اكتشاف أو جمال عمل فني تغدو مدمرة عندما تحفزه سرعته الخاصة إلى مضاعفة الحاجات المصطنعة، وإضاعتنا في سيل من سقط المتاع والنجاسات المقززة.

إن السوق يواكب تعريف الفرد بكونه أساساً كائناً راغباً. ولقد أصبحنا ما نحن راغبون فيه: أشياء وكائنات وطرق عيش وتجارب.

إننا نخلط ما بين مضاعفة الحقوق وتعدد الرغبات، دون أن نتصور مقابلاً أدنى لهذه الرغبات في شكل واجبات.

مجتمع السوق هو قبل كل شيء مجتمع خدمات يتمحور حول الملاءمة والاستمتاع المؤقت: التكييف الأدق ما بين العرض والطلب،

وكلما كان العرض مشخصاً ومناسباً لأذواق كل واحد منا، كان أكثر قيمة.

الاستمتاع المعتبر: هكذا أصبحت على يقين من الحصول مباشرة على ما أرغب عن طريق المال. فثمة تنظيم هائل ينساق لأدنى رغباتي.

وتكمن متعة الخدمة، في كونها ليست مجرد زمن مضغوط، أو دائرة قصيرة تمكن من الإسراع في الإجراءات الطويلة المملة عادة: إنه يوفر لكل واحد منا بصفة ديمقراطية المكاسب التي كانت في السابق خاصة بالسادة مثل: الخدم والسوق والقهرمانات، والطباخين، وذلك دون دين أخلاقي أو عاطفي لأننا لسنا مسؤولين عن أحد.

فكل ما كان مجانيا يمكن أن يغدو وظيفة ربحية يتعهد بها متخصصون مثل الأعمال المنزلية والعائلية ولكن أيضاً التربية وحضانة الأطفال والعناية بكبار السن أو كذلك تنظيم العطل أو الأحداث المخلدة للأعياد بواسطة المهرجين ومصوري الفيديو إلخ...

فليس ثمة مجال يومي لا يمكن أن يتحمل القيام به "خبير" ولا يوجد شطط لا يمكن أن يستجاب له: كأن يكون للمرء منطاد في حديقته، وحيوان كانغورو في غرفته، وتدليك أصبع الرجل على الطريقة التبتية، حتى إن بإمكان المرء "إيجار" ضيوف إذا نقصه

ضيفان أو ثلاثة للعشاء (على شرط أن يكونوا في المستوى الاجتماعي الثقافي نفسه) بل يمكن أحسن من ذلك اقتناء "أصدقاء مربحين"، واستئجار مدرب رياضي بارز لمنحي اعتناءه واهتمامه وسمعه. وهكذا يتنوع "سلم الخدمة" بحسب الأسعار[119].

يوجد كذلك في اليابان مختصون في الانفصال يساعدونك على الطلاق. فتلك الخدمة تصبح غالية عندما يغدو الزمن الزاد الأنفس الذي نحتاج إليه بغية تخصيصه لمهام أخرى.

فالنتيجة المنطقية لمجتمع السوق هي الدعارة المعممة، تحويل النوع الإنساني إلى معتوهين أو ؟؟؟؟ إلى جيش من الخدم يتفانون في تقديم صنوف العناية لأثرياء في عجلة من أمرهم.

ولكن النتيجة هي أيضاً تعميم الريبة؛ لأنه ليس ثمة ابتسامة، أو حركة لا يمكن اعتبارها حساباً محملاً بنيوياً بنوايا ارتزاقية.

فكأن الفرد الحديث يريد سرعة الحساب زائد أصالة الالتزامات: فالمال يبدو وسيلة لتبسيط الأمور، ولكنه يؤدي إلى الفساد من حيث يريد التبسيط.

فالسؤال القديم: ما هو الشيء الذي يتعين فعله وذلك الذي يجدر تجنبه، استبدل بسؤال جديد هو: ما هو مردود الشيء؟ وفي ما وراء الثمن فإن هذا الرجوع الصرف للمال يؤول كذلك إلى أن يكلفنا غالياً، بأن يفرض علينا التقوقع في نمط اجتماعي مصطنع.

وذلك هو دون شك البؤس الأكبر الذي يعاني منه الأغنياء: لا يمكنهم أبداً التيقن بأن أحداً يحبهم بتجرد، يرون في أدنى لمسة أو نجوى خفايا تحايل نفعي متعمد. فكل ما تحكمت المصلحة في العلاقات الإنسانية انحطت وذبلت، فالأمران متلازمان.

بهذا المعنى ليس الآخرون سوى خدم يراد بهم إرواء ظمئي، وإشباع كل نزواتي. فعلى كل أحد أن يعرف هل يريد أن يسكن في هذه الأرض بصفته سيداً صغيراً أو شاعراً، طفيلياً أو صديقاً.

الانتصار المفارقة:

لقد فقد العالم المعاصر روحه: تلك ملاحظة قديمة قدم الحداثة نفسها، نبه إليها الرومانسيون بحدة لم تستنفد قيمتها.

بيد أن هذه الملاحظة تغفل أمراً هو أساسياً هو كوننا في إسرافنا في التمتع بالملذات المادية قد كسبنا خيراً عميماً هو الحرية الشخصية.

فنحن أبناء الأنوار والرفاهية وسنظل أبناءهما، بكل ما يترتب على ذلك من مزايا ونقائص، حتى ولو كان هذان النظامان متجهين للتصادم.

لقد بزغ إذن زمن الفرد المتحكم، الذي يخيره السوق بأن لا يفعل إلا ما يرغب فيه، ويطري أدنى ميوله.

فلا شيء يتهدده اليوم في الغرب سوى اعتداده بنفسه؛ ولذا

يتعين فيه وضع حدود لشهواته الأكثر إفراطاً، والحيلولة دون التحول إلى رضيع نهم ومشاكس، حتى لا يصبح أسوأ أعداء نفسه.

فالديمقراطية يمكن أن تموت من جراء التسلط الزاحف، والسم الاستبدادي، ولكنها يمكن أن تموت أيضاً من جراء تأكد قيمها الخاصة، بالاستناد إليها في كل سياق لإرضاء المطامح الأكثر جنونية لدى هذه المجموعة، وتلك الأقلية. إلا أن الأنا ليس جديرا بالكراهية بقدر ما هو جدير بالشفقة كما يقول باسكال. عندما "يختزل في مواجهة مع الذات عينها" فينصرف إلى اجترار همومه الصغيرة.

لقد ألغت الثورة الفرنسية مقولة الخطيئة الأصلية، وزايدت عليها الحداثة بإلغاء تركة الماضي. وهكذا لم يعد لدي واجب إزاء أسلافي، وليس علي الاهتمام بعبء أي تراث، لقد أصبحت بالكامل معاصراً لنفسي.

إنها أسطورة الخلق الذاتي التي تتجسد في نموذج الإنسان الذي صنع نفسه، بحيث يكون استخرج نفسه بنفسه من العدم والفقر.

بل ثمة ما هو أفضل: فعن طريق مؤسسة القرض، يمكنني الحصول على تسهيلات دفع لامتلاك المستقبل، باقتناء قطع من الزمان تخدم رفاهيتي الفورية.

إنه عقد على الطريقة الفاوستية، بمقتضاه يمكنني العيش

فوق إمكانياتي بالرهان على المستقبل، يجعل المستقبل ولي نعمتي أستعير منه الأعوام والملذات.

ولكن لاحظوا كيف تكون آلية التحرر ملتوية ماكرة.

فما إن يتحرر الأنا من كل امتنان للماضي، حتى يغدو مديناً بذاته لنفسه. وعندئذ يغدو ملزماً في كل آن بتجديد وجوده، وبإقناع الآخرين بقيمته، وبأنه "شخص معين وليس مجرد شخص" (إسايا برلين).

فها هو دخل في نظام قمار لا نهاية له، حيث يكون دوماً خاسراً، ليس بمقدوره الخلاص؛ لأن الأدلة (أي أدلة بطولته ومؤهلاته وذكائه) تتضافر دون فائدة.

(يمكن أن نتخيل على الطريقة النتشوية كيف تعمد البشرية جمعاء إلى الافتداء من دينها إزاء الرب بخصوص موت المسيح. ولكن ليس بإمكان أي مبلغ مالي أن يمحو ذلك الدين الثقيل، وسيظل الإنسان دوماً مديناً لخالقه).

لماذا يلجأ كل هذا العدد من الشباب الصغار والفتيات إلى الخضوع لممارسات مهينة للكرامة وحمقاء كممارسات سينما الواقع (من نوع بيغ بروثر، ولفت ستوري، وكولانتا أو ستار أكاديمي؟) خصوصاً إذا كان همهم هو الحصول على الاعتراف واقتناء الشهرة للحظة، ولو بالمذلة.

ذلك هو المضمون الكامل لمفارقة الحياة الخاصة: فالفرد

الغربي بعد أن كسب بعد جهد معركة احترام خصوصياته الحميمة واحترام أفكاره، غدا قلقاً من الظهور بمظهر المائع في عيون الآخر، فأصبح يفعل كل شيء للكشف عن حزمة أسره الصغيرة، كما أصبح يتعرى إرادياً في كل موقع أريد منه ذلك.

فمن خوفه الجنوني من التواري عن أنظار الآخرين، صار يصفح شقته بالكاميرات الموصولة بالشبكات الإلكترونية، ويرتاد نوادي التبادل الزوجي، ويسرد على الشاشات التلفزية أو في الكتب مسلكياته في الحب، إنه باختصار يريد أن يحول عدمية حياته إلى حدث محوري.

إنه يتبرز ويحك أنفه، يأكل وينام كل يوم! وهذا ما يستحق أن ينقل إلى العالم أجمعه وبنفس اللحظة.

فهو بهذا يقبل للآلة الإعلامية ما لا يرتضيه للكنيسة أو الدولة. فهذا نمط يتأرجح ما بين الخوف من الرقابة الاجتماعية والخوف الموازي لها من التواري عن الأنظار.

ويبلغ الظمأ للإعلان قمته في مسار الزهو الإعلامي حيث يكفيني الظهور لكي أثبت وجودي: انكشاف خاطف يغنيني عن كل نشاط وعن كل انشغال بالذات. فنظرة الآخر وحدها هي التي تقول لي من أنا وأين أنا.

وإذا لم يكف المرور بالشاشة ثمة ملجأ آخر: إقصاء المتنافسين معاً بواسطة الانتخاب (استعارة جميلة لنمط حياة الشركة، على

سبيل الاستطراد). فهذا الصنف من البرامج يجمع بين نموذجي المحكمة والمدرسة: فمهما كان سني أبقى دوماً في موقع من يمكنه النجاح أو الإخفاق، الحصول على البراءة أو الإدانة. فكم هي صغيرة هذه الأنفس التي يتملكها جشع إثبات ذاتها، وتستعد للتذلل لبعضها في مجمع علني لتحقيق وجودها طيلة لحظة زمنية.

ولكن عندما يريد المرء التسامي بتحطيم غيره يحط بنفسه من قدره الشخصي، كما هو الحال في تلك المحاكمات الهزلية التي كانت الأنظمة الاستبدادية تؤثرها إلى عهد قريب.

فالفرد المعاصر يعتبر أنه لا يتمتع بالمكانة التي يستحقها؛ ولذا سينتزعها تحت أضواء الشاشة وبثمن الشتيمة والسخافة والإذلال. ما أروعه من نصر!

ما أفقره من أن يتصرف بالكامل في نفسه، ويعتقد أنه مكتف بذاته إلا أنه يتسول قبول الآخرين، يتأرجح بين الادعاء المسعور والتبعية المطلقة، يريد دفء الروابط الجماعية دون الالتزامات المترتبة عليها.

فالوجود يغيظه غيظاً متواصلاً؛ لأنه يستهلك رغبته في التميز.

"فلا يسعده الشعور بالسيادة، بل يهينه إن لم نقل أنه يؤدي به إلى اليأس"[120].

فالنزعة الفردية القاعدية تتخذ دوماً شكل تحصيل حاصل: عليك أن تكون أنت، أن تصبح ما أنت هو وبدلاً من أن تغدو الحرية قدرة على الخروج من المحيط الاجتماعي والخلاص من قبضته، ترتد إلى مجرد مسافة بسيطة ما بين الأنا والأنا.

ومع ذلك، ما أتعس أن نصبح نحن، أن ننسجم مع كينونتنا في حين تكمن روعة الوجود في الإفلات من الذات والانفتاح على مجموع المصائر الممكنة التي نحملها في داخلنا.

فبدلاً من أن أكون شخصاً واحداً لماذا لا أرغب في أن أكون متعدداً.

إن معرفة النفس ليست مهمة إلا من أجل نسيانها بطريقة أفضل. بحيث لا يكون المرء مكبلاً بذاته، وإنما على أهبة الاستعداد لتلقي بهاء العالم. هل يتعين التذكير بتلك الحقيقة البدهية التي مفادها أن غنى الإنسان يكمن في الروابط التي يقيمها مع الآخرين، أي في قدرته على نسج شتى الصلات عن طريق القربان والورع والتبادل؟

وأن الإنسان لا يكون كبيراً إلا بتجاوز ذاته في شيء أوسع منها، في تجلي كون أفسح وأكثر ديمومة من ذاتيته البسيطة؟

قد تكون مسؤوليتنا في الأعوام القادمة هي التوفيق بين هم الاستقلالية والحاجة للانتماء، حتى ولو كان من الضروري أن تكون اختيارات حرة وليست مفروضة، متعددة وليست أحادية، قابلة

للمراجعة وليست دائمة. فثمة استخدامات أخرى للذات ليست النفعية المتعبة، فالتنازع خلاق على عكس تحكم صيغة وحيدة تتحول إلى مذهب جامد.

التفاوض حول خيوط الفصل:

يجانب الصواب من يكتفي بإدانة تسويق الحياة دون الكشف عما يجعل هذا التسويق ممكناً بل ومرغوباً، أي النزعة الفردية. فنحن لسنا منهوبين، مسحوقين ومسلوخين إلا برضانا.

فالسوق يتأقلم مع كل العقليات ولا يخلقها، شأنه شأن الإعلان الذي يتكلم كل اللغات لأنه يسخر من كل واحدة منها، إذ هو شكل دون مضمون، وبعبارة أخرى ليس ثمة مجتمع سوق خالص؛ لأن كل مجتمع يترك أثره الحيوي أو الضعيف على السوق.

وعلى عكس ما اعتقد توماس بان في القرن الثامن عشر في نظرته للتجارة بكونها أسمى مراحل الكرامة الإنسانية، فإن الثقافة والرباط الاجتماعي بالمعنى الواسع للعبارتين هما الحاسمان في حركية أو تباطؤ الاقتصاد.

ذلك ما أراده شيومبتر في إعادة تعريفه لمفارقة اليد الخفية: لكي يكون بالإمكان تحويل ما في المصلحة الأنانية من رصاص حقير إلى ذهب، يتعين تأطير هذا النزوع بمؤسسات وأشخاص (قضاة وشرطة وسياسيون وموظفون) ليس لدوافعهم صلة بدوافع الإنسان الاقتصادي.

فالمال مساعد كبير ولكن ما يوفره من مساعدة له ثمنه في المقابل تضييقاً وفاقة.

ويمكن القول بلغة عصر الأنوار أن الأولوية هي للأعراف ونمط البشر والقيم، أما البعد الاقتصادي فيكون دوماً لاحقاً.

أي بعبارة أخرى، عندما يغدو المنطق الاقتصادي بدوره قاهراً ينهش لحم الإنسان الحي، يتوجب -جلباً للتوازن- إحياء أنواع المنطق غير النفعية: تبنّي دعوة محافظة ذكية تعرف كيف تمنح النزوع الفردي وفكرة المساواة موقعها الصحيح مع تصويب ما يعتريهما من غلو.

وما دام العالم لم يولد معي ولن ينتهي مع موتي، فإن ثمة نمطاً من الحوار مع الماضي يشكل صمام أمان لا غنى عنه في مواجهة انحرافات الحداثة، إنها فرصة سانحة للإفلات من استبداد الحاضر والماضي.

فلا يكفي نقد الرأسمالية، لأن نقدها هو طريقة أخرى لتغذيتها... بل المطلوب هو تحديد المواقع التي يشتد فيها خطر سيطرة قانون المال، وأول هذه المواقع هو المدرسة.

وبقدر ما يكون مقبولاً ترتيب المؤسسات المدرسية بحسب نتائجها، يكون تحويل المدارس إلى مصنع للزبناء وليس للبشر الأحرار فيه هلاك المدرسة.

فالمؤسسات التجارية التي تتصيد بأناة نقائص التربية الوطنية والله يعلم أنها موجودة لا تقوم إلا بعملها.

بعبارة أخرى، إن الرأسمالية لا تكون فاعلة إلا إذا وجهتها الدولة والروابط والقيم، التي تصدر عن منطق آخر ولا تستجيب لمحض قانون الربح. فليس بمقدورها أن تتحكم بمفردها في حقل النشاطات الإنسانية بأكمله.

فالسوق سوق لأن المجتمع ليس بكامله مجتمع سوق: ومن الراجح أن يؤدي تطابقهما إلى تفككهما معاً.

فعلى سبيل المثال: لا يمكن أن يعيش مستشفى ما إلا بتفاني العاملين فيه تفانياً خارقاً، دون احتساب للوقت أو المال من أجل العناية بمرضاه. فالممرضة التي تحنو على المريض لا يدفعها طلب الرزق وحده. كما أن خصخصة الأمن الجوي وتخفيض أجور موظفيه مع تكوينهم تكويناً غير كاف يؤدي بالضرورة إلى الكوارث المحققة.

فليس ثمة بقعة في العالم تحكمها فقط المنافسة والفردية الراديكالية: وحتى أمريكا شديدة الرأسمالية غدت توازن أكثر من أي وقت مضى شهوتها للأعمال بنزعة طهورية وقومية مغلقة وتدين شامل، مع طغيان أنماط التعاضد الطائفية.

إن نسج الرباط الاجتماعي على المال وحده، وفرض هذا الرباط على الآخر في كل أشكال العلاقة الإنسانية، ليس سوى بناء على أساس واه. فالرباط الحقيقي يتشكل على المدى الطويل، ويعتني بكل صروف الحياة، إنه إبداع جماعي يتجاوزنا.

ولكن الدولة هي المسؤولة عن الاحتفاظ للطفل بفضاء حر من كل توجيه عقدي، إيديولوجي أو تجاري، بحيث يمنح للجميع ثقافة نوعية دون تمييز.

فدولنا بحاجة سريعة إلى إصلاح تربوي كبير، باعتبار أن نظامنا التعليمي الحالي على ضخامته وغلائه، ينتج من الجهل بقدر ما ينتج من المعرفة، ومن التفاوت ما يحققه من نجاح.

بيد أن هذا الإصلاح لا يمكن للقطاع الخاص القيام به مهما كانت الوسائل التي يستخدمها، مثل: المدرسة في البيت وتقنين الحد الأدنى من التربية وشراء الأسر للخدمات التربوية الملائمة لها أو التكوين السريع الملائم للحاجة الوقتية.

فالمدرسة ليست شركة صغرى وليس تلامذة الثانوية بقطاع مهني (كلود اليغر) إذا كانت مقولة مهنة تعني نشاطاً مدفوع الثمن.

لا تستجيب المدرسة إذاً لمعايير المردودية وإنما لمعايير الكفاءة وتوزيع المعارف. وحتى إذا كانت تشكل موقع المعارف المفيدة التي يمكن أن تقوم مالياً في ما بعد، إلا أنه يستوجب عليها أن تستمر في تقديم أنماط التكوين غير النفعية المتعلقة بمحض اكتمال النفس.

فما الفائدة من تعلم الموسيقى والفلسفة والرسم واللغات الحية إذا كان لأجل أن يصبح المرء من بعد مهندساً، صرافاً أو رائد فضاء؟

يحدث ذلك من أجل فتح أبواب منذ عهد الطفولة تقرر من بعد على مر السنين دفعها إلى الأمام أو تركها مسدودة لأن المراد منها هو منح كل واحد منا فرصة خارقة للإفلات من رتابة مسار مهني واحد، ومن مكسب واحد، خصوصاً إذا كنا محظوظين بالتعلم على يد أستاذ متميز:

تلطيف الدلالة:

كلما اجتاحت التلميحات لغة ما بحيث أصبحت عاجزة عن التعبير عن الأشياء كما هي، توجب الحذر: فالشر يتقى.

في السبعينيات في فرنسا خلطت لغة عدوانية مقنعة بسلوك لطيف وثراء شامل بفضل سنوات النمو المدعوة بالثلاثين المجيدة. وعلى العكس منها كانت التسعينيات سنوات العودة إلى الهشاشة والبطالة الكثيفة فتضاعفت بصفة لا متناهية العبارات العذبة غير المؤلمة.

وها هي مهدئات جديدة تدخل النسق اللغوي: لم يعد ثمة خادمات المنزل بل وكلاء سطح (Agents de surface) ولا أفراد سمان بل كائنات ذات تركيب مختلف، ولا أقزام بل أشخاص لهم قامات صغيرة "متجاوزون عمودياً" ولا أموات وإنما أفراد سرحوا نهائياً إلخ...

ويمكن أن نسرد لائحة بالفرنسية من هذه الكلمات المهدئة الرائجة تندرج في القاموس الفارغ العقيم نفسه:

- La flexicurité: وهي تقنية تسيير للرأسمال الإنساني تجمع بين الزيادة في المرونة والزيادة في الأمن.
- Le pauvriche: أن يكون المرء معوزاً مؤقتاً ولكنه غني بالقوة.
- Le consotoyen: أي المستهلك المواطن الذي لا فرق لديه بين عربة البضائع والمعزل الانتخابي، فهو يمارس فعلاً سياسياً في كل مرة يشتري مطهراً منزلياً أو علبة قشدة.
- Le cybertoyen: الذي يتبنى الديمقراطية الإلكترونية المباشرة ويعطي رأيه في كل موضوع دون اكتراث بالخبراء والجهات الاعتيادية المختصة.
- Le glocal: وهو التأليف السحري بين الكوني والمحلي. فهل تعرف لغة Le glocal، هذه اللغة الاصطناعية الجديدة المفيدة جداً في عالم الأعمال، وهذا النمط من الخطاب النضالي الجديد الذي يسمح بالجمع بين اصطلاحات التجذر والعالمية، والتوفيق بين المتجانس والمتنوع.
- Le capsoc: الوصول إلى صيغة توحيدية بين رؤيتين للعالم كانتا متصادمتين طيلة عهود طويلة، بمعنى توحد الرأسمالية والاشتراكية.

إن العالم أوسع من وجودي البسيط، ثمة وقائع أخرى رائعة، غريبة سأفرط فيها: تلك هي رسالة المدرسة التي تقدم درساً

مزدوجاً في التواضع والفضول. إنها تظل نوعاً من الترف في مجتمعاتنا النفعية؛ لأنها تحافظ على روح الفراغ النشط الذي لا ترجى منه أي "فائدة".

ومن هنا ما تتعرض له المدرسة من كراهية لدى أولئك الذين يريدون انسياقها لمطالب السوق أو الأفراد الخواص.

ولذا كان من المهم تقديس المدرسة وحمايتها من العالم، ولو اقتضى الحال الانحراف بها إلى المجتمع "الليبرالي" بالمعنى السيئ للعبارة، بحيث تجتاحها المنافع الخاصة، والفيروسات الترويجية وبصفة أعم النمطية والنسيان والحماقة، وتلك هي آفات الديمقراطية الجماهيرية.

فلا بد من قرار جماعي مستند لحجة البرهان من أجل التفاوض وإعادة التفاوض بصفة دائمة حول الحدود الفاصلة بين ما هو تجاري وما هو غير تجاري.

ويتعين على كل جيل أن يحدد هل سيبيع في المزاد العلني هذه المواقع الرمزية الضامنة للانسجام الاجتماعي التي هي العدالة والإدارة والثقافة والبيئة والتربية والمرافق العمومية، وعلى كل جيل أن يحول اهتماماته بحسب رغباته، وأن يحدد ما هي المخاطر التي هو على استعداد لمواجهتها، وما هي المحرمات التي يحتفظ بها، وأصناف المقاومة التي يعارض بها المطالب التافهة التي يتقدم بها الأفراد والمجموعات. إن الأمر يتعلق بتنوع أبعاد حياتنا لا أقل ولا أكثر.

الفصل الثامن

اليطوبيا الأخيرة

"كيف نوفق بين الملاحظة التي مفادها "أن ما هو أخلاقي ليس على العموم بذي مردود" والاعتقاد القائم "أن ما هو ناجع هو بالتعريف أخلاقي؟".

Lewis Lapham

La montagne des vanités

"إنني وطني ولكن يتوجب علي إرضاء ما يقتضيه المستثمرون من ضرورة مردودية". Léon Cooperman

الرئيس المدير العام لشركة OMEGA ADVISORS HEDGE FUND بعد اعتداءات 11 سبتمبر 2001

"إن مفتاح الرفاهية الاقتصادية هو خلق إحباط منظم"

رئيس سابق لشركة GENRAL MOTOR

أوردت الصحافة الإنجليزية منذ سنوات قصة موحية بقدر ما هي حزينة: أب وابنه من الطبقة البورجوازية المتوسطة الإندونيسية قررا بتبجح أن لا يأكلا صباحاً ومساءً إلا في مطعم الماكدو من أجل دفع عجلة العولمة في بلادهم ومعالجة آلام وطنهم من سوء نمو ورشوة واستبداد.

إنها الديمقراطية عن طريق الهامبورغر!

يمكن أن يبدو هذا المسلك المختصر مدهشاً، ولكن بعض الخرافات تبلغ من الرسوخ حد حث بعض العقلاء على القيام بأفعال ليست في مستوى تعقلهم. فهذا الأب والولد لم يرضيا فقط بأن يعلفا أنفسهما صباحاً مساءً بغذاء مشكوك في نوعيته، وإنما اعتقدا أنهما يؤديان فعلاً مؤسساً قريباً من التخريب.

حول بعض الخرافات الخطيرة:

حان الوقت لتصحيح عدد من الأساطير. فلا سبيل للبرهنة على ما يروج من مصادرة تحالف الرأسمالية والديمقراطية بحيث تفضي حرية الرأسمالية إلى حرية الأشخاص والمؤسسات بنوع من الآلية المثلى.

فالتعددية بالإضافة إلى السوق الحرة، خرافة تعود لعصر الحرب الباردة، لئن كانت ناجعة ضد النظام السوفياتي، إلا أنها أبعد ما تكون عن اليقين اليوم. فالسوق ليس فقط أعمى أخلاقياً

(جون راولس)، لا تحركه سوى النجاعة، وإنما آليته محايدة سياسياً أيضاً "معروضة على الجميع وفق أي هدف كان"[121].

فإذا كان يعطي فرصة واسعة للمستهلكين للتأثير على الأسعار والاستثمارات، فإنه لا أثر له على شفافية الحكومات.

إن السوق يتأقلم مع كل الأنظمة، يزدهر تحت الأنظمة الدكتاتورية كما يزدهر تحت دول القانون: فالدول النفطية الخليجية وسنغافورة وماليزيا والصين الشعبية تخضع بشكل أو بآخر لمعاييره دون أن تكون نموذجاً للتسامح السياسي.

ولا يمكن أن ننسى أن إيطاليا في عهد موسوليني وألمانيا الهتلرية كانتا على عكس روسيا الستالينية أمتين مزدهرتين اقتصادياً وضعتا قدرتهما الصناعية في مصلحة نشوتهما العسكرية[122].

وكما يقول آدم سميث: "إن التاجر ليس بالضرورة مواطناً لأي دولة على الخصوص فلا يهمه كثيراً في أي موقع يدير فيه تجارته، وعندما يمسه أدنى نفور من مكان ما يمكنه أن يقرر نقل رأسماله من بلد إلى آخر جالباً معه كل الصناعة التي كان يوظف فيها رأسماله"[123].

ففعلاً من المنظور التجاري "ليس العالم سوى أمة واحدة تكون الأمم داخلها على شكل الأفراد، كما كتب عام 1691 السير ديدلاي نورث"[124].

فالسوق يزيح الحدود والإمبراطوريات، راسماً لكل الشعوب تخوم وطن جديد مشترك متمحور حول التبادلات. وما دام لا يهمه سوى حركة البضائع وتدفق الإعلام، فإنه يقوّم الدول من زاوية القدرة التنافسية وحدها، وليس مدى انسجامها مع المبادئ الجمهورية.

فالأوطان العريقة زحزحت من سباتها القديم، وأصبحت أنواعاً من الشركات المعلقة التي لا مالك لها، تتفاوت من حيث الكفاءة (فرنسا الشركة، ألمانيا الشركة).

وتحدد معاهد مختصة جاذبية كل دولة بحسب معايير "الإغراء الضريبي" والبيئة والعمالة الرخيصة وانعدام النقابات.

فإذا كان السوق هو الحكم الأوحد، لم يكن ليعبأ بالمنتخبين والمؤسسات، إذ لغته الوحيدة هي لغة الحساب والمردودية.

ويا تعس الأجراء الذين يعترضون أو يتمردون: سيهدد مستخدميهم فوراً بالرحيل عن البلد المعاند إلا إذا "عصرن" عقلياته، كما كان شأن أرباب العمل الذين اجتمعوا يوم 16 مايو 2001 في باريس جزعين من تهديدات مقاطعة منتوجات دانون بعد إعلان خطة لتسريح بعض عمالتها[125].

من هذا المنظور، غدا برلسكوني إثر انتخابه في إيطاليا بما عناه من تحويل لقدراته في إدارة المال إلى الحقل السياسي "نمطاً من عالم الكيمياء القديم بدمجه الخارق ما بين الشركة والوطن"[126]،

في الوقت الذي تبحث فيه الدولة القومية المزعزعة عن نفس جديد من خلال استراتيجيات إدارة الأعمال.

ففي كل مكان، ينزع "حزب الأعمال" إلى القضاء على الأجهزة القديمة المنهكة، التي ربما استهواها اللجوء إلى وكالات الدعاية للرفع من شأنها، باحثة عن شعار جديد، كما فعل الشيوعيون الفرنسيون في ربيع عام 2001 (127).

في كل مكان، نشهد اجترار العقيدة السان سيمونية التي كانت تهدف لتحميل المهندسين مسؤولية الأعمال، فها هم قادة الصناعة الكبار، وقد تملكهم الكبرياء يطالبون بتسليم مقاليد الدولة (مثل: أرنست أنطوان سيار رئيس أرباب العمل الفرنسيين الذي أثاره وصول رئيس مجموعة كوكاكولا لرئاسة الدولة المكسيكية فأدان أحزاب اليسار واليمين معتبراً أنها مذنبة بانتمائها للعالم القديم مقترحاً تعويضها برجال أعمال وكأنه يصرخ قائلاً: "دعوا لنا الأمر").

فالعودة إلى الاستثمار تنزع إذن إلى أن تصبح المقياس الأوحد لتقويم القارات والثقافات. ويلوح في الأفق الاتجاه إلى اختفاء الأمة.

وقد كانت الإطار الوحيد إلى حد الآن لممارسة الديمقراطية. ويكون هذا الاختفاء أحياناً في صالح نموذجها المصغر الذي هو الجهة، مع أن الجهة لا تخلو من الفظائع نفسها التي تعاني منها

الدولة القومية كما رأينا في منطقة الكورس أو في البلاد الباسكية، حتى ولو كانت الصورة أجلى في المجموعات الكبرى.

ففي مقابل أنماط التعاضد المدنية والقومية التي لها دوماً أساس انتروبولوجي (أمانويل تود)، يقوم رأي عام "معولم" ملتحم بنفس الرباط إزاء السوق وقوانينه.

فنحن نعيش في وهم انمحاء عاجل للحدود، وهو سراب تصونه قوى كبرى واثقة من حدودها، ومتيقنة من أسطورة الرأسمالي العبقري من حيث هو البديل الملائم للزعيم السياسي.

وكما يبين جان بيان مسيار فإن الشركات مؤهلة أكثر من الوزراء ونواب البرلمان من تحديد ما هو مهم؛ لأن "الرأسمالية " تتضمن في ذاتها، ربما بصفة وراثية (كذا ورد) القدرة على اعتبار مصلحة المجتمع بأكمله، وفي الغالب لا يعترف بهذه الفضيلة إلا للسلطة السياسية باسم الاقتراع العام "[128].

إننا ندين بحق تدخل الإدارة في الصناعة، ولكن بأي حق يتدخل أصحاب الشركات الكبرى في الحياة المدنية وفي المعترك السياسي وكأنهم أكثر شرعية من حيث وظائفهم من النواب المنتخبين شرعياً؟

كما أنه لا دليل يدعم التفاؤل التجاري الذي يرى في التبادل وسيلة للتقريب بين البشر وإنهاء خصوماتهم.

فمقولة "Catalaxie" التي ابتدعها حايك وتعني لديه تحويل

الخصم إلى صديق بفضل السوق، وإن كانت جذابة إلا أنها قليلة الجدوى. أو هي على الأصح محرد يطوبيا، أي أمل باكتشاف ما كنا نبحث عنه طويلاً من علاج للجنون البشري[129].

فالوسط المالي الرفيع إن كان ضمن في أوروبا بعد 1815 مناخاً من السلم النسبي، إلا أنه لم يتمكن فيما بعد من تجنيبها اشتعال الأهواء القومية ومذبحة 1914 (رأى جورج باطاي في الحربين العالميتين مظهراً للإسراف في تبديد الثروات، أي نمط من البولتاش على المستوى الكوني بعد قرن من التراكم).

ولقد أخفقت بدورها التجارة اللطيفة الأثيرة لدى مونتسكيو في احتواء الاندفاعات العدوانية.

وحسب علمنا، لم تنقص الصراعات المسلحة منذ 1989 حتى في تخوم أروبا المزدهرة حيث ظهرت من جديد منذ عشر سنوات.

وحسب عبارة صامويل هانتغتون الصائبة، لم تحل المنفعة أبداً دون النزاع، ولم يحد الاندماج الاقتصادي أبداً من خطر المواجهة[130].

انظروا إلى الطائفة اليابانية آوم، وإلى آخر جيل من الانتحاريين الإسلاميين، إنهم ينحدرون كلهم من عائلات بورجوازية غنية: فالرغبة في القتل والعدمية والجنون مظاهر لا تختص بالفقراء بل تمس الأغنياء أيضاً.

وبعبارات أخرى، إذا كان السلم يشجع التجارة، فإن التجارة لم تضمن أبداً السلم.

يمكن بالتأكيد التبشير حسب الشعارات الرائجة بالتبادل العادل، بـ"المقهى الأخلاقي" والبضائع "made in dignity" إلا أن ذلك لن يمنع من أن المفاوضات التجارية الدولية الكبرى ستظل معارض خصام، ومعتركات ضارية، حيث تتنازع بلدان صغيرة وكبيرة حول بعض النسب المئوية بنوع من الحدة لا تعطي الانطباع بحصول الوئام بين المتعاملين.

فمن المستحيل إذن تصور السوق بصفته عامل قمع أو تحرير. إنه العاملان معاً، يهدف للتقدم كما يسعى للظلامية أيضاً. يقيم الصلة بين البشر، دون اتفاق، يقرب ما بينهم دون أن يشد بعضهم لبعض، يدعم التفاهمات المؤقتة والسطحية، يولد بدوره أنماطاً جديدة من الإحباط.

لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يكون المدخل الأوحد إلى عالم يسوده السلام، وإنما أحد أركان هذا العالم على أحسن تقدير.

ويمكننا القول بقلب شعار شهير إن التجارة ليست عالماً ولا تصنع العالم ولا تترجم سوى جزئية محدودة من العلاقات الإنسانية: فالمعاملات الأبسط في الظاهر لا تخلو مسبقاً من عدوى المشاعر والهيجان والانفعال.

الحرية المطلقة:

"إنكم مجامع لا يعرف بعضها بعضاً"! هكذا يتحدث الكاهن والمحامي والمناضل. فبؤس العبودية بالنسبة للأول يتمثل في البعد من الرب، والاهتمام الزائد بمتاع الدنيا. ويتمثل بالنسبة للثاني في اكتشاف حكم مسبق خطير حكم به على شخص يمكن أن يكون زبونا. ويتمثل بالنسبة لثالث الثلاثة في الاستكانة للفوضى القائمة.

فأحدهم يرنو للخلاص، وآخر يهدف للإصلاح، والأخير لمجيء العدالة ولو عن طريق التمرد.

ولئن كانت عبارة عبودية فظة إلا أنها أيضاً محيرة: ماذا لو كنت مسترقاً دون أن أدري فنحن في مجتمعاتنا الديموقراطية، التي تتمتع بسلطات مضادة، نخضع لكل الأنواع الصغيرة من الاستبداد التي ليس الاستبداد المالي بأقلها شأناً.

ومع ذلك فإن وصف مواطني الغرب بأنهم كالبهائم المستغرقة في المتع (على شكل شكوة ياغورت تديرها الطبقة الوسطى حسب عبارة جيل شاتليه) يقوم على خلط بين أمرين: الحريات التي تتسم بالتعددية وتشمل ميادين متنوعة، والسيادة التي تقترض قوة قاهرة لذات مطلقة.

فالحرية دون معايير، هي الحلم الكبير المراهق الذي يجتاح اليوم أروبا ويدعو إلى أن لا نعمل إلا ما نرغب فيه، ولا نستجيب إلا

لرغبات مزاجنا وسلطة الميول العابرة. إنه نوع من التطرف الإباحي الذي يذكر بتمتع السيد الإقطاعي الكبير.

تمر بنا هنا جملة اسبينوزا الجلية والمقلقة: "الحرية هي إدراك الضرورة" مما قد يعني إما أن على الحرية أن تخضع لما يتجاوزها أو أن عليها أن تراعي المحنة لكي يسهل عليها مواجهتها. فمعرفة المرء لحدوده هي أفضل طريقة لتجاوزها. ولا أحد بمقدوره أن يبرهن لي على أنني مستعبد، كما ليس بمقدوري أن أقنع أحداً بحريتي. فلا الاستغلال ولا العبودية التامة بمقولتين ملائمتين لوصف الحرية الإنسانية، التي هي الإمكانية المتاحة لكل أحد للخروج من نسق ما، أو طبيعة، أو غريزة، أو أصل؛ فالعبارات من قبيل "إنكم عبيد، خنازير، عجول" هدفها الأساسي هو حمل الناس على الخجل من وضعهم.

فعندما يصرخ أحد المناضلين السابقين في الحركة الموقفية الراديكالية متحدثاً عن فرنسا " تتصاعد وتيرة الخنوع" بسرعة مخيفة" فإنه يفكر على الرغم منه على طريقة معاهد قياس الرأي المسؤولة عن استقصاء معنويات المنازل.

فهل ثمة مقياس عالمي لتحديد مستوى الخضوع والغضب ونسبة السعادة الصافية؟

بذا نعوم في الوهم الإحصائي، وكراهية هذا الشعب العصي على نصائح أولئك الذين يريدون تربيته.

يمكن دون شك أن نشرح للفرنسيين والألمان والإيطاليين بأنهم سخيفون، قذرون وصغار: فننسى عندئذ أن النظام الاجتماعي يبقى قائماً؛ لأن أغلبية من الناس تستفيد منه، وبذا يتضح أن الكراهية الثورية للعامة تساوي بغض البورجوازيين الكبار لها.

فماذا يبقى إذن من النزعة السياسية؟ السخرية والندم.

الجزع من أن التاريخ قد تنكر لك، والإحساس بالمرارة تجاه الحياة المستمرة، والرجال والنساء الذين يتشبثون بالضحك والحب والبكاء ويتهكمون من هؤلاء الشباب الكهول الذين يقدمون لهم النصائح الأخلاقية.

الخلط بين الأنظمة:

إن الأنظمة السياسية التي غدت تتحكم فيها قوانين السوق لوحدها تنحط بصفة مذهلة، فيغلب عليها شراء الأصوات والإسراف في الإنفاق، كما أثبتت الانتخابات الأمريكية الأخيرة[131].

فعندما ننظر إلى الانتخابات من زاوية قصر برونيارت، أو من ويل ستريت، أو ستي، نراه مجرد شكليات. فالسياسة أصبحت خدمة نطلبها أو نزيحها بحب الحاجيات. لقد انتهى هم المصلحة العامة، ونشوة الانخراط في أمر يتجاوز ذاتيتنا: الرفاهية والوفرة قبل كل شيء[132].

في السابق كان التقابل بين الملحمة الثورية والنثر البرلماني، أما اليوم فيفضل الترفيه الإعلامي على السأم الديمقراطي: "أتوجس أن الجمهور أصبح يعتقد أن الحوارات حول الضمان الاجتماعي والضرائب والتربية حوارات قاتمة، فلم يعد بالإمكان تقديم الأخبار في شكل رصين، فالجمهور تعود على الترقب والاكتشافات المثيرة والأمور الخارقة"، كما كتبت معلقة إذاعية أمريكية بعد حادثة لونيسكي.

إن الديمقراطيات الغنية تعمد في الغالب إلى التقاط ما يحلو لها في العالم وإهمال الباقي عندما تكون قد استمرأت اللامبالاة ولم تعد تهتم بالمخاطر المتزايدة التي تهددها.

أما الشركات الكبرى فلا تعبأ بحقوق الإنسان، ويمكنها استغلال النساء والأطفال دون وازع، كما يمكنها التعامل مع الأنظمة الاستبدادية أو الكليانية.

(وقد رأينا على سبيل المثال شركة اينوكال البترولية الأمريكية تغازل حركة طالبان التي كانت موافقة على مرور أنابيب النفط الآتية من آسيا الوسطى بإقليمها).

فمن الخيال الفكري المجنح والتنكر للحقائق الاعتقاد مثل ميلتون فريدمان أن السوق تعمل على تحقيق تجانس المصالح الفردية بنوع من المطابقة العفوية، بحيث أن اللامبالاة المتبادلة والانكفاء على الذات يشكلان أفضل ضامن للسلم، أو الكتابة مثل

بيار مانينت إن قواعد السوق تقتضي إخضاع الوظائف، لا إخضاع الأشخاص.

ويذهب مانينت إلى القول "صحيح أنه في بعض الحالات يمكن لفرد ما أن يستفيد من تقدمه الوظيفي لممارسة سلطة اعتباطية على القديم، صحيح أننا نشهد في بعض الحالات بروز رب عمل على غرار الحكام المطلقين، ولكن مثل هذه التصرفات المؤسفة دوماً ستقصى تدريجياً بفضل لعبة التنافس الطبيعية التي تقتضي مسلكاً عقلانياً"(133).

إن مثل هذه المزاعم تفرط في التفاءل، وتتجاهل خطورة أن عالم الأعمال هو أيضاً عالم الابتزاز والعنف والأهواء والشللية. لقد لاحظ ريمون آرون منذ الستينيات الطابع الوهمي لديمقراطية المال التي هي دوما فضاء قهر وتسلط ينعدم فيه الوضوح (حتى ولو كانت الأساليب الجديدة في التسيير قد منحت مبادرات أكثر للعمال).

"الحمقى وحدهم هم الذين يمكنهم الاعتقاد أن للأسواق ضميراً، الحمقى وأساتذة كراسي الاقتصاد"، حسب قول جورج سوروس، وهو من أهل الذكر في المسألة.

وكما أن باسكال طلب من العقل "استبطان عدوه في داخله" فإن على النظام البرلماني السعي للإطاحة بنقائضه: الذوق التنافسي، الجشع المالي، حب السلطة في ضبط نوازعه التي يمكن أن تقويه إذا تحكم فيها.

فالرأسمالية والديمقراطية ينممان بعضهما أكثر من كونهما متكاملتين. ويدعمان بعضهما بقدر ما يتعاكسان، تقوم بينهما علاقات تآزر تنافسي، ويتمثلان في نمط من التشابه الزائف.

ولكن عندما يتوافقان، تحصل المعجزة، كما حدث في أوروبا الغربية منذ 1945: أكثر من نصف قرن من السلام والغنى، أعجوبة خارقة لم تعد تثير اهتمام أجيالنا المدللة.

وفي هذا الزواج بين الماء والنار، يتعين على الديمقراطية أن تعيد الرأسمالية إلى الاهتمام بالمصلحة العامة، وعليها أن تروض هذا الوحش حتى يظل في الاتجاه السليم، بأن تحتويه بالمعنى المزدوج للعبارة: بأن تطوقه وتحد منه.

فالاقتصاد إذا أراد أن يصبح رافعاً حضارياً، لا بد له من الاستناد لمؤسسات تضمن الفصل بين النظم والسلط وتحمي الأفراد من جروح المنافسة.

إن "ديمقراطية السوق" تؤدي إلى إفساد الديمقراطية، بوضعها منزلة الشرعية في المؤسسة وليس في البرلمان، ولا تعرف إلا نمطاً واحداً من المواطنة هو نمط المستهلك المساهم الذي يقدم مصالحه الخاصة، وشهواته الخاصة انطلاقاً من مبدأ "ليهلك العالم شريطة أن يربح المتجر".

إنها أخيراً تقضي على الفكرة الوطنية التي أصبحت مصفوفة في مخزن اللوازم المهجورة لصالح التجمعات المحلية والجهوية

المؤسسة على الصلات والمصالح المشتركة. بيد أن الانتماء لأمة "لا يعني الانضمام لشركة تأمين، فمثل هذه الشركة يمكن أن تكون لها علاماتها الخاصة وشعارها الإعلاني، ولكن العلامة ليست رمزاً قومياً، والشعار ليس نشيداً وطنياً. علينا أن نتساءل عن ثمن حرمان المواطنين من البعد الرمزي لانتمائهم القومي"(134).

لأن هدف الوطن ليس تحقيق الربح، إنه جسم تشكل عبر التاريخ، بني على ذاكرة مشتركة، هدفه الحفاظ على كيانه وتأمين استمرارية تراثه (وإن كان بإمكانه السعي لأن يصبح قوة اقتصادية).

فحيث ما يكون فراغ السلطة، وضعف الدولة، ينبثق الخواء والإرهاب، اللذان ينتهيان إلى تهديد البلدان المجاورة والنظام العالمي.

وإلى حد الآن، حتى لو كنا نتأرجح بين حكومات فقدت جانباً من صلاحياتها وأوروبا سياسية لم توجد بعد، لا نزال نمارس حريتنا الجماعية عبر دول قديمة ونحس بشعور المواطنة بفضلها، أي من حيث كوننا مشاركون في السلطة.

فالأمة تظل ضرورية، بل لا سبيل لتجاوزها، ما دامت تنقل الأهواء والقيم، وتشكل الإطار الأمثل لتحكم مجموعة بشرية ما في مصيرها.

فلا أحد يكون مواطنا في العالم أو في السوق، ولكن دوما مواطنا في دولة تحمي حقوقه، وتحدد له واجباته، وتدمجه في نسق ميراث يربطه بكل البشر الغابرين والآتين.

إن الأمة هي إذن هذا المجموع المتفرد الذي أصل عبره للكونية، إنها عقد وإلزام بين أفراد في إطار روح عامة موروثة من تقليد عيش مشترك.

ولا ينتج عن إذابتها الفظة في محيط أكثر اتساعاً، أو التضحية بها على مذبح المصالح الاقتصادية سوى تشجيع كل أشكال النكوص المحلية والجهوية والقبلية، بدلاً من الوصول للعالمية: ومن هنا كانت جدلية القمر الصناعي والجرس التي تضبط مبادلاتنا مع الخارج؛ لأن نشوة النفاذ إلى البعد الكوني تمتزج بالخوف من الاختفاء في اللامتعين.

شراهة الخير:

ها هي الشركات الكبرى قد اختطت لنفسها مؤخراً مهمة تبشيرية. فالسذج الذين يعتقدون أن المصنع ينتج سيارات أو مشروبات غازية يرد عليهم أن هذه البضائع المبتذلة يمكن أن تكون أيضاً مقام مغامرة روحية أكثر سمواً.

وهكذا نشأ طموح كبير هو الأتيقا الصناعية: مصانع المواد الكيميائية والتغذية والنسيج تحولت إلى أنبياء جدد تسن منذ الآن

وصاياها العشر، وتطمح إلى تعويض الديانات والفلسفات في هذه المبادئ التي كانت تختص بها.

ويمكن أن ننظر بطريقتين إلى هذه الأوامر الأخلاقية: سواء بإدانتها باعتبارها إستراتيجية تجميع وتكديس لا إيمان ولا أخلاق فيها تقوم على التظاهر بلباس الداعية لإخفاء الممارسات غير المشروعة والفاضحة، ومن ثم اعتبارها طريقة لتوظيف الفضيلة والبيئة لصالح الروح التنافسية من أجل حفز وتعبئة المستخدمين واستمالة الزبناء (جيل ليبوفتسكي)[135].

ويمكن في المقابل أن نرى في هذه العملية التجميلية فخاً ينصبه عالم الأعمال لنفسه، مهما كان الطابع الاصطناعي للشرائع التي يستنها، إلى حد السقوط في "خصخصة مبدأ القانون" (ميري دلماس مرتي)، إنه بذا يعرض نفسه للخطر وللمقاطعة إن هو خان معاييره الخاصة: مثل ما جرى لشركة نايك المهتمة بتشغيل أطفال العالم الثالث في معامل الاستعباد Sweatshops.

فهذه الشرائع هي في آن واحد حجب دخان، أنساق تشريعية خاصة صيغت بطريقة تمييزية ودون رقابة، ولكنها أيضاً ربقة تصنعها الشركات الكبرى حول عنقها.

توثق قيودها بذاتها، وتنذر نفسها بما يتوعدها من إدانة معاهد التقويم التي توجه "الاستثمارات الأخلاقية" فأداة سيادتها تصبح أداة هشاشتها[136].

فما يكشف عنه السلوك الاجتماعي السليم ليس ورع كبار أهل المال وإنما شهوانياتهم المحمومة بالمعنى الرمزي وليس بالمعنى المادي. فهاهم يقدمون أنفسهم مشرعين جداً، مترجمين للوعي العام، منتجين للمسلمات، ناشرين للمعايير.

فلم يعد يكفيهم الاستيلاء على أسواق: بل غدوا يطمحون لامتلاك مواقع الروح اللامادية، بحيث يحلون رويداً محل المدرسة والأحزاب والروحانيات، ويحددوا ما هو جيد وما هو خير.

لقد بدأنا نحس أن الاقتصاد يريد أن يحتوي على كل القطاعات التي تفلت من قوانينه، ويود أن يكون أكثر مدنية من الدولة، أكثر اعتناء بالبيئة من الأحزاب الخضر، أكثر رأفة بالناس من الصليب الأحمر، أكثر لطفا من الكشافة، أكثر ورعا من الكهنة.

يحدث ذلك عندما يجعل أرباب العمل من بضائعهم مظهراً للتجلي الرباني، ومن مخازنهم معابد إيمان، وعندما تبين آديداس أنها "تحول الإنسان إلى أفضل" وعندما تشرح لنا دانون أنها "توطد سعادتنا" وتدعي لفيس أنها تشجع الحرية ("ستنتهي الحرية في يوم ما إلى الوصول لكل الناس")، وتؤكد نايك أنها تسعى لتهذيب النفس. وتدعي بنتون أنها تناضل ضد العنصرية، وعندما تستخدم آبل كبار المفكرين ("التفكير بصفة مختلفة") وعندما تستشهد لاكوست بجملة لنيتشة ("كن من أنت") وعندما تكون ستاربوكس

تبيع "تجربة" لا قهوة، بمعنى أنها تقدم قليلاً من نكهة أوروبا القديمة، وعندما ترفع منتوجات الغسيل شعار الدفاع عن البيئة.

ولكن عندما يرتدي العطار جبة الشاعر أو النبي، فإنه بذلك يحط من قدر الشعر والنبوة إلى مستوى العطارة.

فمهما قال، هو على خطأ، شأنه شأن فلاسفة الشركة الذين يضفون مفاهيم جميلة على استراتيجيات أرباحهم.

لقد كان دوماً دور الإعلان الترويجي منذ إنشائه هو إعطاء شخصية للمنتوجات، بل منحها بعض السمو.

فحتى لو باعت مؤسسة ما ميزة أو صورة في بيعها لعطور أو أثاث، فلا يعني ذلك مطالبتها بسن القيم وإرشادنا للطريق السليم.

إن عالم الأعمال هو دون ريب سلطتنا الروحية الحديثة، بزيه الخاص، ولغته وشرائعه وتائبيه من الزلل (جيمي غولد شميت وجورج سوروس). بل وزهاده مثل ميشال كامدسيس الذي رجع للرب بعد عبادة مامون[137].

ولكن هؤلاء القادة الكبار بقدر ما هم ليسوا فنانين ولا نجوم روك - حتى ولو أن بعضهم يغازل عالم الأضواء Showbiz فإنهم ليسوا أيضاً زعامات روحية.

إنهم رجال أعمال، وعباقرة أحياناً، وهو أمر لا بأس به. ومن غير اللائق أبداً أن نستمع إليهم يتكلمون في الحب والخير

والرحمة، أن نراهم يتنكرون في شكل الحمل الوديع، متملقين ومكفرين عن ذنوبهم بالصدقات.

إن عبارات التزلف والرياء التي يستخدمونها ليست فقط عديمة الجدوى، بل تكشف خصوصاً عن إرادة هيمنة. وكأنهم وقد أنهكتهم سطحية مغامرات اللعبة الرأسمالية، يريدون الآن المرور بتجربة إنسانية أكثر اتساعاً. شاعرين بموجة روحية حقيقية تجرفهم.

فهؤلاء الشيوخ القدوة في الاستقامة يقسمون لنا بأن هدفهم ليس بيع مشروبات أو سراويل وإنما بيع السعادة والعاطفة والتضامن.

وقد بالغت شركة بنتون في هذا النزوع إلى حد الوقاحة بإظهارها صور جرحى الحرب ومرضى السيدا والجائعين، كل ذا لأجل بيع كنزات وطاقيات بسعر زهيد مع إعطائنا زيادة على ذلك دروساً في الأخلاق!

إن الشركة الحديثة تريد أن تكون مدينة مشرقة ورحم عالم بلا آثام، بيد أن هدفها هو وضع المعايير التي تكون في صالح رجال الأعمال، والأسلحة التي تستخدمها -خصوصاً إذا تعلق الأمر بشركات المتعددة الجنسيات- هي: الضغوط وإرادة القوة والتجسس وكذا الرشوة والجريمة. وليس في الأمر أي "غرابة"، إن بقيت قواعد اللعبة في حدود دائرة معينة، وإن حصرت هذه "الرذائل الاستثنائية"في نطاقها.

فهلا أشفق علينا رجال المال فجنبونا مواعظهم.

أحسنوا العمل الذي أنتم مأجورون لفعله، ولا تعملوا الخير من فضلكم[138].

اسعوا لجمع المال، ولا تسعوا لسعادة الناس.

اكتفوا بربح أسهم في السوق، وكفوا عن التنكر في زي الزعامة الروحية. ففي كلرمون فيران كان يولد المرء في أحضان ميشلان، ويتنفس في أحضانها ويموت في أحضانها (فقبل 1968 كان من اللازم طلب إذن رب العمل قبل الزواج).

وفي أيامنا أصبح المصنع يمارس وصاية "أمومية" : يستميل الزبناء ويجندهم بسهولة في معسكره، يغريهم ويغطيهم ويداعبهم.

بيد أن الرأسمالية ماكينة دنيوية قادرة على تحويل كل شيء، الحب والهواء والجمال، لصالحها. تلك هي عبقريتها وحدودها. فلنحذر من جعلها كنيسة، وعلينا أن لا نطلب منها أكثر مما هي: ناجعة ونفعية.

فحين تغدو عاطفية وتفرز أبعاداً روحية إضافية تجلب عندئذ غثياناً خفيفاً دائماً. ففي السابق كانت هوية المرء تحددها ستونس أو بيتلس، سبيرو أو تنتين، موتو أو فيلو فهل سنصبح نحن نايك أو ريبوك.

هل سنموت من أجل بيبسي أو كوكا، وهل سيكون لكل ماركة قبر زبونها المجهول؟

فـثـمـة فـرق بين أن يتكلم الجـشع بلغـة القـانون والمواطنة والإنسانية لمواصلة الحرب الاقتصادية بوسائل أخرى وأن يخرج من كفاءته لإدارة الإنسانية في مجموعها.

فهذا الإخلاص يشبه إلى حد الالتباس الافتراس الوحشي، ويماثل سيطرة الدولة المستبدة على المجتمع المدني، أو افتكاك السلطة برفع خادع لشعار الحب والضمير.

ذلك أن السوق لا يرتدي مسحة إنسانية، أو يكتسي دلالات لطيفة، إلا من أجل اكتساح عوالم جديدة، ولأجل السيطرة على حياتنا النفسية وجوانب عيشنا الحميمة.

فبقدر ما يرخي العنان في الظاهر، ينتشر على نطاق واسع بفضل كل أنواع الحكم المؤثرة.

وقد نشهد في المدى المنظور خصخصة المتاحف وتحكم بعض الماركات الكبرى في التراث الكوني: فنشى وروبنس وغويا وفان غوخ في خدمة ميكروسوفت أو LMH.

أولاد مدللون، أولاد مشمئزون:

ثمة خوف إذن من أن يكون الدخل القومي مقياساً للديمقراطية، وإن تقلص في حدود قطاع تسييري أو في حملات مستهلكين يصوتون بمشترياتهم وباختياراتهم أو تحفظاتهم.

ذلك هو مصدر غموض الصراع الدائر ضد الماركات في أمريكا الشمالية: فهل يتعلق الأمر بحركة سياسية حقيقية أو مجرد نزعة تجارية متطرفة لدى أطفال مدللين[139].

فلا يتعلق الأمر في هذا النوع من السلوك النضالي بتحطيم الإغراء الإعلاني أو إهماله، بل يتعلق باحتجاج مشترين محبطين، بعبارات منمقة يطلقها مدمنون أقسموا على أن لا ينخدعوا من جديد.

إنهم أناس أصابتهم تخمة الإعلانات التلفزية والمجمعات التجارية، وها هم اليوم يطلبون مدة إهمال قبل أن تستغرقهم من جديد المعزوفة الرديئة نفسها.

بيد أن المستهلك، حتى ولو كان فطنا، ليس تماماً بالمواطن: فمن الجيد الكشف عن المكايد المنصوبة في عقد من العقود أو التحقق من نوعية أو أصالة منتوج من المنتوجات، ولكن الأمر لا يتجاوز دور الزبون.

فالتربية السياسية بمعنى التمرن على ما يسم النشاط الإنساني من تعقد ومأساوية لا يمكن أن تعوضها مهارة وبراعة الفتية الصغار الذين تدربوا منذ نعومة أظفارهم على التلاعب بالرموز وعلى التغني بالإعلانات أو رفضها، وعلى عدم الاغترار بالماركات التجارية التي هم مع ذلك مفتونين بها.

"إن مصيرنا لا يتحدد فقط بسعادتنا الشخصية، وإنما

بتسامينا واكتمالنا، والحرية السياسية هي أقوى وأنجع وسيلة اكتمال منحتنا إياه السماء" (بنجامين كونستان)[140].

فالسياسة شكلها شكل الثقافة توفر للبشر مطامح أكثر اتساعاً من مجرد مذاق الثروات.

صحيح أن النشطاء الأمريكيين قد حولوا شعور الارتياب من الدولة إلى الارتياب من المؤسسات الكبرى التي ترتكب ذنباً مضاعفاً بغلوها في امتلاك السلطة وممارستها للاحتكار، مما يصدم عقليتهم الفردية. بل يمكن القول إن رفضهم لل"حكومة الكبرى" Big governemnent هو سبب اشتباههم في الشركات المتعددة الجنسية. وفي المقابل يتعصبون دون تبصر لماركاتهم المفضلة، وكأنهم يلتمسون في آن واحد التحقق من إمكانية الاستمتاع بالبضاعة دون زلل أو انقياد طفولي أو جريمة بيئوية، والتحقق أيضاً من أن البضاعة تفي بوعدها فتحقق لنا ما تدعيه تلك الشعارات من ديناميكية وحيوية.

فالماركات إذن تمنحنا هوية حركية، سائلة، قابلة للتحوير بحسب إرادتنا. فلو كان من الصحيح أن هويتي هي ما أشتري، فإن هذه الهوية تتنوع بتنوع مشترياتي، مثل هؤلاء الشباب المدعوين بضحايا الموضة، fashion victims الذين يغيرون جلدتهم كل شهر وكل يوم.

فعندما تعدنا شركة النظارات بأننا "سنكون متفردين

بلا شبيه"بارتدائنا منتوجاتها يؤول الأمر بنا إلى أن نشبه الجميع مادام آلاف البشر سيقتنون النوعية نفسها.

إنه التميز المستعار ومثاله إعلان ترويجي لنظارات سويسرية من نوع باتيك فيلب يقول: "أي نمط من النساء تريدين أن تكوني في الساعات الأربع والعشرين القادمة؟"

فمن يصدق بالفعل هذه الهوية المنتجة صناعياً؟

فجنود الترف الضائعون يشعرون بالمرارة عندما يلاحظون أنهم لم يتغيروا بشرائهم زوج نعل معين أو بشربهم زجاجة كوكا، بل بقوا على ما هم عليه دون أمل في التغيير:

فلقد خدعوا إذن ولم يتحقق البعث الذي طال انتظاره.

ومن شدة خوفهم من أن يعتبروا أغبياء، آثروا إعطاء الدروس لهذه الشركات التي يتوقعون منها منحهم التجدد والتألق.

فهم وإن قاطعوا هذا العالم وحادوا عنه مؤقتاً، مرتبطون به أوثق ارتباط، بحيث إن بعضهم لا يتردد في ممارسته "الوشم الترويجي على الجسد" Human branding بأن يثبت شعار نايك على ذراعه، أو شعار لفيس على أردافه، محملاً جسمه انتماءً تجارياً.

فعلى سبيل المثال: نظمت مجلة "آد بسترز" الكندية نصف الشهرية التي تحارب الغلو في الاستهلاك أياماً بعنوان "لا تشتروا

شيئاً اليوم"، ودعت إلى "أسابيع دون تلفزة". إن الأمر هنا لا يعدو مظهراً ساطعاً لنقمة وتململ هذا العالم الغربي الأمريكي الشمالي الذي غرق في التجارة والترفيه إلى حد لم يعد بمقدوره أن يواجههما إلا بفترات صوم مؤقتة، مثل: حال المصابين بمرض الشره الذين يمتنعون عن أكل السكريات لكي يلتهمونها من بعد بنهم.

فالحكمة تتمثل في تعليم الأطفال ضوابط التفرج على التلفزة، أي النظر إليها باعتدال. كما تكمن في تنويع مراكز اهتمام النشء، بتنبيهه إلى جمال العالم، وسحر القراءة والرسم والموسيقى، وفتنة السرد، حتى لا يتقلص وجود الأجيال القادمة في المتع التجارية الفقيرة، من ألعاب فيديو ومسلسلات ومشاهد الوقائع الكوميدية Sit-coms وباختصار، باستثناء حالات نادرة يكون فيها الاستهلاك واجباً مدنياً وطنياً، فإن هذا النمط من النشاط الاحتجاجي يفضي إلى هوس بالأشياء بدل تحريرنا منها.

إنه ربما أشعل ثورة لكن هذه الثورة تظل داخل عالم التجارة. فالسلطة المضادة للمشترين تعني مزيداً من إتقان قواعد اللعبة وليس نبذ اللعب.

فالمواطنة تكمن على عكس هذا الموقف في قبول الفرد تعليق رأيه الخاص من أجل اعتبار المصلحة المشتركة، وفي توسيع مداركه العقلية، وفي دخول المجال العمومي، حيث يتحدث البشر ويتصارعون، ويؤثر بعضهم في بعض حسب قواعد دقيقة.

كان كل شيء يوحي بأن المستهلك أصبح الكلمة الأخيرة في المغامرة الإنسانية، ويتخذ من الأجير والإطار والعامل الأسري، خصوصاً إذا كان بإمكانه أن يدير شخصياً الإنتاج لفضل شبكات التسويق الرجعي Retromarketing، بحيث يكون بمقدوره تلبية شتى الطلبات والخدمات في الوقت المناسب.

فهل الإنسان المستهلك هو المرحلة القصوى من تطور الإنسان العاقل؟

ونلمس هذا النزوع لتقليص الثراء الإنساني في عملية التسوق المحدودة حتى لدى العديد من النقاد الحاليين للرأسمالية مثل: جريمي رفكين و روبير ريتش.

إنهم يرون في التسوق النموذج الأعلى للحرية، وكينونة العظمة، ويحاولون إيصالنا شعورهم بالصداع إزاء الحجم الهائل من الخيارات المتاحة.

ولكن الزبون يكتفي بالبحث عن إمكانات صاغها قبله آخرون، ويسعى لانتقاء أحدها. أما الذي يصنع وجوده، فيتعين عليه اتخاذ قرارات تلزمه، لا يعرف مسبقاً نتائجها.

ففي الحالة الأولى يكون اختياره مملى، ونوعاً من الحرية المموهة التي مضغت وهضمت من قبل، وفي الحالة الثانية يكون الخيار مبني.

ففي الاستهلاك، كل شيء معطى من قبل وذاك مصدر إغرائه،

وفي الوجــود لا شيء مكتــوب سلفــاً ومن هنا الميل إلى تحــويل الاستهلاك إلى نمط حياة، وإطار رعاية شاملة؛ لأنه قدره بوجه إنساني يريحني من مسؤوليتي.

فلم تعد ثمة حاجة للتكوين الذاتي من خلال إعداد النفس، فتكفي المقارنة والذوق وقطف الثمار، فذا يغني عن باقي الأبعاد الإنسانية.

ففي الوجود، أنا مرغم على تصور خيارات مؤلمة تحسباً للأخطاء الخطيرة، وفي الاستهلاك أغترف من جنة خالدة، فأستمتع بتجريب كل شيء، وبعزف ما لا حد له من الألحان.

ومع ذلك، لا شيء أكثر شؤماً من رواق تجاري يكون الأفق الأوحد والطموح الوحيد لملايين البشر.

فما أتعس هذه المدن الصغيرة الكثيرة في أمريكا الشمالية وأوروبا التي تتوزع ما بين السكن الخصوصي والمجموعات التجارية الكبرى، حيث لم يعد الفضاء العام سوى الشارع، أو الطريق الذي يصل أحدهما بالآخر.

إن يطوبيا السوق المتجانسة والكونية الرابطة ما بين القطب الشمالي ومنطقة باتا غونيا ليست سوى أحلام مجنون. ففي مقابل فيافي المتاجر واسعة المساحة وفقيرة الأواصر الإنسانية، يكمن الثراء الاجتماعي للأسواق، ذلك المزيج السعيد من الحوانيت الصغيرة، والبائعين المتنقلين، والصيحات والروائح والنكهات التي تعيد لعبارة (تجارة) دلالتها الأرحب.

فالنـزعة الاستهلاكية تغذي من حيث هي فلسفة شاملة الوهم الذي مفاده أن الشيء يمكنه أن يرضي تطلعاتنا، في حين لم ينفك يثير إحباطنا.

فلا شيء يمكنه أن يحقق لنا الطمأنينة، ذلك أن الطمأنينة: لا يجلبها الشراء بل الفعل والقصد وبناء الذات.

فلا بد من التمييز بين نمطين من الرغبة:

رغبة تحاول أن تقضي على النقص من خلال التشبع، ورغبة تستخدم الحاجة بصفتها عنصراً مقوماً للذات فلا تخشى سوى الشبع والامتلاء.

فالمستهلك النموذجي ضعيف المناعة، عندما لا تتحقق أدنى رغباته يشعر بالإهانة. فهذا الشبعان يشعر دوماً بالجوع، وكلما حصل على مبتغاه زادت طلباته، إنه يعاني من مظاهر العوز نتيجة للاختناق.

فمأساته ليس التعليف وإنما الفطام المستحيل الذي يجعل منه ذاتاً مذبوحة وشاكية، دائمة المطالبة حتى ولو كان فمهاً مليئاً.

فحياته النفسية تتضاءل، وتتقلص إلى حد ما يستشعره من تشنج قصير إثر ارتوائه الذي سيتلوه عطش جديد.

ولقد تحول اللجوء المريح إلى الشراء إلى نمط من السجن الجديد له.

فباعتباره يتجدد بما يلبس ويشرب ويأكل ويسمع فهو بذا يتقوقع في عالم طائش، عاجز فيه عن ضبط أولويات رغباته.

وليس من مصلحتنا أن نختزل التعددية الإنسانية في عباءة المستهلك وحدها، حتى ولو تمرد المستهلك على الماركات كلها.

وعندما نقرأ نمطا معينا من الأدب التجاري والاقتصادي والاجتماعي، نشعر بالذعر من فقر السبل المقترحة ومن رتابة النشطة المذكورة.

وليس في الأمر كبير إشكال، لولا الجهد المبذول لتحويل هذا المنحى إلى يطوبيا باهتة، تضبط حياتنا العامة، وتحولنا إلى حشرات سلبية.

إنها مفارقة المتعدد: فكلما زاد ما بحوزتنا من مئات القنوات التلفزية والإذاعية والمنتوجات والأشياء، مالت إلى التشابه.

فوراء البرقشة الظاهرة، يجري سباق محزن لا اختلاف فيه.

فالملل ينتج عن هذا الصنف من التنوع الذي يطبع عالم الوفرة. إذ لا هدف للاستهلاك سوى الاستهلاك نفسه، وليست له رسالة "حضارية" وإنما يحولنا إلى مستخدمين، أي كائنات غارقة بالكامل في الخيرات المادية لا تعرف سوى لغة المال. فهذا النمط من اللذة يسلينا ويلهينا ولكن قيمته التربوية منعدمة.

فنحن إذن فعلاً سكان المدينة بقدر ما نحن سكان السوق، وما

تعلقنا بالنظام البرلماني سوى تعلق لا محدود بملذات الإسراف والتبذير قبل أي شيء آخر.

وسيكون من الجنون أن نخلط بين الأمرين، وأن نخضع الديمقراطية لإجراءات إدارة الأعمال.

فلقد أفلتت النزعة الاستهلاكية الخالدة منذ أمد طويل من الرواق التجاري لكي تصبح منطقاً شرهاً يريد أن يكون حلاً لكل المشكلات.

فهو لا يكتفي بأن يستخدم لغة الرغبة، لكنه يستعير من أجل الانتشار لغة الصحة والعون الإنساني والبيئة.

وهكذا يستولي الإعلان على السياسة ويفرض عليها صوره وشعاراته ويزعم التلفزيون أنه يسلينا عن الإحباط، ويمنحنا حقوقنا المسلوبة، ويعوض الشرطة كما يعوض المدرسة خصوصاً بإفهامنا أن ما كان بالأمس صعباً سيكون بفضله متاحاً في لمحة عين، كما يدعي التلفزيون أنه يكافئ الجهد والعمل والدراسة.

وبظهر هذا المنطق قدرة لا مثيل لها على احتواء القطاعات التي تمر بظروف أزمة (الثقافة والتربية والتمثيل السياسي)، بحيث يصل إلى شد وثاقها وتحويرها وإفراغها من مضمونها.

ذلك هو أوج الخطاب الحربائي المتلون، الذي بإمكانه أن يعتمد كل الأساليب، ويتلاعب بكل المعتقدات الأخلاقية والسياسية

والدينية، لأنه لا يؤمن بأي منها، كما بإمكانه أن يبتلع أي شيء ولو اقتضى الأمر ابتلاع نقيضه من أجل انتشار أفضل.

فمن المهم إذن عدم الخلط بين الأنساق: إذ لا أمل في هذا الطموح لخلق العالم بإعادة بنائه انطلاقاً من أسسه الاقتصادية، مثله ما شهدناه بالأمس القريب من طموح لصناعة إنسان جديد من خلال قرارات صارمة لحزب جديد.

فالإنتاجية والمردودية والنجاعة مقولات محورية في مجالاتها، ولا يمكن أن تسمو إلى مستوى المعايير المحددة للسلوك الإنساني، إلا بتشويه خطير.

نعم للرأسمالية، ولكن في حدودها المحددة. ولنترك نسق القيم مفتوحاً، حتى لا تنتصر قيمة من القيم على حطام القيم الأخرى.

الجزء الثالث

الانتقام والتجرد

الفصل التاسع

نزع القداسة عن الرأسمالية

"إن أكثر العصور مثابرة، أي عصرنا الحاضر، لا يعرف ماذا يفعل بمجهوده وبماله، إلا إذا كان تحصيل مزيد من المال والقيام بمزيد من الجهد".

نيتشة

"يجب أن نسارع إلى بناء معازل مفصولة بشدة عن بعضها، حيث لا تنفذ أوراق ولا موجات... وداخل هذه المعازل يكون النفور من السرعة والرقم، ومن آثار الجموع والمفاجأة والتباين في الحداثة والسذاجة. فهناك يمكن في بعض الأيام أن نتطلع عبر الحواجز على نماذج نادرة من أحرار البشر".

بول فاليري

يسيطر الشك حالياً على عقول الناس إزاء مزايا النمو والإبداع التقني دون كوابح، ومن شأن هذا التشكك أن يعوض أصنامنا، وربما يمهد لتغيير حقيقي في عقلياتنا.

ففي أوج الحملة الرئاسية الأمريكية عام 2000 تساءل أستاذان للعلوم السياسية لماذا لا يشعر الأمريكيون بالسعادة، على الرغم من الازدهار غير المسبوق.

ذلك أن المظاهر الواضحة لتحسين الظروف المادية لا تتحقق إلا بثمن باهظ قوامه مزيد من العمل ومن القلق، بالتلازم مع انحطاط الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والعائلية، إنها بعبارة مختصرة تؤدي إلى مزيد من إضعاف الروابط الحميمة والجماعية(141).

فالترف من حيث هو مفترس كبير للزمن والطاقة يفضي بالبشر إلى حياة تافهة تتوزع ما بين الجهد والراحة لاستئناف الجهد.

فكيف نفسر كون الرأسمالية لا زالت بعد قرنين ونصف من ظهورها موضوع تقديس؟ وكيف أن هذا الخادم المطيع أصبح سيداً متصلباً يسومنا بسوطه؟

وكيف نفسر بأن الأمم الأغنى في العالم، التي كان من المتوقع أن تتحرر منذ أمد طويل من سيطرة السوق، غدت تهتز عندما يترنح مؤشر النصداك أو النيكاي، ولا تزال مهمومة مستوى الحياة والتضخم؟

وكيف نشرح أن دولتين بدخل قومي مختلف لهما مؤشر العمر المتوقع نفسه عند الميلاد، كما هو شأن الولايات المتحدة، وكوستاريكا؟ ففي حين يقوم الازدهار، تصبح غايته الوحيدة هي الاستمرارية والتمدد، بحيث نصبح خدمه البسطاء.

وهكذا نلج بدايات القرن الحادي والعشرين ونحن في الغرب كحال المجتمعات السابقة غير متحررين من الحاجة، مهمومين بالندرة والفاقة على إسرافنا، دون أن نتمتع بالأوهام الدينية والسياسية التي كانت لدى أسلافنا.

إن المال وكذا الاقتصاد يشكلان دون شك هذه الأشياء المتفردة التي ليست غايات ولا وسائل، ولكنهما يجمعان بين الغايات والوسائل، ويستمدان منهما سمات خصوصية.

نهاية سعيدة:

علينا أن نحتفي عزفاً ورقصاً:

العالم القديم قد انهار، وها هي المعجزة حدثت. هكذا قدمت قبل عشر سنوات طريقة المساهمة المأجورة التي كان من المؤمل منها أن تتجاوز "الانشقاق التاريخي بين مالكي الشركات والعمال" (آلان مينك)، وتقوض الرؤية الهرمية للشغل، وتسمح بربط العمال بوسيلة إنتاجهم.

إنه خبر خارق. مهما كنت قوياً أو بائساً ستصبح رأسمالياً!

لنلاحظ هنا دون مصادرة على المستقبل أن ديمقراطية المساهمين تشبه بشدة الطريقة المسيحية القديمة في التخفيف من المحن القائمة على التبشير بالجنة في الآخرة مقابل الصبر في الدنيا، فهي على المنوال نفسه تعد بالاختيال في نعيم التشارك في السهم مقابل الاقتطاع الفوري من الأجر.

إنها طريقة لتحصيل التوافق والحماس، والاندماج ولكنها أيضاً مسلك لتكميم المطالبات، ولربط مصير الفرد بمصير الشركة. لما لا؟

لكن هذه الطريقة المقترحة عليكم هي في الحقيقة شبح افتراضي وليس تعويضاً دقيقاً وراجحاً.

فهذا الحق في ثروة قادمة يظل مجرد احتمال خاضع لتقلبات البورصة.

إن الرأسمالية عندما تصبح شعبية، يفصل الشعب ويستغل باسم الشعب. عندئذ يتحكم مستخدم البريد في كاليفورنيا والأرملة الإيكوسية في مصير العامل اللوريني أو الكاتالاني أو التريني، بسعيهما إلى رفع نسب المردودية في بلديها.

وهكذا ينشأ نمط من "الأجير المنفصم الشخصية" (أريك إزالويك)، يشغل ذاته بذاته بحيث يصبح أفضل عدو لنفسه.

إنها مشكلة عويصة، أساسها تحول الشعب إلى مستبد ظالم لنفسه، لا يمكنه أن يوجه اللوم إلى غيره في ما يعانيه من مآس.

وفي الوقت الحاضر في فرنسا على الأقل، يشبه هذا الضرب من الديمقراطية أساساً اقتراع دافعي الضرائب: الرؤساء وكبار الإطارات هم وحدهم المستأثرون بالمكاسب في حين لا يلتقط العمال سوى الفتات، أحرى بأن يتملكوا المؤسسات. (في نهاية التسعينيات، كان 70 ألف أجير فقط يمتلكون أسهماً في فرنسا).

ولنلاحظ إلى أي حد يغلب على الرأسمالية هاجس نقيضها: من بيتر دراكر الذي تحدث عن "اشتراكية صناديق المعاش" إلى فيليبماينير الذي اعتبر أن السوق في طريقه لتحقيق حلم "ماركس في السلة" معلناً عودة المواطن! وكأن التوفير الجماعي، والانتفاع سيحققان بهدوء ما لم تستكمله الشيوعية. من بإمكانه أن يقتنع بهذه التأليفة البولشيفية؟

إلغاء نظام الأجر، والانقسامات، تقاسم المخاطر، حركية البشر والمهن: عندما تتحقق بعض طوبائيات الحركة العمالية تتحول بغرابة إلى ما يشبه الكوابيس.

فمن الجيد أن يضاعف العمال مصادر دخلهم، يستفيدوا من التشجيعات والعلاوات، وينتفعوا من جهدهم وتسيير مالهم الخاص معاً، ولكن هذه الأشياء ليست سوى "حركات إثارة" لا تضع حداً للفوارق.

فالنزاع بين الرأسمال والعمل أمر قار لا سبيل لتجاوزه. ومن

الأحسن قبوله من خلال توزيعات دائمة المراجعة بدل من برمجة انحساره الوهمي.

إن نظام المزج بين المساهمة والأجرة يمكن إذن أن يكون مكملاً للراتب أو تعويضاً محتملاً لمعاش هزيل، كما يمكن أن يكون صنفاً جديداً من توظيف المال أو ترياقا جديداً لكل المشكلات.

يتعلق الأمر هنا بالفرق الأساسي بين رأسمالية ذات طابع وجداني تريد القضاء العاجل على الفوارق والتناقضات، ورأسمالية باردة، لها من بعد النظر ما يجنبها الخطابات الجوفاء فلا تتعدى حيز الحلول التوفيقية المؤقتة والقابلة دوماً للمراجعة.

إنهما يفضيان إلى كل شيء يفضي إليهما. ولكن ها نحن بدورنا قد تردينا إلى مستوى ركائز قوة مجهولة لا شكل لها. فهذا الطوطم هو بالضبط ما ينبغي رفضه بدل السخرية من السوق. فعلينا بدلاً من الاكتفاء بإدانته التي ليست سوى تحوير للمرض، أن نخرج من الدائرة الجهنمية التي يلتقي فيها المفتونون بالسوق والساخطون عليه، على خلافهم.

علمنة الاقتصاد:

ثمة عدد من التحديات المثيرة التي تنتظر الفكر السياسي والاقتصادي: من قبيل تحديد حد أدنى شامل من الدخل، إعادة

تعريف مقولة التقاعد الذي يمكن أن يؤجل أو يعاد توزيعه على طول سنوات العيش، إقامة مجلس إدارة مالي عالمي من أجل محاربة غسيل الأموال، القضاء على مناطق التسهيل الضريبي والمؤسسات المالية غير المقيمة، إلغاء الحواجز الجمركية التي تعيق صادرات الجنوب نحو الشمال، إلغاء ديون الدول الفقيرة (على شرط أن يخصص هذا المحو للتربية والتنمية) مما يشكل بالنسبة لأوروبا طريقة للاعتراف بمسؤولياتها في تجارة العبيد والاستعمار في إفريقيا... إلخ.

ومن الأجوبة المقترحة في هذا السياق: إنشاء دولة أوروبية تحقق التوازن مع الهيمنة الأمريكية، وإقامة تجمعات كونفدرالية كبرى على امتداد القارات الأربع (إدغار مورين)، وإصلاح صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية والبنك الدولي من أجل ضبط أفضل لها، وإعادة اختراع نموذج جديد من دولة الرفاهية يلاءم الظروف الحالية للعمل المأجور.

فهذه الأجوبة مهما كانت طبيعتها تهدف من بين أشياء أخرى، إلى إعادة صياغة عقد اجتماعي جديد على المستوى الكوني، ونشر وتأطير رأسمالية نشطة، لئن كانت ناجعة إلا أنها قليلة العناية بالإنصاف والعدل.

وباعتبار أن الرأسمالية لا تتلخص بالكامل في تجربتنا الراهنة، فهي بذا ستحقق كل الإمكانات المتضمنة فيها، كانبثاق

مجتمع الوقت الحر، والعمل الذي يضمن الرفاهية، ومجانية بعض الخيرات الأساسية.

إن الرأسمالية كما ذكرنا من قبل، لها من القوة ما يمكنها من إصلاح نفسها دون أن تتحطم، وما يؤهلها للانفتاح على شيء آخر يختلف عنها دون أن تذبل.

فهي غير مستكملة، شأنها كشأن الديمقراطية، وبذا تظل موضع سؤال ذاتي، تواصل الحوار المتعلق بتجديداتها الممكنة. فالمطلوب إذن هو علمنة الاقتصاد، مما يعني أمرين: أحدهما تحقيق انفصاله على غرار انفصال الدولة عن الكنيسة في فرنسا مطلع القرن العشرين، أي حصره في مجاله الخاص وعدم تركه في مركز المتحكم والحكم في النزاعات والامتيازات. وثانيهما إنهاء احتكار الخبراء للاقتصاد، فكلما تدمقرط انزاحت قداسته وأصبح الشيء المشترك بين كل الناس، تحول من منزلة دين النخبة إلى منزلة الملة الشعبية.

فعلى الثورة الحالية أن تسعى في آن واحد إلى نزع القداسة عن الطبيعة مع تعميمها على كل البشر، بدلاً من لعنها كالشيطان.

إننا لم نخرج من دكتاتورية الشأن السياسي، الذي هو وباء القرن العشرين، من أجل الهبوط من جديد في درك نمط الإنتاج.

فالاقتصاد الجيد ليس فقط هو الاقتصاد الناجع، إنه أيضا

اقتصاد محتشم، ورفيق أنسي ينمو دون ضجيج ودون تسميم مجموع الجسم الاجتماعي.

ولا يمكنه مهما وقع أن يصبح الجانب المقدس من الحياة، وإنما الجانب الإداري من المدنية، إنه سيظل كما كان دوماً شأناً تدبيرياً.

وكما قال آدم سميث: إن السلطة والثروة وهمان ضروريان، إنهما "ماكينات ضخمة ومرهقة" يختلط فيها هم العيش الرغد بوسائل تحقيقه، حيث لا يضمن المال السعادة؛ لأنه في حد ذاته سعادة في شكل أكياس ذهب وكنوز.

إنه خلط نافع باعتباره يغير شكل العالم، ويحول رغبة كل فرد في الثراء إلى شرط رخاء الجميع[142].

ما أروع هذا الاستدلال. ولكننا لم نعد في عهد آدم سميث: فمجتمعاتنا مترفة إلى حد التخمة، وإذا كان المال محرراً، ومصدر استقلالية وتجرد، إلا أنه يحررنا من كل شيء إلا من نفسه. وقد يحين وقت يغدو فيه من الضروري الانعتاق من المحرر، بإعادته إلى موقعه.

ذلك هو جانب العيب الشكلي: بدلاً من أن يحد الاقتصاد من الهم المادي لدى الناس، يصبح هاجسهم، فنصبح جميعنا فقراء أو أغنياء، منكبين ليلاً نهاراً على الأرقام وعلى المنحنيات البيانية للبطالة.

فبدلاً من أن يسمح لنا ببعض اللامبالاة، يفرض علينا أن نتذكر دوماً أننا وكلاؤه ومخلوقاته. وبدلاً من أن يجنبنا الحاجة، يغمرنا فيها. لقد انقلبت الآلية إلى ضدها: فأصبحت الوسيلة غاية، والغايات وسائل. وكما قال بيغي بخصوص المال: "إنه حدث فظيع، كما لو أصبحت الساعة هي الوقت".

هل نكون ضد أو إلى جنب:

إن نزعة العداء للرأسمالية هي في ما وراء كرنفال حشود المتظاهرين، ومظاهر العنف الطقوسية، وتهريج "الطوبائيات النهابة" (حكيم باي) وغيرها من "فضاءات الاستقلالية المؤقتة" – موقع رهان مزدوج: من جهة توطين نظام أفضل لتوزيع الموارد بفضل الضوابط الجديدة، ومن جهة أخرى انتزاع أقصى ما يمكن من الميادين من نظام المكافأة الشاملة وتحوير العقل الاقتصادي لصالح الأنشطة النفسية العليا.

إنهما حالتان غير متعارضتين، ويمكن أن نسعى لتصويب بعض انحرافات النسق في الوقت نفسه الذي نرسي فيه قطيعة عقلية إزاء مصادراته.

وما يجري على الأقل في المجتمعات النامية قد يكون انسحابا يشوبه التردد من اليطوبيا المادية، التي انكشفت حدودها بعد قرنين من ظهورها، وانتهى بها الحال إلى الانقلاب ضد المستفيدين الأساسيين منها.

وربما كان الغرب الذي سبق العالم للمغامرة الصناعية، هو وحده المؤهل للخروج بالأعلى بدل منحدر السقوط، حسب عبارات الفيلسوف الإيراني داريوش شايغان، أي الخروج عن طريق الدوران على النفس والتجلي.

أكرر مرة أخرى، علينا أن نحذر من الزوج الرأسمالي والمناهض له، وهو زوج وثيق الترابط: فالاحتجاج يشد بعضهما إلى بعض، ومناهضة الرأسمالية هي في آن واحد تعبير الرأسمالية عن شعورها بالخطأ، كما هي عينها وآذانها، فهي تعززها من خلال نقدها العنيف.

وأكثر ما تتخوف منه الرأسمالية ليس إقامة نماذج بديلة، مفيدة وسهلة الاستخدام، وإنما الإحجام والسلو، أي ذلك الملل المنتظم الذي يتصاعد في مجتمعاتنا (ويصيب حتى صانعي القرار المستثمرين ورجال المصارف) إزاء الإفراط الأخرق في الإنتاج، والبضاعة الرديئة المتراصة في واجهات المحلات، والسلوك النفعي المقزز، والسكر الإعلاني، مما يترجم الارتياب في قيمة هذه الثروات الزائفة لدى هؤلاء الذين لم يعودوا يدركون معناها.

"إن عدم المبالاة هو رفض لإضفاء القيمة على واقع قائم، وهو بذا قد يكون عند الاقتضاء إيجابياً جداً" (جورج سيمل).

إنما ينحسر حالياً هو حماسنا لإله السوق الذي يتطابق حضوره المطلق مع ابتذاله، وما نشهد قيامه ليس مثال الثورة بل مثال التجرد الذي يسود بهدوء وبطء.

إن العـداء للرأسـمـاليـة يقـتـضي قـبل كل شيء الـتخلص من هاجس الرأسمالية، والتفكير في شيء آخر غيرها.

فبـدلاً من أن تكون ضـدهـا، لم لا تكون على جنبـهـا وأن تتوارى عنها؟

وقـد يكون هجـرها عن طريق نقل عـلامـات الرفـاهيـة، على الأقل على مستوى الفـردي: الوقت الحـر بدلاً من الأجـور المرتفعـة، التـأمل بدلاً من الـهيـجـان، حيـاة الروح بدلاً من الحـمى التـجـارية، الشركات الصغرى بدلاً من المحـلات الضخمة، الانزواء مع أصدقاء خلص بدلاً من التوحد داخل الجموع. إنه باختصار انسحاب مقنن بتـبـصـر، وتنـاقض مـقبـول بجـلاء: منافـذ جـمـال وصـمت وثقـافـة، وانفصـام حـاذق يسـمح بأن نكون في الداخل والخـارج، بأن ننفصل دون ابتعاد، فهو إذن منفى داخلي.

تلك خطوات ضئيلة ستثير ضحك الناس الساذجين، والمهمين، ولكن طموحها لا يتعدى قلب الأولويات.

فـالأمـر يتـعلق باعـتـمـاد اسـتـراتيـجـيـات هـروب، على شـرط أن يتولد هذا الفرار من التصاق وثيق بالنسق القائم، على غـرار نمط من المزاد العلني يؤدي به إلى التخبط والتعثر.

فليس المطلوب منا أن نكون أبطال قضية كبرى، وإنما أن نكون مرتدين في ديانة الشغل ومنشقين عن نظام التبادل.

علينـا أن نثـمـن كل مـا لا ينـتـمـي لعـالـم المنافع، أي أصنـاف

الخيرات غير القابلة للتكميم والحساب مثل: الشعر والحب والغرام وتأمل الطبيعة والتضامن، أي كل ما يتجاوز الإنسان، ويسمو به أعلى من نفسه، وينتزعه من صغره، وحقارته المالية، وهوسه القهري بالجمع واللم.

وهكذا نقيم مع الرأسمالية، علاقة لا حب فيها ولا كراهية، بل مجرد تهكم ووقاحة. فنأخذ من هذه الأداة ما يلائمنا وننبذ ما يعيقنا.

نتصرف في الرأسمالية كما نعامل البشر دون امتنان ولا نقمة، مستحضرين في ذاكرتنا أنها في آن واحد عامل ثراء غير مسبوق وعامل تحلل لا علاج له.

لندعم إيديولوجيا المنفعة على أن تكون في مصلحتنا، لنخضعها لرغباتنا ولنستخدمها دون حياء ودون تلك الحدة الخاصة التي تميز المناضل الاشتراكي أو الشيوعي القديم.

فقد نحصر الرأسمالية في حدودها النسبية لأننا لم نعد نؤمن بها، فننبذ هذا الإله المنهك الذي باسمه اقتتل البشر منذ طيلة قرون. وقد نقبلها على الرغم من نقائصها، معتبرين أن كونها غير كاملة يجعلها قابلة للإصلاح. وبين التقديس والذم، يتعين اختيار الشك المنقذ.

هل نضيع حياتنا من أجل الربح؟

من البدهيات أن نسق الحاجات لا حدود له، وأن كل حضارة

كبيرة تضاعف دون قيد رغبات الأفراد؛ لأن كل مستوى من مستويات النمو يناسبه انبثاق لوعات جديدة.

فما هو ضروري بالنسبة لنا قد يكون رفاهية في عصر آخر، فالزائد عن الحاجة هو دوماً تاريخي نسبي. فالأمر إذن لا يتعلق بالمطالبة بنسبة نمو تعادل الصفر، وبالدعوة لوضع جامد، وإنما بكل بساطة بإقامة وضع تنافسي بين النماذج المختلفة من الثروة مالية وعلائقية واجتماعية[143].

يمكن أن نضع في مقابل الأصناف الصاخبة المترنحة مصادر أخرى للزهو ذات طبيعة جمالية وثقافية وروحية.

فالتحرر من الضرورة المادية ليس سوى أحد شروط الحرية، وليس الشرط الأوحد.

ويتعين على المال أن يظل واسطة وليس قيداً، أحرى أن يكون تعلقاً روحياً.

وحتى لو كان يسمح بتقويم كل شيء، فهل يجوز تحويله إلى مطلق، وإخضاع وجودنا بالكامل لقوانينه؟

فعندما يصبح الربح هو الغاية الأسمى، يغدو الجمع أسلوب حياة."إذا كان العمل يجعلنا أكثر ثراء، فلماذا تزداد حياتنا فقراً؟ ".

يتساءل روبير ريتش الوزير السابق في إدارة الرئيس بيل كلينتون بخصوص المضايقات الشاقة التي تتعرض لها الطبقات

الوسطى والعليا في الولايات المتحدة ضمن نطاق "الاقتصاد الإلكتروني".

فلئن كان الأمريكيون يعملون مدة 350 ساعة في السنة أكثر من الأوروبيين واليابانيين فذلك لكونهم ملزمين بدفع ثمن إضافي من الجهد لمواجهة تذبذب سوق الكفاءات ضمن وضع تنافسي شرس[144].

فالنفاذ إلى دائرة الرابحين والبقاء فيها لا يتمان إلا بالتعرض لخطر الاستعباد المتفاقم والتخلي عن أفضل الأشياء.

وما أصدق اليوم ذلك الشعار القديم الذي ساد في الستينيات: "تضييع الحياة في الحياة في الربح".

إن المشكل كله هو معرفة ما هو الثمن الذي نحن جاهزون لدفعه من أجل الحصول على كثير من المال. فثمة مكاسب مهنية ومالية تقتضي إخفاقات وجودية. فالمال لم يعد مشكلاً، وإنما أصبحت بقية الأمور هي المشكلة.

فبالنسبة للأغلبية، ليس المال مسلكاً يقينياً للسعادة وإنما مجرد ضمان ضد البؤس: إنه ركام من الذهب والأرقام والأوراق تخفف من قلق الموت والمرض.

إن جمع المال هو إذن طريقة خرافية لأبعاد هذه الأشباح الكريهة التي تهددنا.

ولكننا عندما نتحرك بهذه الطريقة ننقاد لما نفلت منه، لأنه لا يوجد ما يكفي من الملايين للوقاية من التعاسة والهلاك!

فعندما يصبح المال هماً طاغياً، يهون من وجودنا ويحولنا إلى نفوس ذليلة لآلهة متجبرة.

فبدلاً من أن نمنحه نحن الاحترام، غدا المال نفسه متكبراً، منفصلاً عن العالم.

فكيف نتخلص من هذا الافتتان بالعظائم الكمية، وهذا التدبير الجامح الذي يبدو أحياناً بلا معنى، في الوقت الذي لنا بالفعل ما يفيض عن حاجتنا؟(145).

من الأفضل لنا إذا أردنا أن لا يستعبدنا ما نملكه كما يقول القدماء أن نحذر من شراك الشهوة القائمة، وأن نحتاط من الانقياد دوماً للأهواء الجماعية.

إنه بالضرورة قرار فردي - لكل واحد طريقته في ضبط سلوكه بحسب إرادته - بيد أن النتائج تنسحب على الجميع.

إن طعم الكسب ليس بالطبيعي كثيراً، بحيث أن الفترات الأولى من الثورة الصناعية شهدت إجبار جموع كاملة متلكئة في كسب ما يتجاوز حاجياتها الضرورية على ولوج المصنع بالتخفيض المقصود لأجورهم(146).

فحس الربح ليس أبداً بالفطري، بل هو صناعة تاريخية.

إن آدم سميث عندما لاحظ رغبة الإنسان الحديث في التحسين من وضعه، لم ينظر إلى هذه الرغبة إلا من زاوية التوفير ومضاعفة الثروة[147].

هذا التبسيط خاطئ، ذلك أن الحياة الأفضل ليست دوماً حياة رغدة مادياً، حتى ولو كانت وسائل الإعلام تكرر على نطاق واسع أن نمط الوجود الأوحد الأمثل يتم ما بين سن 18 و 30 سنة لدى الأغنياء.

فإذا كان المال الوسيلة الأكثر رواجاً فذلك لا يعني أنها الوسيلة الوحيدة.

وإذا كان انتزاع قبول الناس وتحقيق الرضى عن النفس يتطلبان " شجاعة تحصيل الثروة" (سيز أورمان)[148]، فعندئذ على الذين لا يرتدون حلل الذهب أن يتواروا خجلاً!

فتحسين الوضع يمكن أن يعني أيضاً ترقية الذات والتحول الروحي وليس مجرد الارتماء في الترف.

إننا غير مفجوعين كلنا بعقدة السنجاب الذي يجمع ثمار البندق للشتاء، كما ليس من الضروري أن نعتمد مسلك "رهط الكلاب النابح والكاسر المجنون من الشهوة" الذي هو مسلك الرأسمالية، حسب الصورة المثيرة اللذيذة التي يقدمها روسكين.

فلا يزال ثمة ناس لا يعبؤون بالسلطة، خصوصاً بالسلطة

النقدية. توجد حياة خارج التعويض المالي، وضروب من الانبهار ومن المسالك العقلية تخرج عن المنطق الإنتاجي.

فالقيم السامية في أيامنا "تحبذ اللجوء إلى الموسيقى والفن على حساب البضاعة والعجل الذهبي".

وليس الافتتان بالمال من أجل المال جريمة أو مرضاً: إنها فقط متعة مؤسفة إذا لم توازنها متع أخرى، وأهواء أخرى أكثر طرافة وأفضل قيمة.

إنه بؤس الرفاهية إذا كانت محض مادية لا نفس ينعشها، ولا نبل يطبعها، وليست مستثمرة اجتماعياً في مصلحة أغلبية الناس.

فمن المهم إقصاء المال من العرش الذي أجلسناه بتهور عليه، حتى نتمكن بطريقة أفضل من إرجاعه إلى دوره كوسيط، أو "كعاهرة كونية" (شكسبير) تقرب بين المتناقضات، وتروي القارات والثقافات.

وقد لا يكون من السيئ أن يبقى في فرنسا بعض التوجس إزاءه، الموروث عن الكاثوليكية والجمهورية. وفي ذلك كثير من النفاق، والقبول المشبوه للفساد، والتهكم الضار من النجاح.

علينا على الأقل أن نؤكد بذلك المنوال على الأولويات الحقيقية، ونبين أن الثروة ليست شيئاً إن لم تكن في مصلحة قضية أو فكرة كبرى.

ففرنسا؛ شأنها شأن الدول الأوروبية، تظل أمة فن العيش في مقابل التبادل التجاري، متشبثة بأعراف ومسالك قد تكون بالية في أعين الخارج ولكنها تجسد بالنسبة لنا الحرية واللباقة.

فعلى فرنسا أن تظل ضمن الإجماع الكوني الطرف المانع للإخلاد للدعة وتطرح الأسئلة الحرجة، وتتجرأ أحياناً على قول لا.

ذلك هو جانبها العتيق المهجور، وعبقريتها الخارجة على المألوف التي تشكل ميزتها الخصوصية.

فلننظر مثلاً هذا التقدير البالي -والمثير بالنسبة الإنجليزي- الذي يتمتع به كتابنا ومثقفونا، وبصفة عامة الكتاب بصفته موضوعاً متعالياً، إلى درجة أنه لا يوجد وزير أو عالم أو رئيس مؤسسة لا يريد أن يكتب أو ينشر أو يكتب شعراً.

إنها ميزة رمزية لفئة نرجسية يبالغ في خطب ودها، ولكنها تترجم أيضاً ذوقاً جد مرهف يحمله الفرنسيون للأفكار وللغتهم من حيث هي رؤية للعالم تجتاز القرون.

لقد كتب باسكال: "من جنون الإنسان أن يريد علاج نفسه من البؤس الذي يعتريه". ذلك ما راهنت الحداثة على عكسه فاعتبرت من المعقول أن يسعى البشر إلى تجميل وضعهم وتحويل هذا العالم الدنيوي من حديقة آلام إلى جنان نعيم.

بيد أن الإنسانية عندما أرادت التحرر من التعصب والفقر والجهل عن طريق ما يوفره العلم والصناعة والتجارة من إمكانات

متقاطعة أخضعت نفسها بدورها لآلهات جديدة، هي آلهات التقنية والاقتصاد.

ويالها من تبعية مأسوية لن نخرج منها عاجلاً.

لقد استبدلنا قيداً بآخر وعلينا أن نتأقلم مع نمط من التمزق والحيرة.

ثمة صوت خفي يهمس لنا أن أياً من الموقفين ليس بالمتاح لوحده؛ ولذا علينا أن نستمر لمدى بعيد في العرج بهذه الطريقة.

وربما لم تتح لنا من قبل مثل هذه الفرصة للتفكير في معنى ثرائنا، والتأمل في "المباهج الطائشة السعيدة لعدة عصور صناعية" (هانس يوناس).

إننا نعيش في عصر انتقالي، حيث يبدو حقل الإمكانات فسيحاً: وكأن لوحة خفية تمزقت، وكأننا رجعنا بعد لأي من الوهم الأخير الذي كان يقودنا، ويتعلق الأمر بوهم الخلاص عن طريق الإسراف المادي.

وقد يكون ما نشهد انبثاقه رهاناً يتعلق فيما وراء الرغبة المشروعة في القضاء على الفقر والتقليل من مصاعب العيش في هذه المعمورة بإحدى تلك التحولات البطيئة، حيث تتأرجح الحضارات فجأة: وقوام هذا التحول هو الطموح إلى: "إعادة الاعتبار لقارة الروح الضائعة" (داريوش شايغان) والهروب من الضيق الوجودي.

الفصل العاشر

القلق الجالب للحضارة

"إن المتاهة هي موطن من يتردد"

والتر بنيامين

"إن الإحباط الغربي يتمنع عن اليأس كما يتمنع على الأمل"

ريمون آرون

إن عذاب الغربيين الحقيقي يتمثل في هذا الوعد الذي لم يتحقق ولن يتحقق: وهو الرهان على أن التقدم اللامحدود في المعارف والتبادلات سيواكبه نمو أخلاقي للإنسان واعتراف متبادل بين بني البشر.

فهذا الإحباط مقدر في المشروع نفسه لما ينطبع به من غلو وإفراط في مراده توفير أنعم العيش لكافة البشر ورفع الإنسانية كما هي إلى أعلى القمم؛ حيث لا مجال للمقارنة بينها وبين حقب التاريخ الماضية.

إنه نمط من سراب الإمكانات المثير للدوار، وخيبة النتائج التي تظل دوماً دون التطلعات.

فإذا كان المرء لا يكون حديثاً إلا بعجزه الواضح عن اتخاذ موقف إزاء مصيره، فإن الديمقراطية عندئذ ستتحول إلى نظام الشكوى المرخصة: تغذي رغبة لا يمكن أن ترضيها، وتؤجج مشاعر التلهف، وتضفي الشرعية على أكثر الأسواق جنوناً.

فما يقلقنا هو الثروات التي لم نتحصل بعد عليها، والحقوق التي لم نكتسبها.

فما هو موجود لا يكون أبداً كافياً، والكثير لا يزال جد قليل.

لقد هزم الكثير من الشرور وأبطل الكثير من المظالم: ومن الغريب أن كل هذه الشرور والمظالم لم تقوض حالاً. وقد انضافت إلى الكوارث التقليدية كارثة عدم القدرة على التغلب بالكامل على الشقاء.

فما كنا نعتقد أننا تغلبنا عليه لا يزال مستمراً في سحقنا وازدرائنا، في حين تبرز مآس جديدة: فلا نحن نمر من الظلمات إلى النور، بل لا نعمل سوى إعادة توزيع الظلمات والنور بطريقة مغايرة.

لقد نجحنا في "تضييق المسافة بين المثال والواقع بتحويلها إلى مسافة غير مقبولة" (ماركس)، وتلك حالة يمكن أن تدفع إما إلى الفعل الإصلاحي أو الإدانة العقيمة.

فالحضارة تخلق من المآسي بقدر ما تحد منها: ليس فقط لكونها ترهق كاهلنا بنظمها، وإنما بتحويلها الرفاهية إلى معيار نموذجي، وبذا تحد من الهامش المتاح للاختلاف.

فالحضارة محبطة، ليس لأنها فشلت، بل لكونها نجحت أكثر من اللازم: ليس الأمر إلا هكذا !

قد يكون التاريخ انتهى، كما توهم البشر دوماً. ولكن ما هي فائدة هذا المفهوم الذي يسكن الفلاسفة منذ هيغل إذا كان لا يعيننا على العيش بطريقة أفضل؟

بروميثوس منهك:

لقد أصبح التقدم منذ الآن موضوع تقديس غامض: فهو وضع قائم أكثر من كونه وعداً آتياً، إنه سمة مجتمع يدار آلياً،

يقذف مهما كان الأمر ما هو مقدر له من إبداعات في شتى الميادين.

أما النزعة التقدمية، أي الإيمان بفضائل المستقبل، فتنطلق في آن واحد من مفهوم للصراع ونمط من المعاينة، فهي خليط من النزوع اللاإرادي والتبعية الجبرية.

فمن هو الذي لا يكون تقدمياً بهذا المعنى، حتى لو كان من اليمين أو من صفوف هؤلاء الذين ندعوهم بالمحافظين؟

وهكذا ينوه مثلاً أرنست أنتوان سيلير بفرنسا التي تتطور، أي فرنسا رجال الأعمال في مقابل فرنسا الجامدة، أي فرنسا النقابات والموظفين وغيرهم من "الطفيليين".

إننا ننساق وراء الحركة من أجل الحركة، التي يدعوها تاغيف بالنزعة التنقلية، بحيث إن هذه الحركة غدت شيئاً فشيئاً أقرب في تسارعها اللانهائي إلى الثبات المدمر.

فبدلاً من أن نسير بخطى سريعة في مدارج المستقبل نرزح تحت وطأة حركة جامدة شرسة.

وكما قال كانط: "سيظل دوماً من المحير أن الأجيال السابقة تكرس كل همها لتحقيق مصلحة الأجيال اللاحقة، بحيث إن الأجيال الأخيرة وحدها ستحصل على السعادة المترتبة على السكن في الصرح المكتمل".

ولكن الماء ملوث داخل هذا الصـرح، والهـواء غـيـر مـؤهل للاستنشاق، والطبيعة محطمة، والمواليد الجدد يلعنون آباءهم على توريثهم تلك الهدية المسموعة.

وبعبارة أخرى بما أننا روضنا الطبيعة بقدر ما دمرناها، فقد أصبحنا نقاسمها المسؤولية: فمصيرها يلتبس بمصيرنا، وسيطرتنا عليها تجعل منا أسرى فضلها، وهو دين نؤديه على شكل نمط من السلب لا حد له.

وكما يقول المثل الهندي: "إننا لا نرث أرض آبائنا وإنما نعيرها لأبنائنا".

بيد أن المشكل يتعقد لكون أدوات هيمنتنا على الطبيعة غدت أدوات لهيمنة الطبيعة علينا: وهو مسار لا يمكننا إيقافه، وإنما كبحه ورقابته على أقصى تقدير. فعندما ترتكز سلطة خارقة غير مسبوقة في يد الإنسان عندئذ يلازمها العجز عن تقويض مثل هذه السلطة.

فنحن على سبيل المثال: نستخدم كل يوم آلات أذكى منا ألف مرة (من يمكنه أن يفسر نمط اشتغال جهاز تلفزيون أو خلية السلسيوم).

وماذا نقول في أداة مثل شبكة النت التي هي موسوعة هائلة تجاوزت بما لا حد له إمكاناتنا الاستيعابية: فقد تكون وسيلة مذهلة للمعرفة، ولكنها أيضاً هوة يمكن أن نضيع فيها، تتحدى بصيرتنا بتعقدها.

لقد قال روبير كالاسو: "إن الديمقراطية هي تعميم امتياز الحصول على أشياء لم تعد موجودة". ويا لها من حقيقة قاسية!

فالامتياز إذا اشترك فيه كثير من الناس أصبح عقوبة. فإذا سافر الجميع في الوقت نفسه، عن طريق السيارة أو القطار أو الطائرة، لم يعد بمقدور أحد أن يتنقل.

فالحرية الشاملة تفضي إلى شلل عام، كما أن نشوة السرعة تؤدي إلى تجمد التدفقات، ازدحام رهيب وملايين الساعات المضاعة.

ثمة نمط من الخيرات (البحر والجبل والسفر والمنتجعات الريفية) ميزتها الأساس أنها خاصة بعدد محدود من البشر. وإن هي فتحت للعموم، ضاعت وتدمرت. (كما هو حال هذه الرسوم الصخرية المنحوتة على جدران الكهوف التي منعت على العموم حفاظا عليها من التحلل).

إننا لا نعيش في عصر النفاذ وإنما في عصر الاختناق: فمباهج العالم لم تكن موجودة إلا لكونها نادرة وعصية على التناول؛ وعندما تفتح للجميع يقع تدنيسها.

من قبل كانت تسعى الجمهورية إلى توفير مزايا الأرستقراطية إلى الشعب، ورفع الإنسان المتوسط إلى مستوى من كان ينظر إليهم في الماضي كعلية القوم.

ولكن فضلاً عن أن هذه التوطئة الديمقراطية قد دحرجت

الأعلى إلى الأسفل أكثر من رفعها الأسفل، فإنها حولت هذه المزايا الموزعة على الجمهور إلى لعنة جماعية.

ويا له من تحد رهيب للعقل: تتعين إعادة التفكير في صلوحية نمط إنتاج ونمط حياة قد تنجم عن تعميمه إلى المعمورة بكاملها كارثة مناخية وبيئوية.

فلنتخيل فقط إن كان منزل في الهند أو الصين يقتني ثلاث سيارات كما هو الحال في الولايات المتحدة! فالثروات الوحيدة التي لا تنفذ والتي تتضاعف بمجرد انتشارها هي تجارة الأفكار والعلم، والتعلق بالمعرفة، وأعمال التخيل وفنون العيش والفنون إجمالاً، وهي في الغالب ثروات لا ثمن لها.

والصعوبة القائمة هي أنه ليس ثمة تقدم واحد وإنما أنماط متعددة من التقدم، محصورة المواقع، تتخذ سمة المفارقات لأنها تنتج التقهقر والمصائب الكبرى (مثل: جنون البقر، والأمينت والدم الملوث)، انفجارات مفاجئة وحوادث غير مفهومة، كوارث متلاحقة: لقد أصبح (من غير المحتمل) هو اليقين الوحيد الذي نمتلكه.

ففي مجتمعاتنا ذات الهشاشة الشديدة، كل شيء ممكن خصوصاً أسوأ الأشياء. الخطر في كل موضع. تلك هي الحكمة التي لا سحر فيها في مطلع هذا القرن: فنحن نعرف أن ما نحرزه من ضروب تقدم ندفع ثمنه من تراجعات مخيفة، فكل موقع نغزوه هو أرض ضائعة، وكل إظهار للقوة هو إقرار بالضعف. فالإنسانية تسير بصفة متلازمة وبالخطا نفسها في اتجاه الأفضل والأسوأ.

ويمكن أن نورد بخصوص التقدم شعار فرقة البلوز المشهور "لقد انتهى الارتعاش" The thrill is gone: انتهى الإحساس، لم نعد نهتز طرباً لأبسط اكتشاف جديد"، ولم نعد مستعدين لدفع الثمن.

فما يهمنا هو الحفاظ على الموجود واحترام كل مخلوق وكل نظام بيئوي بصفة لا تقل إن لم تزد على اهتمامنا بالجديد.

ومع ذلك سيكون من الغلط أن نعتقد أن إيماننا بمقولة التقدم قد انتهى أو قبر: فنحن مؤمنون دون أوهام يطمحون إلى تقدم نتحكم فيه.

بيد أن انجلاء الغشاوة لا يعني اليأس: ومن هنا فإن مقولة "انكشاف أوهام التقدم" التي راجت ليست سوى مقولة رومانسية خالصة ولم تفض بأحد إلى رفض الكهرباء أو الرجوع إلى عربة الخيل.

فكل من أجريت له يوماً عملية جراحية ناجحة، أو أنقذ مضاد حيوي حياته، يعرف ما تعنيه عبارة تقدم وليس بحاجة إلى مصنفات ثقيلة نشرحها له.

أنبياء العالم السبرنتيقي وشهداؤه:

في هذا المجال، يتعلق الأمر بتسارع الإقبال والنفور: تتقلص الدورات ولكن كثافتها لا تنقص.

لاحظو الهيجان الذي تستثيره الإنترنت: من جهة اليقين الخلاصي بأن الشبكة ستنقذ العالم، وستضع التراث الكوني في

متناول الجميع، وستنمي تعليم أكثر الناس احتياجاً، وستوطد التضامن والتسامح، وتقضي على التفاوت[149]؛ ومن جهة أخرى، اليقين الذي لا يقل فظاظة بأن هذه الأداة ستؤدي بالإنسانية إلى حفر قبرها بنفسها، وستفضي إلى القضاء على الزمان والمكان، وإلى الانغلاق بدلاً من الانفتاح؛ لأن مستخدميها يتجمعون في طوائف وقبائل، وفق خصائص متناغمة مشتركة.

عقيدة خلاصية جديدة في مقابل نزعة استبدادية جديدة: وهكذا وصل الصراع بين القدماء والمحدثين إلى أوجه.

ثم يتدحرج بهدوء هذا التحمس من أعلى تلك القمة الخاصة حيث يتقابل الجيشان إلى شعور بالتشبع.

وفي حين يحتفل حملة البخور بالأرض الموعودة الجديدة ويتوعد المتنبئون بعذابات القيامة، بدأ بعضهم بالابتعاد.

فالجديد تحول رويداً إلى شكل التافه المبتذل.

وبما أننا بالغنا في الحماس من قبل، أصبحنا نخفف من غلوائنا، فالموضوع الذي طال انتظاره اختلط بسلة الأشياء الاعتيادية.

فبعد النشوة والجزع، تضاعف عدد النافرين من الجنة الإلكترونية؛ لأن الانترنت ليس أبداً سوى "مزيج بين الكتابة (التي تعود لست آلاف سنة) وأدوات اتصال ترجع لقرنين" (ميشيل مارسيولا)[150].

وحسب علمنا إلى حد اللحظة على الأقل لم يحطم النص الإلكتروني الكتاب، ولم تقوض التجارة الإلكترونية التجارة العادية[151]. وكما أن مجموعات التحاور عبر الانترنت لم تنه مشكل العزلة (ابتكر فيلسوف العلوم دومنيك لكور عبارة "Cybérie" لوصف حالة هؤلاء المتشبثين بالشبكة الذين يكثفون اللقاء من أجل الإفلات من التماس الجسدي مع الناس)[152].

ولا يقلل هذا من الطابع العبقري للانترنت ولا من صيغ الاتصال غير المسبوقة التي توفرها.

لقد فتحت كوة في عالمنا المغلق، هي كوة العوالم الافتراضية، وإعادة اكتشاف واقع جديد، وأحيت يطوبيا المدينة الكونية، حيث يلتقي الناس كلهم في ساحة واحدة ويتحصلون على الحقوق نفسها.

إنها تحتفظ من اليطوبيا بسمتها المزدوجة وتتأرجح ما بين إرادة توليد الحاضر من دائرة احتمالاته والطموح شبه الكلياني إلى إعادة خلق إنسان جديد بالقدح في التاريخ القديم.

لا يوجد إبداع لا ينشأ في الخوف والنشوة، كما يبين الخيال العلمي.

فكل اكتشاف يؤجج إيماناً و رعباً لا حدود لهما - فآلة البخار والسكة الحديدية ولدتا في عصرهما المدح والهجاء - إلى أن يستولي إبداع آخر على العقول، فيخفف شيئاً فشيئاً أمواج الحماس والخوف التي تركها الاكتشاف السابق.

ولكننا لم نر أبداً تقنية تعوض الفعل، وتوطد الرباط الاجتماعي أو تقلص اللامساواة.

وكما أن جهاز الكمبيوتر في الستينيات لم يفلح فيما ادعاه له جان جاك سرفان شريبر من قدرة على إنقاذ العالم الثالث برفعه مباشرة إلى المرحلة ما بعد الصناعية، فإن الإنترنت لن تخرج "البلدان الصاعدة" من الفقر.

فلكي يحدث تقدم، لا بد من قرار سياسي، وعملية قطيعة، ومن أن تستحوذ الدول المعنية باختيارها على اكتشاف معين، مثل أنماط جديدة من العلاج الطبي، أو أنواع من الأرز والأشجار المهجنة، لوضعها في مصلحة نموها، مثلما فعلت البرازيل والهند وإفريقيا الجنوبية.

إن النت لم تقل كلمتها الأخيرة، ويمكن الجزم بأنها ستوفر لنا عجائب أخرى.

ولكن من السذاجة القريبة من البلاهة أن نتوقع منها أن تنسج أسرة إنسانية واحدة بواسطة الشبكات، حسب استعارة ماك لوهان.

فبالنسبة لبعض حواريي "الأمة الرقمية" كل من يعترض على مشاريعهم ينعت بالظلامية ويرمى بأنه ديناصور.

فأبسط استدراك يعتبر ردة، ولا مجال إلا للتقديس، وهكذا تصل هستيريا الجديد التي يعود تقليدها لمنتصف القرن التاسع عشر إلى القمم لدى هؤلاء.

إنهم يتخلصون من الرصانة والوقار في إرادتهم التشبث بالحدث أو حتى تخطيه.

فنحن إذا لم نفقد الإيمان بالتقدم، بل نحتاط منه، ومن تغزل مروجيه. نلتفت عنه، مثلما نتخلى عن علاقة لم تعد تثير أي غرابة ولكن من أجل العودة إليه بسرعة عندما يبرز في الأفق سراب جديد.

فأفضل علاج لعيوبه، هو تقدم آخر يصلح من آثار التقدم السابق، تقدم نتصوره في شكل ائتلاف مع العالم، يكون في مصلحة الحفاظ عليه وليس التحكم فيه.

فبعد إنسان المسيحية الخاضع، وإنسان الحداثة المتغطرس، ها هو الإنسان المرتبك الذي هو إنسان القرن الجديد.

التقارب غير المحتمل:

لقد تفطنا الآن إلى أنه إذا كانت الهوة بين الشمال والجنوب لن تسد يوماً، فإن إعادة التوزيع العادل لثمار النمو لن تحدث، أحرى أن يتحقق لأغلبية سكان العالم مستوى من العيش الرغد.

فالثورة الصناعية وإن خلصت بعض اللأمم من قبضة أمم أخرى، إلا أنها حفرت خندقاً ما بين المالكين والمعدمين.

فعندما نعرف أن الفارق بين سويسرا والمزمبيق يقارب 400 لواحد (كان 5 لواحد عام 1800)[153]، لا نرى بوضوح كيف يمكن

تدارك هذا "التـأخـر". إن ما لم يتحـقق منذ قرنين، على الرغم من الظروف الملائمـة، لن يحـدث غـداً، في الوقت الذي تتـضـاعف الكوارث التي سببها النمو، وتتقلص الموارد الحيوية (الطاقة والهواء والمياه) فالمغامرة الاقتصادية ستظل درباً محفوفاً بالإثارة لأجيال عديدة، سيتواصل انبناء الثروات، وستدفع مسارات مذهلة الأكثر فقراً إلى أعلى قمة، وسيصل بعض المشهورين غير المعروفين بين عشية وضحاها إلى رأس إحدى الإمبراطوريات بفضل مواهبهم. ستنهار أمم مزدهرة، وتبرز دول صغيرة ديناميكيـة. ولكن مهما حدث من تدافع، وصعود مدهش للبعض وتراجع لبعضها الآخر، لا بد من منتصرين ومهزومين في المأدبة الكبرى للرأسمالية.

بعض الأمم العملاقة ستنجو بسهولة بفضل عبقريتها ووزنها الخاص، كما هو شأن الهند وروسيا والصين. ولكن الأمم التي فاتها قطار التنمية ليس لها كبير أمل في الإقلاع، في مرحلة يغوص الكثير من الدول الإفريقية والآسيوية في الدائرة الانتحارية، عبر مسار تدمير منتظم للذات.

قد تحدث بعض التحسينات، وقد يصبح الفقراء أقل فقراً، ولكنهم سيزدادون عدداً.

إنها نهاية أسطورة "الجاكبوت" (JackPot)، أي أسطورة مطر الذهب الذي سيروي البشرية بكاملها: فمهما فعلنا سيظل هناك منبوذون ومغيبون.

لقد انحسر حلم المساواة الجميل، وابتعد حلم الجنة الأرضية الكونية.

فما يهدد في أيامنا الأمم في الجنوب ليس الرأسمالية الجديدة بقدر ما هو في أيامنا الإهمال المحض والتام.

فما دامت نسبة 70 بالمئة من التجارة الدولية تتم بين أوروبا واليابان والولايات المتحدة، فإن البلدان الغنية تقلصت شيئاً فشيئاً حاجتها للفقراء من أجل الاغتناء: وما دامت هذه الدول لا تهددها، فإنها لن تعبأ بتنميتها.

ذلك أن استغلال الإنسان للإنسان يفترض على الأقل صلة انتماء قوية بين رب العمل والعاملين معه، ويرسم مجالا للنزاعات، وبالتالي للمصالح المشتركة.

من الآن فصاعداً استبدلت مصيبة استغلال الإنسان للإنسان بمصيبة أشد هي أن يصبح المرء غير قابل حتى لأن يستغل.

فالمريع بالنسبة للعديد من الفئات الاجتماعية وكذلك بالنسبة للعديد من الدول ليس الاستغلال وإنما الإهمال.

لم يثبت أبداً بالبرهان أن ثراء الشمال ناجم عن نهب الجنوب: صحيح أن النهب موجود، ولكنه لم يؤد أبداً إلى اغتناء أحد، والدليل هو إسبانيا الإمبراطورية.

فرفاهية الشمال لا تعود إلا لعقلية سكانه وعملهم، ولهذه الديانة المتمثلة في تحويل الطبيعة وشهوة الربح التي تفرقت على بعض القارات.

أما غير المقبول فهو تجاور غرب متخم وأمم جائعة موعودة بالولوج السريع للجنة الرأسمالية بشرط الانقياد لبعض القواعد.

بيد أن وراء هذا الخطاب الكوني، يقبع منطق المحاباة والخسارة، فالأفراد نفسهم سيستمرون في انتزاع حصة الأسد، في حين سيبقى على الأعراف مليارات البشر على الوضع نفسه الذي أضيف عليه طلاء خفي.

إن مركز ثقل الاقتصاد العالمي ليس جاهزاً للانتقال.

كيف يمكن التحول إلى مائدة الأغنياء إذا كان الأمر يتعلق بشعب صغير؟ يكون ذلك عن طريق إصلاح داخلي عميق قبل كل شيء، لأنه ليس ثمة دولة غير مسؤولة عن مصيرها.

ولكن ذلك يتطلب أيضاً رفض الانصياع الأعمى للإنجيل العالمي الجديد: الخصخصة ورفع الحواجز والليبرالية الشاملة. ولا بد على الأخص من الاحتفاظ بسلطة انتقام في حالة الهجران الخارجي، أي لا بد من معرفة كيف تصبح ضرورياً لا غنى عنك.

فما أتعس أولئك الذين ليس بحوزتهم عقوبة إستراتيجية أو اقتصادية ضد عظماء اليوم: ولقد مرت الأرجنتين بهذه التجربة الفظيعة.

ولهذا السبب كان من السذاجة انتظار سيادة السلام والإخاء من جديد. فلا يزال الابتزاز والتهديدات والتخويف مسيطرين، وليس ثمة انسجام زمني بين الإنسانيات المختلفة التي تتقاسم هذه المعمورة ولا نحن نعيش في العصور نفسها. بيد أننا جميعاً متعاصرون في الضغينة والحسد بفضل التقانة والاتصال.

لقد قلبت البلدان الغنية قواعد اللعبة وخلقت مسافة جائرة مع بقية العالم: ولن ينتهي الحقد عليها عاجلاً، فثمة ثمن لا بد من تأديته للوصول إلى القمة.

حكمة الزهد:

كتب سيغموند فرويد عام 1929 تحت صدمة مذابح 1914 حول "قلق الحضارة" من منظور كونه صراعاً لا رحمة فيه بين فرد متمرد على كل سلطة والقيود التي يفرضها عليه المجتمع. واستنتج من هذا الوصف عدم قدرة الإنسان على الوصول إلى السعادة، وكذلك عدم قدرته على التأقلم مع الحياة الجماعية القمعية دوماً: فالحرب بين ذات ثائرة وأنا أعلى مشعر بالذنب لانهاية لها.

وربما كان علينا أن نمنح عنوان كتاب فرويد دلالة إيجابية، والجزم بأن القلق هو وحده الذي يجلب الحضارة، وهو وحده الذي يولد مواقف متناقضة لكنها نافعة.

فهو أفضل طريقة لمحاسبة النفس، وتنقية القلب (فالسخرية من النفس هي آخر مسلك نبيل لدى الطبقات المتوسطة، التي تتعرض دوماً للتفاهة والابتذال).

ومن ثم فإن للنقد اللامحدود الذي توجهه الحداثة لنفسها اتجاهين: اتجاه يقظة يحول دون الانجراف في الغبطة الساذجة، واتجاه فظاظة يؤول في الغالب إلى الكراهية للذات.

ولقد تعين على رجال اللاهوت خلال تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الطويل أن يحاربوا عقبتين كلتاهما ضارة: النفور من الأرض والإفراط في الشهوات الدنيوية.

ففي مقابل هاتين الطريقتين المسدودتين طرحوا بالاستناد إلى الطبيعة المزدوجة للمسيح علاقة مجاهدة ضرورية: فهذه الحياة الإنسانية بائسة وممتعة في آن واحد، ذلك أنها تمثل المرحلة الأولى من الحياة الأزلية.

فعلى المؤمن أن يكون داخل العالم وخارج العالم، وعليه أن يوجه سلوكه في هذه الدنيا بحسب قيم العالم الآخر. ويمكننا أن نصوغ هذا المبدأ المؤسس بطريقة علمانية: بأن نبتعد عن التفاؤل والتشاؤم معاً، وأن نرفض فكرة الحل المثالي لمآسي الإنسان كما نرفض المرارة والأسى (لوزك كولاوسكي).

فما بين اليأس والاقتناع الأعمى، ثمة طريق آخر هو مسلك التشكك النشط الذي يمكننا من معرفة حدودنا بتواضع دون نبذ

إرادة الإصلاح على الرغم من هذه الحدود. إن كل إنسان يتكلم اليوم لغتي الحماس والحذر، ولن يأتي اليوم القريب الذي تتخلص فيه نجاحاتنا الأكثر جلاء من الشك القاتل.

فليس من حقنا تمجيد ثقافتنا كما هي بغباء؛ لأن أوروبا عرفت في حقب عديدة من تاريخها الخزي والرعب؛ ولأن الهوة لم تفتأ تتعمق بين مبادئنا ومجرى الواقع.

ولكن يجب علينا أن نشك في التشكك، وأن نتجنب صداع القدح السهل، والهلع الهادئ والخافت.

لم يعد في مقدورنا أن نتأرجح بين مدح نسقنا وتحقيره بصفة تبسيطية: فحين تكون نية القطيعة كما لدى التيار المعادي للرأسمالية يتوجب إظهار الاستمرارية، وحين يكون تعظيم الوضع القائم، يتعين التنبيه إلى النقائص، وإلى انتهاك المثال الذي ندعيه.

إن للوعي السليم وجهين: وجه الاطمئنان والرضا عن النفس، ووجه التمرد الذي تختزنه الشتيمة ميكانيكياً قبل أن ينتهي إلى أن يصبح مورداً للإدانة.

يتعين علينا في حكمنا على العصر أن نكون مدافعين عن تقليد مزدوج: نصنع الانفصال كما نصنع الالتئام، ولا نضع أبداً حداً لهذا التنافر. يمكننا بحركة واحدة أن نعبر عن إعجابنا بالحداثة الرأسمالية وعن خيبة أملنا فيها، وأن نعتبر الموافقة مشروعة وكذا الخيانة مشروعة.

فلا بد من الاحتفاظ بما يشبه الامتنان إزاء القيم التي نهاجمها حتى لو وصلنا في الهجوم عليها حد خرقها وتدنيسها، ولا بد من الاحتفاظ بيقظة نقدية ولو كنا في أقصى درجات التلذذ.

وما دمنا مطالبين باعتماد موقف متناقض، فإن علينا أن نعتمد مسلك انتساب حذر، على مسافة واحدة من العدمية الانتحارية ومن تقديس الذات.

فقد تجرنا أمور مثل جشع بعضهم وفقر الآخر، وتباين المصالح وعدم اهتمام الأقوياء بمآسي المستضعفين إلى التنديد حيث نريد التقريظ، بيد أننا لا يمكن أن نتخذ هذه التخوفات المشروعة ذريعة للتقوقع على الانهزامية الطائشة، ولمحاباة اللعن والشتم. إننا لا نفتأ نتردد ما بين التحفظ والجذل: يجب أن نحول هذا الاضطراب إلى مبدأ مفيد.

فحالنا السيئ، إن لم يتحسن، يحتوي في كل لحظة فرصة تبصر.

"إذا كانت جسارة أعمالك تخفي على فظاعتها، فإنني مع ذلك في حيرة دائمة، إما لكون عيوبك تشلني من الرعب، أو لكون فضائلك تحركني من الإعجاب " (ديدرو، الحديث حول رنيال، 1781).

ها هو مأزق الدول الديمقراطية: تبدو أقل انضباطاً وأقل عدالة من الدول الأخرى، تلاحقها الجريمة والعزلة والفساد، في حين تبدو المجتمعات القمعية منسجمة بصمتها.

ذلك أن مجتمعاتنا مريضة دون شك، ولكن قوتها تكمن في وعيها بمرضها وبإقرارها بذلك، وبالكشف عن عيوبها في الملأ وبجلدها لنفسها دون توقف.

إن هذه الحالة تحميها، وتحفظها من الخطأ الحقيقي الذي هو جهل العلة.

وبعبارة أخرى، إن البربرية هي توهم السمة الحضارية مع نبذ الآخرين إلى العدم.

أن نكون متحضرين، معناه إدراك كوننا متوحشين، ومعرفة هشاشة الحواجز التي تفصلنا عن خزينا، وإدراك أن نفس العالم يحمل في طياته إمكانية الفظاعة والسمو.

الهوامش

1) راجع حول الأوهام التي أنجزت عن انهيار الاتحاد السوفياتي، والنصر الذي أرهقنا بتكلفته الباهظة ووضع على أكتافنا عبئاً ثقيلا كتابي:

La mélancolie Démocratique Seuil 1990

2) André Fourçan "La mondialisation est favorable au developpement" (le monde 4/09/01).

ويذكر المؤلف نفسه في كتابه "la mondialisation expliquée à ma fille (seuil 2001, pp202,203) إن نسبة الفقر الشاملة قد انخفضت حسب البنك الدولي بتسعة نقاط خلال العشرين سنة الأخيرة، وقد وضع البنك ذاته لنفسه أهدافاً طموحة في أفق 2015 هي: تقليص نسبة الفقر الشديد بالنصف، الحد من وفيات الأطفال بنسبة الثلثين، والحد من وفيات الأمهات بنسبة ثلاثة أرباع، وضمان تمتع الأطفال بتكوين مدرسي عادي.

3) حسب تقرير أجراه صندوق الأمم المتحدة السكان، كما أورده جرمي رفكين: "L'âge de l'acces: La découverte 2000, p. 298.

4) Raymon Aron: les Désillusions du Progrés Calmann-Levy 1969 pp 366-367.

5) Daniel Cohen: Richesse du Monde, Pauvreté des nations: champs, Flammarion 1997 p:67.

6) James Kenneth Galbraith: "Greated unequal" The crisis in American Pay, The Free Press, New York 1988, in René Passet, l'illusion néolibérale, Fayard 2000, pp 126-127

7) طرفة يوردها فيليب لابارد وبرنارد ماري في كتابهما:

La bourse ou la vie, Albin Michel, 2000, p.122

8) يرى جان بول فيتوسي"أن الطبقة الوسطى تمزقت من جراء الأثر المضاعف لصعود أقلية منها إلى الطبقة العليا وتدحرج نسبة أكبر كبيراً إلى الأسفل" (لموند 2001/3/30).

ويلاحظ دانيال كوهن أن راتب رئيس مجلس إدارة مؤسسة في القمة قد انتقل في أمريكا من عام 1970 إلى عام 1990 من 30 إلى 150 مرة راتب عامل (مرجع سبق ذكره ص 67). دائماً في الولايات المتحدة، على الرغم من طفرة التسعينيات لم تكد تزدد الدخول الوسطى وغنم 10٪ من أكابر الأغنياء 85٪ من أرباح البورصة. أما التعويضات الاجتماعية التي يتلقاها الأشخاص الأقل

دخلاً فقد انخفضت بوتيرة أكثر سرعة من المجموعات الأخرى، خصوصاً فيما يتعلق بالتعويض الصحي.

Robert Reich: Futur parfait village mondial Paris 2001 (pp115-116)

9) يقدم اريك ازالويتش وصفاً دقيقاً واضحاً لحكومة الشركة في كتابه:

Le capitalisme Zinzin Grasset 1999 pp 210-S99

10) ذلك ما يشرحه روبير ريتش وزير العدل السابق في عهد كلينتون. مرجع سبق ذكره ص 153-154-155.

11) Courrier international, Supplément octobre 2000 n 59

12) كتبت ايرا كاي في "وول ستريت جورنال" إن رؤساء الشركات الأمريكية بحاجة إلى أن تدفع لهم معاشات باهظة لتشجيعهم على التخلص من عمالهم.

فحسب المركزية النقابية: AFL CIO حصل رؤساء 30 شركة الأكثر إعلاناً لطرد العمال على مكافآت وتعويضات زادت رواتبهم على المدى الطويل ب 67.3٪) (ذكره ناعومي كلين n logo, actes sud 2001 pp 306-307 في كندا حصل رؤساء الشركات الكبرى عام 2000 على زيادة في الدخل من راتب خام وعلاوات ومكافآت تصل إلى 42.9٪. وعندما قرر جون

شاميزر رئيس الشركة التكنولوجية العملاقة جيسكو في مرحلة صعبة تخفيض راتبه بدولار رمزي، كان ذلك بعد أن حصل على 150 مليون دولار من الأسهم المنخفضة (بيار جوليان - لموند 27-2000/5/28). فلم نعد هنا في منطق رأسمالي كلاسيكي ولكن في ثقافة مصادرة تغيظ بعض أوساط الأعمال والكثير من صغار أرباب العمل.

13) "إن الإدارة المعاصرة للشركات الكبرى تهدف أساساً كما ينص كل مذهب اقتصادي إلى مضاعفة المردود. ولكنها (....) قررت تحويل المبدأ القديم إلى مبدأ مضاعفة فوائدها الخاصة. ومع تساهل مجالس الإدارة، بإمكانها أن تحدد مكافأتها الخاصة وأن تقتني الأسهم التي تريد وتهيئ رحيلها عن المؤسسة بكل الامتيازات وتعويضات التعاقد كما يحلو لها."

Meilleure John Kenneth Galbraith: Pour une Société
Seuil 1997 pp 72-73

الطبعة الأمريكية بوسطن 1996

14) إن السود الأمريكان مع أنهم من أغنى شعوب العالم الثالث لهم معدل حياة أقل من معدل حياة الصينيين والسيرلنكيين وسكان كيرالا وهي إحد مناطق جنوب الهند الأكثر فقراً، كما يوضح آمرتيا سن. ولئن كانت الفوارق أكثر حدة في الولايات المتحدة منها في أوروبا، إلا أننا ننسى أنه في العالم القديم

حيث تصل نسبة البطالة إلى 10٪، فان العاطلين عن العمل حتى ولو عوضوا تعويضاً مقبولاً، فإنهم يتعرضون لأصناف من الغبن النفسي والاجتماعي، لا تعبر عنها الإحصاءات

Amartya Sen: Un nouveau modèle économique,
Odile Jacob 2000

15) لنتذكر بأن الثروة القومية زادت في فرنسا من سنة 1997 إلى 2000 بنسبة 15٪ تقريبا، أي بمقدار 240 مليار يورو، كما استحدثت مليون ونصف فرصة عمل (أرقام مكتب برسي) وقد تراجع بعد ذلك الاتجاه.

16) Daniel Cohn: Nos temps modernes chap 1 Flammarion 2000 pp 45 Sqq

17) ربما الأسباب تعود للتراث الأخلاقي البروتستانتي أو لتحبيذ القيم المادية، يشتغل الأمريكيون 350 ساعة أكثر من الأوروبيين، وأكثر الناس قلقاً في هذا المجال هم الأكثر ثراء، فهم يضاعفون من جهودهم للحفاظ على مداخيلهم.

Robert Reith: Futur parfait, opus cité pp 126 et 24

18) إن مقولة "العولمة" هي عبارة مستحدثة، تتأرجح بين دلالتي العالمية والكونية، فهي كمقولة "الافتراضي"، كلمة لم يستقر بعد معناها، بحيث يمكن أن نحملها المعنى الذي نريد، فهي قابلة لكل التأويلات.

● نظرية اقتصادية تقول بأن أجر العامل لا يمكن قط أن يتجاوز الحد الحيوي الأدنى (المترجم).

19) يرى إيلي كوهين أن العالم ليس أكثر انفتاحاً مما كان عليه عشية الحرب العالمية الأولى: "لم يصل مستوى تصدير الرساميل عام 1991 المستوى الذي كان عليه عام 1915". أما الشركات المتعددة الجنسيات فلا يزال يغلب عليها الطابع القومي. فعدد الشركات العالمية يعد على أصابع اليد.

Elie Cohen: Mondialisation et souveraineté, Le Débat, n° 97 Novembre-Décembre 1997. PP 24-25-26-27.

20) Jean-Pierre Dupuy: Le Sacrifice et l'envie, Calmann-Levy, 1992, p 21

21) يبين ليستر ثرو، الاقتصادي في MIT أن 90 ٪ من مداخيل البورصة في الولايات المتحدة قد استولى عليها 10 ٪ بالكاد من المؤسسات الكثر رفاهية، في حين لم يستفد 60 ٪ من الأمريكيين من ارتفاع الأسواق باعتبارهم لا يملكون أسهماً.

J. Rifkin: opus cité p 5622)

22) توصي مؤسسة تاليس (تومبسون سابقاً) برفع الكلفة في المخاطبة بين مجموعات موظفيها، مازجة بين العلاقات الشخصية وعلاقات السلم الوظيفية، جاعلة من المسؤولين الساميين أصدقاء زائفين لمرؤوسيهم. يذكر هذا بالتقليد

الأمريكي المتمثل في مناداة كل إنسان باسمه الشخصي الأول، ومن ثم توليد وهم العلاقات الحميمة المباشرة التي سيصححها عدم الاكتراث من بعد.

23) لقد أصبحت الرأسمالية غير شعبية، كما أكدت صحيفة "بيزنيس ويك"، يرى 72 ٪ من الأمريكيين أن سلطة الشركات التي تجاوزت الحد غدت تشكل خطراً عليهم، ويرى 95 ٪ أن مضاعفة الأرباح لصالح المساهمين أمر خطير على المدى الطويل على الأمة بكاملها (أورده فافيلا في 2000/9/14 Les Echos).

وينظر للعولمة في ناحيتي الأطلس بصفتها ظاهرة تعمل لصالح نخب السلطة التقنية وليس الشعوب.

فالنظام الاقتصادي "أصبح مهدداً من جديد بصراع مصالح، بدرجة أقصى عنفا. ويمكن أن نذهب إلى حد القول بأن منطق السوق الدولة كما يمارس حالياً، يحكم علينا بصراع مصالح الرأسمال ومصالح الشغل". هذه السطور ليست ليساري حالم، بل هي لجان ماري مسياي. J6.com, Livre de Poche 2000, p153

24) Recherches, Revue de Mauss

(حركة مناهضة للنزعة النفعية في العلوم الاجتماعية)

N 9, premier semestre 1997

25) لم يحدث يوماً أن كان مجموع البشر مهددون في بقائهم"
Viviane Forrester: l'Horreur économique, Fayard, 1995 p. 164

26) كتب دجور مستحضراً روح حنة أرنت وكتابها المشهور حول محاكمة أريتشمان "بعبارة تهوين من الشر، لا نعني فقط الحد من استنكار الظلم والأذى، ولكن نعني أبعد من ذلك المسار الذي يهون من جهة من شأن الضرر (...) ومن جهة أخرى يعبئ تدريجياً عدداً متزايداً من البشر لصالح عمل الشر ويجعل منهم متواطئين". Souffrance en France Seuil 1997 p 196-197

27) حسبما ذكر جان فرانسوا روفل La grande Parade, Essai sur La survie de l'Utopie Socialiste Plon 2000, p 353

28) Frederic Beigbeder, 99 Francs, Grasset 2000 والمؤلف نفسه خبير في الترويج، يبدي هزلا وقدرة على الاستهزاء لا يتمتع بهما المعقبون عليه، الذين يشبهون في الجدية المفوضين السياسيين.

29) كان بإمكان كتاب كلاب الحارسة الجدد (Serge Halimi: Raisons d'agir 1997) الذي كتب بقريحة وموهبة أن يكون رصداً مدمراً لعيوبنا الاجتماعية (على طريقة لا برويير)، بتسليط الضوء على هؤلاء السادة والسيدات المنحدرين من عالم الصحافة والأدب والفنون الذين يتهافتون على التلفزة لإبلاغ

رسائلهم، بيد أن المؤلف الناقم خلص دون أن يخشى الاستهزاء إلى إنهاء مصنفه الهجائي بأنشودة الأشياء، وذكر المقاومة الفرنسية ضد النازية أين ستختبئ الحاجة إلى التميز؟ صحيح أننا لا نجد سوى أصناف المقاومة التي نستحقها عندما يكون الخطر تافهاً، يتعين التفاخر والتشدق.

30) راجع في هذا الخصوص تأملات جان كلود ميشاي الممتازة في Recherches, Revue du Mauss, Opus cité pp 193 à 203

31) أحصيت في خريف 2000 بفرنسا 116 حالة اعتداء ضد اليهود، من بينها العديد من أحداث حرق المعابد، في مرحلة كانت تتردى الأوضاع في الشرق الأوسط. وفي هذا المضمار، اعتمدت المنظمات المناهضة للعنصرية والقادة الروحيون في كل مجموعة مسلكاً مثالياً لنزع فتيل الانفجار ولم يوفقوا في ذلك.

32) Transversales, Science/culture n 35 (1995)

كتب باتريك فيفرت: "نحن أمام أمراض نفسية جماعية، يتشكل أحد وجهيها من الحرب الاقتصادية، ويتشكل الآخر من الأصولية والتطهير العرقي. الوجه الأول يؤدي إلى التطهير الاجتماعي: الاقتصاد يؤدي إلى عودة البؤس ويطرد الشحاذين من جديد من المدن. والوجه الآخر يؤدي إلى حروب دين جديدة وإلى الإرهاب وإلى التطهير العرقي".

ذكره رانيه باسيه

33) René Passet, l'Illusion néolibérale opus cité, p160.

هكذا يدعي المخرج السينمائي فيليب دياز في برنامج وثائقي بعنوان "النظام الدولي الجديد" إنه يقول الحقيقة في مقابل "التزييف الإعلامي الرسمي". فحسب رأيه، فإن المسؤولين الحقيقيين عن هذا النزاع هم القوى الغربية وفي مقدمتهم بريطانيا والولايات المتحدة لأسباب تتعدى الجشع والتعطش للماس، في الوقت الذي ينظر لمتمردي الجبهة الثورية المتحدة الذين ينشرون الموت والرعب في السكان بقطع أيدي وسيقان ضحاياهم بصفتهم أولاداً طيبين يشوهون بفظاعة منذ أمد بعيد لم يصل إلى الهذيان العالم الثالث إلى التعبير بمثل هذا الوضوح.

34) Pierre Bourrdieu: Contre-feux 2 raisons d'agir, 2001, p 69

35) IGNACIO Ramonet : Propagandes silencieuses Galilée 2001

36) Opus Cité pp 103-121

37) في عام 1973 اعتقد المدعو ب."كاي" أنه رأى في رسائل خليعة مخفية في مكيفات زجاجية دعوة للتهتك! وفي عام 1990 أطلق Vodka Absolut حملة مثيرة: كأس فودكا على زجاجة بحيث يبدو منقوشاً بوضوح على الزجاجة عبارة "Absolut".

Naomi Klein: Opus Cité pp359-360

38) Chirstophe Aguiton, Rebonds - Libération, 24/9/2001

39) Serge Latouche: Recherches Revue de Mauss, 1997 Opus Cité pp 144-147 . Le procès de la Mondialisation, Fayard, 2001 p. 9

40) René Passet: Eloge du mondialisme, Fayard, 2001 p. 159

41) يعـزى لميشـيل كـامـدسـيس القـول في الأسـبـوع الذي سـبق استـقـالتـه من منصب المدير العـام لصندوق النقـد الدولي أن "صندوق النقـد يشكل أحـد عناصـر بناء مملكة الرب". ذكـره كـريستـوف آغـيتـون في Le Monde nous appartient, Plon, 2001, p. 225

42) Pierre Bourdieu: Contre-feux 2, Opus Cité, p. 89

43) Gilles Châtelet: vivre et Penser comme les Porcs, Folio, Gallimard, 2001, pp 20 et 31

44) Le Monde Diplomatique, Manières de voir, Sociétés sous contrôle, Mars - Avril, 2001

45) Jean Baudrillard: L'esprit du terrorisme le Monde 2/11/2001

46) Jacques Garello, Philippe Saint-Marc: Une économie Barbare Krisis 18/11/2000

47) Jacques Garello, La nouvelle Lettre n 666, Avril 2001

48) Idem, La nouvelle Lettre n 666, Avril 2001

49) Alain Gerard Salama: l'Angelisme Exterminateur Grasset 1993.

50) Pascal SalinÅ: Libéralisme Odile Jacob, Avril 2001

51) عندما تصير الوضعية محتكرة إلى هذا الحد من القوة العالمية، عندما نكون أمام تكثيف هائل لكل الوظائف عن طريق الماكينة التكنوقراطية والفكر الأحادي، فما هو السبيل عندئذ سوى تحويل إرهابي للوضع ؟ فالنسق ذاته هو الذي أنشأ الشروط الموضوعية لهذا القلب الحاد، فبالتقاطه كل الأوراق لنفسه يفرض الآخر على تقييد قواعد اللعبة".

Jean Baudrillard: l'Esprit du terrorisme le Monde 2/11/2001

52) Regis Debray: Lettre d'un voyageur au président de la république" Le Monde 13/5/1999

53) Regis Debray: l'Europe Somnambule - Le Monde 1/4/1999

54) Ibid

55) Ignacio RamonetÅ: Propagandes silencieuses, Opus Cité, pp.14,15,16

56) المرجع نفسه ص. 15

57) ورد الاستشهاد في Nicolas Barvez: USA: La tentation de la démesure, Le Monde, 26/06/2001

58) إن الولايات المتحدة هي أيضاً دولة رفاه، مختلفة عن دولتنا، وهي تحت الرقابة السامية للطبقات المتوسطة والعليا التي لا تقيم شأناً للمحرومين، خصوصاً إذا كانوا يحصلون على إعانات دون شغل. ومن هنا النزوع إلى استبدال الرفاهية Welfare بـ Workfare أي إلزامية الحصول على شغل لتلقي المساعدة. ولكن لا نجد شيئاً مماثلاً لضماننا الاجتماعي، ففي عام 2001 استفاد 5.18 مليون شخص من قسيمة غذاء، وقد اقترح الرئيس بوش عام 2002 تعميم هذا الإجراء على كل المهاجرين من غير المواطنين New York Times 10/1/2002.

59) Jean-Claude Guillebaud: La Refondation du monde, Seuil, 1998, p.141

60) A.G.A. VALLADO: Le XXI siècle sera américain, La Découverte, 1993, p.87

61) في عام 1996 أراد العالم السياسي صامويل هانتغتون الحد من غرور بلاده وتذكيرها بالمسافة القصيرة التي تفصل

الكابيتول عن الصخرة الترببينية، فبين بالاستناد إلى الأرقام أن نصيب الإنجليزية في ركب اللغات الحية لم يفتأ ينخفض، فانتقل من 9.8 ٪ عام 1958 إلى 7.6٪ عام 1992 لصالح العربية والإسبانية والأنواع المختلفة من الصينية The Clash of civilizations, حول هذا الكتاب أحيل لدراستي Si-mon and Schuster, New York, 1996, p111

في مجلة اسبري:

Samuel Huntington ou le retour de la fatalité de l'Histoire, Novembre 1997

62) ذهب المعلق الصحافي المحافظ تشارلز كروثامر إلى المطالبة بالهيمنة الأمريكية الشاملة، وبين أن واشنطن على حق في مواقفها الانفرادية في مسائل الدفاع والبيئة، لأن روسيا لم تعد لها قيمة، والصين لا تستحق الاهتمام. واعتبر أن الإمبريالية السمحة التي تمارسها الولايات المتحدة في صالح العالم كله من حيث أمنه وديمقراطيته. وقد رد عليه وليام بفاف موضحاً أن أن مثل هذه الرؤية للأشياء مهددة بالاصطدام بحقائق عصية، وفي مقدمتها أن الأمريكيين ليست لهم رغبة في أن يصبحوا سادة للكون.

William Pfaff: Global Domination? Tell us conservatives it's been tried? International Herald Tribune, 16/06/09

David Landes : Richesses et Pauvreté des nations, p. (63
679, Albin Michel 2000

64) كيف أرد عندما أرى أنه في بعض الدول الإسلامية هناك كراهية شديدة لأمريكا؟ سأقول لكم جوابي: أنا مذهول، مذهول من وجود هذا القدر من سوء فهم بلادنا. فأنا... أنا مثل أغلب الأمريكيين غير قادر على الاقتناع بذلك. لأني أعرف كم نحن طيبون" الرئيس بوش في مؤتمر صحفي في 11 سبتمبر 2001.

65) "تخصص مجموعة الدول الأوروبية 1.8 ٪ من دخلها القومي للدفاع المشترك، في مقابل 3.6 ٪ بالنسبة للولايات المتحدة، كما أن إنفاق هذه الدول على التسلح تقلص بالفعل بنسبة 22 ٪ منذ عام 1990 على الرغم من كونها في خط التماس مع المناطق التي يتركز فيها عدد من مخاطر ما بعد الحرب الباردة: الإمبراطورية السوفياتية السابقة، دول البلقان، الشرق الأوسط، القارة الإفريقية وفي مقدمتها المغرب العربي. Nicolas Bave-rez: Le monde 28/05/01

Jean-François Revel: La grande Parade, Pocket, 2001, (66
p. 74

67) لقراءة وصف جيد لهذا الإجراء لدى مؤلف يتبناه راجع:

Jean-Marc Salmon: Un monde à grande vitesse, Seuil,
2000, pp 190-198

Bernard Cassen: "Non, La mondialisation n'est pas (68
heureuse", Le Monde, 24/08/01

Tout Sur Attac, Mille et une nuits, Mai 2000 p. 16 (69

70) لاحظ رينيه باسيه أن ضريبة توبين المثلى قد تكون "تلك التي تفضي إلى القضاء على قاعدتها نفسها ويكون مردودها قليلاً"
L'illusion néolibérale

Tous sur Attac, Opus Cité, p. 57 (71

72) كما بين ذلك بدقة ميشال هينوشبرغ عند ذكره لعبارة جاك شيراك "إن المضاربة هي سيدة الاقتصاد" (هاليفاكس اجتماع مجموعة السبعة 1995/5/7)، رافضاً التمييز بين المقاول الجيد والمضارب الشرير، إذ كلاهما يصدر عن العقلية نفسها.
La place du Marché Denoel, Novembre 2001, pp 232-599

73) لنتذكر أن صندوق الأمم المتحدة للإنماء طالب بوضع ضريبة على هجرة العقول، أي هجرى الكفاءات التي تتم من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية (لكي تعوض مصاريف تكوينهم الدراسي لبلدانهم الأصلية). وقد اقترح آخرون فرض ضريبة على البورصة الأوروبية (آندريه غورون عضو مجلس التحليل الاقتصادي، لوموند 2001/10/2).

Pierre Manent: Les liberaux Pluriel, Hachette, 1986, (74
pp. 20-21

75) إن الحل البديل (لاعتداءات 11 سبتمبر) هو في اتجاه الأممية الدنيوية الجديدة القائمة على مقاومة العولمة التجارية. إنها طريقة محدودة، وليس ثمة سبيل غيرها.

Daniel Ben Saïd, Willy Pelletier: "Dieu que ces guerres sont saintes", Le monde 22/11/2001

76) لاحظ ريمون آرون من قبل في كتابه "رفع أوهام التقدم"، 1969، ص. 23 أن اليسار يقوم إما "بمهمة زعزعة الوضع القائم وفي بعض الظروف استثارة ردة فعل عنيفة" أو "منح المؤسسة الليبرالية إرادة الإصلاح والتحفز للفعل".

77) Serge Halimi: Le monde diplomatique, avril 2001

78) لقد دمج البنك الدولي في آلياته التفكيرية أكثر من 70 منظمة غير حكومية تشارك في عمله. André Fourçans, Opus cité, pp 276-277

79) في نهاية المطاف إن العلاقة التي تربط طبقة معينة مع المجتمع بأكمله هي التي تحدد دور هذه الطبقة في المأساة، ونجاح هذه الطبقة محكوم باتساع وتنوع مصالح الطبقات الأخرى التي يمكن أن تخدمها.

La grande transformation, Gallimard, 1983, p.210: Karl Polanyi

80) عالج هنري دسروش هذه الظاهرة بإرجاعها لمنطق الخلاص المتطرف في Dieux d'Hommes, dictionnaire des millénarismes, Mouton, La Haye, 1969

81) Luc Bottansky, Eve Chiapello: Le nouvel esprit du capitalisme, Gallimard, 2000

82) Philippe Raynaud: Les nouvelles radicalités, le débat, mai-avril, 1999

83) Jean-Pierre Le goff, le monde 27/06/2000

84) لفهم إلى أي أحد يؤدي الحوار دون نهاية حول هذا الموضوع إلى أفق نظري مسدود، لنتأمل الاستخدام المتزايد لخطاب الخلاص الأخروي لدى مناصري العولمة ولدى أعدائها معاً.

فهذا توماس فريدامان الصحفي في نيويورك تايمز والمتغني بالعولمة المنتصرة يرى فيها "نور الفجر" في حين يصرخ أنجاسيو رامونيه في المهرجان الكبير الذي نظمته حركة آتاك في أوج مجدها يوم 19 يناير 2002 محرفاً عبارة جيرادو "ماذا نسمي هذه اللحظة التي أصبح فيها عالم آخر ممكناً؟ إن لها اسماً جميلاً أيها الرفاق، وهذا الاسم هو الفجر". ولنراهن على أنه ستثار قريباً عودة المسيح وظهور العذراء.

85) هناك جانب من الحقيقة في هذا الرأي: فذا سائق تاكسي إرلندي ميسور يعيش في ضاحية هادئة من ضواحي بلفست

بمنأى عن الصراعات الدينية يصرح مثلاً للصحافة خلال صيف 2001 "لا أنتمي لا إلى المجموعة الكاثولولية ولا إلى المجموعة البروتستانتية وإنما إلى المجموعة الاقتصادية " (لموند 01/08/14) كما أن المافيات الثلاث الصربية والكرواتية والبوسنية استمرت خلال حرب يوغسلافيا السابقة في جني أرباح طائلة من تجارة التهريب التي مارستها على حساب الجيوش والسكان المدنيين.

86) أورده ألبير هيرشمان Les passions et les intérêts PUF 1980 p. 56

87) Adam Smith: La richesse des nations, Garnier-Flammarion, 1991, Tome I, Livre I, Chap. 2, p. 82

88) ميلتون فريدمان: الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 1976، وزعيم مدرسة شيكاغو، والمدافع المستميت عن المذهب اللبرالي.

89) يشكك ليك فيري وآلان رنولت في وجاهة عبارة اللبرالية الجديدة، فحسب اعتقادهما توقف كل شيء عام 1848، ولم تضف عبارة حايك أي إضافة أساسية إلى نظريات دتكوفيل وكوستات، أي نقد تدخل الإدارة السياسية ونقد الحقوق الاجتماعية الاقتصادية.

لتوضيح كيف أن حايك قد تدحرج على الرغم من كل ما فعل

إلى التاريخانية والبنائية راجع Philosophie politique 1985 p.22, pp 139-155

90) لنقرأ الوصف الذي ورد في كتاب كارل بولاني الذي سبق ذكره (ص. 192-ص. 195)، لتبيان كيف تم الابتعاد بعد مرحلة الصفقة الجديدة New Deal عن مبادئ حرية تنقل الأموال وظهرت "رأسمالية عمالية" بديلة راجع Joseph Schumpeter Opus Cité pp 428-441

91) لو كان النظام الاقتصادي الفرنسي يتضمن فقط 10 ٪ من اللبرالية الحقيقية بدلاً من كونه تهيمن عليه بنسبة 95 ٪ الاشتراكية والجماعية والدولنة والحرفية والوطنية الرجعية لكان وضعنا بالتأكيد أحسن" Esprit libre, l'Harmattan, hiver 2001, p. 130

ها هو على سبيل التماثل المذهل ما يقدمه فيلسوف ماركسي: "إن الشيوعية لم يتم تجاوزها لسبب أساسي هو أنها لم تطبق لحد الآن في أي مكان. إنها ستأتي من بعد" Lucien Scève: Mort et transfiguration du communisme, Le Monde 20/04/2001

92) قال بوش في ميامي خلال حملته لصالح السوق الموحدة المشتركة بين الأمريكيتين: "إن الجيران الأقوياء يصدرون منتوجاتهم ويشترون منتوجاتنا، وينشئون الوظائف والإدارة الطيبة (ربيع 2001).

93) يلاحظ جوزيف ستغليتز الأمريكي الحائز على جائزة نوبل 2001 أن هذه الإمكانية لو كانت أعطيت للشركات المتعددة الجنسية لتوجب على الفقراء دفع أتاوات للمختبرات الغربية لكي يتسنى لهم استخدام الأدوية التي اخترعها أسلافهم.

94) Esprit Libre Opus Cité p. 65

95) Ibid p. 58

96) Raymond Aron: qu'es- ce que le libéralisme? Publication posthume Hiver 1998-1999n 84

97) في الرأسمالية الحقيقية لا يوجد فساد؛ لأن الشأن السياسي مفصول بدقة عن النظام الاقتصادي وليس ثمة تلوث، لأن المسؤولين عن التلوث يتوجب عليهم أن يصلحوا الاضرار التي تسببوا فيها. وليس ثمة بؤس لان الناس يتعلمون بطريقة عفوية كيف يحسنون أوضاعهم، وكيف يتقدمون في سلم دخولهم بفضل مبادرتهم وأهليتهم للعمل والتبادل". (ج. غارلو- مرجع سبق ذكره ص 67). وكما هو واضح فالرأسمالية بالنسبة لهذا المؤلف ليست سوى قطعة من الصليب الحقيقي.

98) Pierre Rosanvallon: La crise de l'Etat-Providence, Seuil, 1981, p. 47, pp. 99-100

99) كتب ريمون آرون بخصوص حايك: "إن لدى اللبراليين في بعض الأحيان نزوع إلى الاعتقاد مثل الماركسيين أن نظام

العالم يمكن أن يوفق بين الواقع ومطامحنا" ذكره روبير لازاد في: Liberté économique et progrès social, Septembre, 1999, p. 16

100) J 6. Con livre de poche 2000 pp.196-197

101) Gary Becker: 1997, Cité in procès de la mondialisation, Fayard, 2001, p. 20

حسب هذه المقاربة "كاملة الشمولية" و"والتجميعية الشاملة" ينظر إلى الحب، وهو الارتباط الإرادي بين رجل وامرأة، من حيث هو ارتباط بين شخصين "يطمحان إلى استغلال اختلافهما وتشابههما بمضاعفة موارد كل منهما إلى أقصى حد عن طريق عقد الزواج للحصول على رفاهية أعلى مما يمكن أن يحصل عليها أي واحد منهما بمفرده". (ورد الاستشهاد في René Passet: Eloge de la mondialisation, Opus Cité, pp 90-91) ومن البدهي، أن مثل هذه المقاربة ليس لديها إلا الشيء القليل لتقوله حول الحب، حتى ولو كانت تبين أن الأطفال هم نفقات محددة ودائمة، وبالأحرى متنامية...

102) "ضمن المنظور اللبرالي الحقيقي من الغلط ادعاء عزل بعض جوانب النشاط الإنساني لتسميتها أنشطة اقتصادية (...) فمن هذه الوجهة، ليس ثمة علم اقتصادي بالمعنى الدقيق للعبارة وإنما علم للنشاط الإنساني يدعوه بعض الاقتصاديين

النمساويين أحياناً براكسيولوجيا" Praxeologie, Pascal Salin,
Libéralisme, Opus Cité, p. 40

103) يجب أن ندحض جذرياً النظرة الاقتصادية التي تصوغ فردياً كل شيء، الإنتاج مثل العدالة أو الصحة (...)." يجب أن نضع في مقابل هذا الصنف الضيق والقاصر من الاقتصاد اقتصاد سعادة من شأنه إعطاء الاعتبار لكل المزايا الفردية والجماعية، المادية والرمزية المقترنة بالفاعلية (مثل الأمن) كما تأخذ بعين الاعتبار كل التكاليف المادية والرمزية المرتبطة بانعدام النشاط وبالهشاشة. Pierre Bourdieu: contre-feux, Opus Cité, p. 46.

104) قدم روزنفالون تلخيصاً جيداً لهذه العلاقة في كتابه حول دولة الرفاهية (ص. 64 وما يليها). والأدبيات حول هذا الموضوع يمكن أن نشغل مكتبة كاملة. لنشر أيضاً إلى الكتاب الذي يدافع بأحسن أسلوب عن اختفاء الدولة. Robert Nozic: Anarchie, Etat et Utopie, PUF 1988

(الطبعة الأمريكية 1974)

105) "في عهد حكومة تاتشر، وعلى الرغم من التسيير الصارم لمخصصات الصحة، إلا أنها زادت بنسبة 3 ٪ Jean-Marc Salmon: Un monde à grande vitesse? Opus-Cité pp 104-105

106) لقد أصبحت اضطرابات المترو والقطار في بعض الشهور من

الانتظام المتكرر بحيث إنه في بعض الأيام التي تصبح فيها حركة البشر عادية تجد الإدارة نفسها ملزمة بإعلان ذلك وكأن الأمر حدث غير عادي.

107) "الحق أن الدولة كانت محرر الفرد. فالدولة بقدر ما ازدادت قوة حررت الفرد من المجموعات الخاصة والمحلية التي كانت تنزع إلى استيعابها من أسر ومدن وجماعات". Textes, Minuit 1975 Tome III, p. 171

لنضف إلى ذلك أن السلطة السياسية من أمراء وملوك هي التي أنشأت وحمت ووسعت الأسواق التي ازدهرت تحت رعاية الدولة وليس ضدها.

وقد بين ميشال هونوشبرغ كيف أن الدولة والسوق يسيران جنباً إلى جنب، يغتني بعضهما من الآخر ويحد بعضهما الآخر. راجع Michel Honochsberg: La place du Marché, Opus Cité pp 310-318

108) في أكتوبر 1981 أحالت المحكمة العليا في لندن "رايلتراك" Railtrac إلى الإدارة القضائية، مما يرمز لإخفاق خصخصة السكة الحديدية التي بدأت عام 1988. ولقد تم تحويل الشركة إلى تكتل، شركة خاصة دون غرض ربحي! أما الاقتصادي الأمريكي بول كروغمان فيحتج ضد الإفراط في الخصخصة الذي استولى على إدارة بوش الحريصة على فك كل القيود

التنظيمية من المدرسة إلى الضمان الاجتماعي، وقد دعا في تعليقه على محبطي النظام الإلكتروني في كاليفورنيا إلى وضع قواعد تنظيمية لعدد من الهياكل الأساسية جداً التي يمكن أن تترك ليد السوق الخفية.

Paul Krugman: They can't "Financialize" every-thing international, herald tribune 20/08/2001

109) في بداية القرن العشرين، كانت ميزانيات الدولة تمثل تقريباً 10٪ من الدخل الوطني وذلك لمجموع الدول الصناعية. وبعد مئة سنة، لم تعد أوروبا بعيدة عن نسبة 50٪ واليابان أكثر اعتدالاً في حدود 35 ٪. André Fouçans, pp 265-266

110) Stephen M. Pollan et Mark Levine, Quit today, Pay cash, don't Retire and More important Die Broke, Harper Business, New York, 1998.

(111) راجع Danièle Hervieu-Leger: La religion en miettes et la question des sectes. Calmann-Levy, 2001, p. 131

112) Le nouvel observateur - supplément Ile de France, 7/10/2000

113) أحيل هنا إلى كتاب ميشل لاكروا الممتاز: Le développement Personnel, Dominos, Flammarion, 2000 والكتاب يقدم في آن واحد صياغة وأداة نقد للموضوع.

114) كما ذكر: Dominique Meda: Qu'est-ce que la richesse? Champ, Flammarion; 1999, pp 131-132

115) Bernard Berret: La recherche économie, Mythe Libéral? Esprit novembre 2000, p. 22

116) بين نوحامي كلاين أن شبكات الموائد السريعة وشركات المعدات الرياضية وشركات الأجهزة الإلكترونية ترعى المدارس وتدعمها بشروط صارمة في الغالب، منمية عقلية "احتراف استهلاكي" لدى التلاميذ والطلاب. ففضلاً على أنه من الممنوع القدح في الماركات التي تساعدك- مثل التظاهر ضد التبغ إذا كان مصنع تبغ يساعدك- فإن المركبات الجامعية الأمريكية والكندية تحولت إلى مراكز تجارية. Noami Klein,No Logo, Actes Sud 2001 pp 123, 124 et 132, 133

ففي الولايات المتحدة تقدم شبكة تشانال وان الموجودة في 40 بالمئة من الثانوايات والإعداديات تجهيزات تلفاز وفيديو بشرط بث دقيقتين من الإعلان كل عشر دقائق.

117) حول سؤال ما هي التلفزة رد بيات هيان ممثل البرتغال في شركة أندمول، منتج سلسلة الأخ الأكبر : Big brother إنها إنشاء مضمون، له من الجاذبية ما يسمح بجلب المتابعين للإعلانات المصورة في الوقت الفاصل بين الإعلانات المصورة. ليست التلفزة سوى هذا" Journal de Dimanche 4/11/2001

118) مثل نادي الكينغ التابع لبرجر كينغ الذي "يطور مجموعة مصالح بين زبنائه من الشباب". فأعضاؤه الذين يصل عددهم إلى أربعة ملايين يتمتعون بحق تسهيلات في الطعام وببعض الهدايا الإضافية. وينظم النادي أيضاً مركز مراسلات. وقد تضاعفت مبيعات برجر كينغ ثلاث مرات منذ 1990 الذي هو تاريخ إنشاء النادي الذي ينشط في 25 دولة.

Jeremy Rifkin, Opus Cité , p. 146

119) إن الحصول على أصدقاء أفضل شيء رائع. ولكن إذا كان أفضل أصدقائك يمارس وظيفة لبرالية، فعلى من يمكنك الاعتماد للتفكير معك حول أهم الأحداث المتعلقة بحياتك الخاصة والمهنية على الأخص؟ سيتحصل على الاثنين باختيارك مدرباً شخصياً: صديق ومدرب" (رابطة المدربين الشخصيين والمهنيين) Robert Reich, Opus Cité pp 204-205

120) Léo Strauss: Le libéralisme ancien et moderne PUF, 1990, p. 375

(صدرت الطبعة الأمريكية عام 1968)

121) Raymond Aron: Les désillusions du progrès, Opus Cité p. 337

122) كتب ميلتون فريدمان في الستينيات في كتابه الرأسمالية والحرية (منشورات جامعة شيكاغو 1963): "لم تكن إيطاليا

ولا إسبانيا الفاشيتين، ولا ألمانيا في مراحل عديدة من السنوات السبعين الأخيرة ولا اليابان قبل كل واحدة من الحربين العالميتين ولا روسيا قبل الحرب الأولى مجتمعات يمكن أن نطلق عليها صفة الحرية السياسية. ومع ذلك في كل واحدة من هذه الدول كانت حرية السوق هي الصيغة المهيمنة على النظام الاقتصادي. فمن الممكن إذن أن تقوم في آن واحد تدابير اقتصادية تكون أساساً رأسمالية وتدابير سياسية لا تكون حرة" فبالنسبة لفرديمان ليست الرأسمالية سوى شرط ضروري للحرية، ولكنها ليست شرطاً كافياً لها.

123) Adam Smith: La richesse des nations, Opus Cité, Tome I, Livre III, Chapitre IV, p. 514

124) SIR Dudley North: Discourses upon trade (Pierre Rosanvallon, Opus Cité, p. 43)

125) عندما سئل المكتب الاستشاري أرنست /يونغ في الموضوع خلال ذلك الاجتماع اقترح مجموعة من الاصطلاحات: "إن هذه الاصطلاحات لا يمكن أن تأتي إلا من الداخل. فما دام أرباب العمل لا مقاعد لهم في البرلمان، ومادام المنتخبون عاجزون عن فرض تصور حديث للاقتصاد على الإدارة وإفهام الاقتصاد الفرنسي أن فرنسا إذا أرادت أن تستمر في تصدير ربع إنتاجها لزمها نبذ تقوقعها على نفسها". بعبارة أخرى، عليكم أن تنساقوا لمنطقنا وإلا سنرحل.

126) حسب عبارة بيار ميسو الممتازة Le laboratoire italien - Le Monde 24/5/01

127) أوضحت وكالة شاس كلينبرغ بهذا الخصوص "لا يمكن لأي صورة، مهما كانت أهميتها، أن تحل لوحدها الإشكالات المرتبة عن ضبابية وغياب مشروع شيوعي حقيقي.

128) J6m.com, Opus Cité, p. 236

129) يقدم كريستان جامبيه تحليلاً طريفاً لهذه اليطوبيا في مجلة La revue des deux mondes، إبريل 2000. راجع أيضاً حول نقاط التشابه بين حايك والنزعة المسيانية الماركسية: Jean-Pierre Dupuy: Le sacrifice et l'envie, Opus Cité, pp 261-262

● تعني عبارة Poltach أحد طقوس الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، عبره يبرز الأغنياء ثرواتهم مع إظهار احتقارها. (ملاحظة من المترجم).

130) هاك مثال واضح على الخلط بين الأشياء: كلفت السلطة الفيدرالية الأمريكية غداة 11 سبتمبر شارلوت بيرز المعروفة بـ"ملكة شارع ماديسون" بمهمة مساعدة وزير الخارجية للدبلوماسية العامة، من أجل الإسهام في إصلاح أمريكيا الجديدة في الخارج. وتتحصر كفاءات هذه السيدة فيما نالته من شهرة خلال حملاتها الإعلانية لترويج الأرز الأمريكي (انكل

بنز) وشامبون (لونغريز ابه بونيت). فما هو صالح في وصفات غسل الشعر سيكون بالضرورة صالحاً للولايات المتحدة.

131) لقد لاحظ جون مان كاين الذي كان أحد منافسي الرئيس جورج بوش خلال تتويج المرشحين الجمهوريين لرئاسيات نوفمبر 2000 أن السياسة الأمريكية "هي نسق قائم على الاتجار بالنفوذ بحيث يتفق الحزبان على البقاء في السلطة ببيع البلاد للغنى الأكثر سخاء" New York Times 1/7/1999.

132) كتبت صحيفة ولستريت جورنال (خريف 2001) في أوج الفترة الانتخابية متحدثة عن مطامح المواطنين الأمريكيين "إنهم يريدون حكومة يمكن أن تشعل وتطفأ بمجرد طقطقة".

133) Pierre Manent: Les libéraux, Opus Cité, 1986 pp 28-29

134) Avishai, La société Decente, Glimats, Montpellier, 1999, pp 145-155.

135) Le crépuscule du devoir, Essais, Gallimard, 1992, pp 252 à 288.

بخصوص الظاهرة، يقدم ليسفتسكي تحليلاً شديد الجلاء، دون أوهام أو حدة، لم ينقص شيئاً من قيمته.

136) في فرنسا تقوم وكالات ترقيم المؤسسات بحسب معايير تسيير المصادر البشرية، واحترام البيئة، والمساواة المهنية.

وفي أمريكا تكافأ عادة القطاعات التي لا علاقة لها بالتبغ والسلاح والجنس وتلك التي تحترم الأقليات. ولا تزيد مخصصات الصناديق الأخلاقية في فرنسا عن 1 ٪ من الاستثمارات في فرنسا في مقابل 10 ٪ في الولايات المتحدة (المصدر مجلة l'Expansion، عدد خاص، مايو 2001). ففي أمريكا يشكل مؤشر العملة النظيفة Good money مقياس الاستثمار الاجتماعي المسؤول. ويبدو أن لا فرق كبير بين قيمته وقيمة مؤشر داوجونس. فالأخلاق رابحة...

137) رمز متع الدنيا في العالم اليهودي - المسيحي.

138) "أرجو أن تدعم الهوية الثقافية لفيفندي ببعض الأنشطة التي تسمح أيضاً بـ "فعل الخير" فمصلحة الشركة ذاتها تتطلب أن تكون لها أخلاق" Jean-Marie Messier, Opus Cité, p 18 et p. 28

139) راجع حول حدود وغموض هذا النوع من الكفاح تجربة مناضلة مارسته، في كتاب Naomi Klein: n'Log, Opus Cité راجع على الأخص الفصل الأخير.

140) Benjamin Constant: De la liberté chez les modernes, 1814 Hachette Pluriel, p. 513

141) Robert D. Putman, Thad Williamson: Pourquoi les américains ne sont pas heureux? Le monde 2/11/2000

142) كما بين دانيال دياتكين في تعليقه على "نظرية المشاعر الخلقية، لآدم سميث في مقدمة كتابه Richesse des nations, Opus Cité pp 34 à 38.

143) على غرار ما دافع عنه بحجة ساطعة دومنيك مادا الذي طالب بتوسيع مفهوم الدخل القومي ليشمل معايير أخرى غير معايير الإنتاج وحدها مثل: التضامن الاجتماعي، درجة العنف، نوعية المرافق العمومية، توزيع الثروة. Dominique Meda: Qu'est ce que La Richesse? Opus Cité

144) حسب الأرقام التي يوردها المؤلف، 8 ٪ فقط من الأمريكيين مستعدون لتقليص العمل، راضين عند الاقتضاء بالتضحية بجزء من دخلهم، مقابل 38 ٪ من الألمان، و30 ٪ من اليابانيين و30 ٪ من البريطانيين. Futur Parfait, Opus Cité, p 12

145) ها هو بالضبط ما يبدو للإنسان ما قبل الرأسمالي بصفته أقصى درجات اللامعقولية والغموض والقذارة والحقارة، فإن يختار إنسان ما غايةً وهدفاً أوحد في الحياة -كفكرة- النزول إلى القبر المغطى بالذهب والثروات - أمر لا يفسر بالنسبة له إلا بنزوع منحرف auri sacra Fames

Max Weber: Ethique protestante et esprit du capitalisme, Opus Cité p 89

146) كما بين ماكس فيبير - المرجع نفسه ص 78.

147) "إن المبدأ الذي يحملنا على التوفير، هو الرغبة في تحسين وضعنا: وهي رغبة تكون في الغالب هادئة ودون أهواء لكنها تولد معنا ولا تغادرنا إلا في القبر".

Adam Smith, Tome I livre II, Chap. 3, Opus Cité, GF, p 4298

148) Suze Orman : The courage to be Rich, Greating a life of material and spiritual abondance, New York, Doubleday 1999

149) يرى جرمي رفكين أن على ثقافة الشبكات أن تولد لدى الشباب "حالة ذهنية أقل حدة في التنافس من حالة الجيل السابق لهم الذين تستولي عليهم العقلية التجارية والملكية (المرجع نفسه ص 274 و 276). ويرى جان ماري مسياي في الإنترنت ثورة سياسية تقلب موازين المعارف التي كانت خاصة بنخبة معينة. (المرجع نفسه ص. 207-208-209).

150) يبين ميشل مارسيولا فيما وراء التنازع بين محبي التقنية وخصومها، إن كل إبداع تقني يشهد ثلاث لحظات: لحظة الاستيهام والهوس، لحظة التجريب، لحظة الابتذال.

Peut-on encore croire au progès? Dominique Bourg, Jean-Michel Besnier, PUF 2000, P.246.

151) تبين دراسة أمريكية، أن الإنترنت لم تغير إلا قليلاً حياتنا:

فتأثيرها الحقيقي يكمن في الفضاء العلائقي والجمعياتي الذي وسعته. فاستخدام الشبكات هو في الحقيقة مكمل للعالم الواقعي أكثر مما هو معوض له، وتنتقل حالياً 10 مليار رسالة إلكترونية يومياً في المعدل. أما التجارة الإلكترونية، فلا تزال في بدايتها، محدودة المردودية، باستثناء تجارة الجنس، التي هي دوماً تجارة رابحة (Libération 21/05/2001).

152) Dominique Lecourt: L'avenir du progrès: conversation avec Philippe Petit, textuel, 1997, p. 75

153) David Landes: Richesse et Pauvreté des Nations, Opus Cité, p. 22.